وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



طبرق ٩٠

رواية

فوزات رزق

قصص وروايات 32

طبرق ٩٠

الإشراف الطباعي

م. ماجد الـزهـر

فـوزات رزق

طبـــرق ٩٠

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠١٠

طبرق ٩٠: رواية / فوزات رزق .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠.- ٢٨٠ ص؛ ٢٠ سم .

(قصص وروايات؛ ٣٢)

١- ٨١٣,٠٣ ر ز ق ط ٢- ٨١٣,٠٩٥٦١
ر ز ق ط ٣- العنوان ٤- رزق ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٣٢»

وفي البدء كان الحلم

كانت ريح، وكان مطر، وكان طوفان أغرق القميرة من حولك.

وأنت بين الصحو والحلم .

لازلت تحتفظ بالصورة؛ الوجه المستدير كرغيف تنور، العنق كغصن مشرئب، القامة كرمح. جسد يطفح بالرغبة، يستدعيك كل لحظة، يجعلك في حالة توفز دائم. ينوس بين يديك، وأنت تعاقر ذلك السحر. تتضج أصابعك على وهج الخصر، وترتعش شفتاك على تخوم ذلك الجحيم من النبيذ البلدي. وتسبح عيناك في فضاء من الزرقة. كأنك تطل من نافذة اشتهائك على بحر، أو كأنما ترقى جنائن بابل المعلقة من عرقوبها أمام ناظريك .

وأنت بين الصحو والحلم . يأخذك هاجس من الداخل أن اعبر تلك المسافات الكاذبة، فلا حدود أمام توحدك بها، واشتياقك إليها.

«يا أنتِ ... يا هذه المسحورة على هيئة تفاحة، المنسوجة من خيوط الفجر. المسجونة في هذا الملاك الذي يتراءى لي، الموثوقة إلى عمود يرفع سقف بيتي. هل كنت أنتظرك كل هذا الوقت؟. وهل أضربتُ عن الاقتران بسواك كل هذا الزمن؛ حتى تجيئيني في هيئتك هذه، معجونة بماء الحياة ؟!» .

رفعت الأقلام وجفت الصحف .

لم يبق أمامك إلا الخواء، وغرفة يقرع نافذتها البَرَد، وتهز جدرانها ريح عاتية. إنها العاصفة التي تجتاح القميرة كل عام في هذا الوقت من فصل الأمطار .

تغمض عينيك مستعيداً صورتها، فلا تفلح مخيلتك في الاحتفاظ بالملامح التي تبددت، تتجمع مثل غيوم شباط، لتظهر أمامك بكيانها الحلمي، شيئاً من جنية بحر، ثم ما تلبث الريح أن تعبث بها، فتشتتها .

كم مرة حاولت استحضارها؟!. بيد أنك لم تفلح... لم تفلح. وقد أخذت عقارب الساعة تمضي بك حثيثاً إلى الثامنة إلا ربعاً. ربع ساعة فقط أمامك كي تكون في المدرسة. وأنت الآن لما تزل في منامتك، ودفئك، وأحلامك .

هل نسيت؟!. أنت مناوب اليوم؛ عليك أن تكون في المدرسة الآن. لن تسمح لك ربع الساعة المتبقية إلا لتغمر وجهك بالقليل من الماء، وترتدي ثيابك دون مراقبة أناقتك التي تحرص عليها قبل خروجك ولو إلى باب الدار .

الثامنة إلا خمس دقائق، إلا ثلاثاً، إلا اثنتين.

عندما انطبق العقرب الطويل على الرقم «١٢» كنت وإياها على موعد.

أنت تقود لهاثك وتدفقك، وهي تقود الصغير. وأمام باب المدرسة... يا رب الكون ! معقول؟!. كيف حدث ذلك؟!. وكيف تجمعت أجزاء الصورة بهذه السرعة المذهلة، وحضرت أمامك حية هذه المرة، تكاد تتقراها بأناملك؛ ذلك الوجه المستدير، والعنق المشرئب، والقامة الرمح. هي... هي. تلك الجنية التي أضعتها ذات حلم، وكل حلم .

كم حاولت تجميع أجزائها؟!. كم ركضت وراءها؟!. كم لهثت لتتشبث بها قبل الصحو؟!.

هاأنت الآن على موعد مع ضجيج العاصفة، وقرع حبات البرد، صبحان، وصحوان، وشمس واحدة.

هل قالت صباح الخير؟ لم تستطع أن تتأكد. لكنك متأكد أنك أجبت :

ـ صباح الخيرات والليرات.

ظننت أنك تخاطب الصغير، فلم يتورد وجهها، لم ترتعش لها يد، غير أنك واصلت خطابك للصغير :

– وأنت متأخر كمان؟ .

فأشرقت هذه المرة:

– كل يوم لازم وصله بإيدي.

– أحسن.

هكذا وجدتك تنطق. لعلها أدركت أنه من الأحسن أن توصله بيدها كي تراها كل يوم. هل تقصد أنت ؟. ربما .

وانتهت المقابلة مثلما ينتهي كل حلم من سلسلة أحلامك المتشابهة. ومثلما تبدأ كل مرة بتجميع صورتها أخذت تستجمعها بعد إقلاعها، دون فائدة. كيف اختفت مرة أخرى، وقد كنت عنها مسافة شهقة الروح ؟.

إذاً هي! ما علاقتك بالأحلام؟. أخذت تتذكر؛ يقول الشيخ داود: « **المنام فكر وذكر وبكر، الفكر والذكر هداس، والبكر قياس ولباس** » أي كأنه لباس قد قيس على جسدك، وما تره في المنام تره في اليقظة.

إذاً لم تكن المرة الأولى التي تقتحم حلمك، فتظهر مثل شمس، ثم تختفي مثل سراب. منذ أن وطئت قدماك أرض القميرة، واحتوتك تلك الغرفة الصامتة، الراقدة منذ دهر على كتف البركة الغربية، وسط ضوضاء مناشل الملايات، وأجراس البقر، ونواقيس الأغنام التي تغزو البركة صباح مساء.

والقميرة ليست مدينة يضيع فيها الناس، هي مجرد قرية عالقة بين تلك الصخور النافرة. وأنت غريب ! كلهم يعرفونك، وهي تعرفك بكل تأكيد. هل كانت مصادفة؟! .أم أنها اتخذت من الصغير حجة؟.

تسأل الصغير عن تلك التي اقتادته، يقول لك:

- **أختي سلمى.**

. تنتظر صباح اليوم التالي بلهفة، تقف أمام بـــاب المدرســـة، تدخن سيجارة، تحادث الأولاد، يمضي بك الوقت، ولا فائدة؛ لا الصغير، ولا سلمى.

يصبح البكور عادة، عشرون يوماً تمضي، تطاردها نهاراتك ولياليك، يستهلكك الترقب، السؤال، الاستقصاء. لم تكن تـــدري أنها أول حالة نكاف يصاب بها ذلك الصغير إلا حينمـــا انتـــشر النكاف في المدرسة، هكذا وجدت لنفسك سبباً وجيهـــاً للزيـــارة. أنت أيضاً معني بتلاميذك. هل كانـــت الزيـــارة لتفقـــد أحـــوال الصبي؟ إذاً ما معنى الزيارات الأخرى المتلاحقة ؟ والمقابلـــة الحارة من الأهل: « *المعلم جاء يطمئن عن صحة الولد*» ومنها أيضاً: « *لا نستحق هذا العناء*». هكذا انعقدت الألفة، بين معلـــم وبيت، تتردد على البيت، تقابلك بسمتها، لهفتها، انتظارها. وحين عاد الصبي إلى المدرسة عادت تتحفك بصباحها الجميل :

– **اليوم عنا مغربية ! بتحبها؟.**

ويسيل لعابك، هل تحـــب المغربية إلى هذا الحد؟!. وتجد نفسك مدفوعاً تســـلك ذلـــك الـــطريق الـــذي سلكته أول مرة لعيادة الصغير.

يتقدمك مبشراً بقدومك:

– **إجا الأستاذ .**

فتتبعث في الدار حركة غير عادية. ما كنت تعتقد يوماً أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه؟ ولو أعطيت فرصة إعادة تشكيل الأيام، أكنت تقدم على ما أقدمت عليه؟ .

لولا إصابتك بالنكاف لما حدث ما حدث، وربما حدث بسبب آخر، من يدري. بذرة ستزرعها في حالة رهق، فتنبت في غير تربتك، وتنمو في غير محيطك. وستمر سنوات كي ترى النبتة أمامك غصناً طرياً، ندياً، تسوقه المصادفات إلى حيث أنت في تلك الأصقاع البعيدة.

من النادر أن يصاب الكبار بالنكاف لكنك أصبت، عدوى الصغار انتقلت إليك. كيف تزور امرأة شبه مطلقة معلماً عزباً في قرية مثل القميرة؟ وماذا تقول لو سألوها؟ لو اتهموها؛ هي التي تركت زوجها، ولم يمضِ عام على زواجهما؟.

تقول لك حينما دخلت بمنشلها ذلك المساء:

- **لا تواخذنا، قصّرنا معك .**

وتجاملها :

- **ما قصّرتِ، ليش مكلفي حالك .**

وينقطع الحديث. تجلس قبالتك مجانبة، متكئة على منشلها. وحينما نهضتَ من سريرك تريد الاحتفاء بها نفرت مثل ظبية، هبت واقفة:

- **إسّى بيستعوقوني.**

خرجت وتركت خلفها العاصفة، ودواراً فوق ما أنت فيه. لم تترك لك الفرصة لتسألها، كيف؟ ولماذا؟ وهل ستعود؟. من أين لك أن تستقصي أخبارها من مصدر آخر.

انتظرتها في المساء التالي، على الموعد نفسه، هي تختار هذا الوقت حينما تكف الملايات عن ورود البركة، وتبدأ طلائع العتمة تضفي على البركة شيئاً من السكينة.

لم يخب رجاؤك، هذه المرة تحفزت لها، فاجأتها بأسئلتك دون مقدمات. ماذا تنوي؟ وما وراء تلك الملاحقة؟.

قالت لك إنه هامل يمضي أيامه في البيت، دون عمل، تحركه فلا يتحرك، تحثه فلا يستجيب لشيء، حتى لهذا الجسد العامر بالبهجة. ألزموها به:

- ابن العم بينزل العروس عن ظهر الفرس. مش هيك؟!

لكنها لم تطق صبراً إنه لا يستحق كل هذا الجمال. ولا يعرف كيف يكتنفه كما ينبغي، هكذا أدركتَ من بوحها المتقطع.

وتتالت زياراتها متقطعة، حتى حل ذلك المساء حينما جاءتك مضطربة:

« جاء اليوم، ولا بد من العودة، والدي أصر، وضع شروطاً قاسية، والرجل تعهد أمام الرجال، وحلف، ما بقي أمامي عذر »

كانت تتحدث وأنت تصغي، فجأة غاصت الكلمات في بئر عميق، وأوغلت في النشيج. وقفتَ، اقتربت، مسحت ما انحدر على الخدين بمنديلك، لأول مرة تتقلص المسافة بينكما إلى هذا الحد. أكنت تنوي التخفيف عنها عندما وضعت يدك على كتفها ؟ إذاً لماذا التفّت يدك الأخرى تحيط بها؟ أكنت قادراً ساعتها أن تحتفظ بهدوئك أمام سعير أنفاسها؟!. لم يكن ممكناً الوقوف عند حد؛ وأنتما في هذه الحالة من التوحد. وحينما أردتَ أن تمضي بعيدا في تهجّدك أمام معبدها تململتْ، فتململتَ، إنه السيف الذي قد سبق العذل .

بعد ذلك غابت... غابت كما غاب الحلم. وستمر سنوات حتى تراها ثانية، هكذا قال الشيخ داود، وأضاف: ولن تجتمعا بعد الآن في حلم.

* * *

إلى والدي ... أخبار

أخيراً أيقنت رئيفة أن رغبتها قد أينعت فاكهة مشتهاة، تلك التي اشتعلت في صدرها منذ أن دخلت فلكه، وامتلكها فيما امتلك، يوم جاءت بديلاً عن أمي التي غادرت تاركة خلفها ظلالاً قاسية، وألواناً من الأحزان المتكاثفة.

رغبة جامحة غزت أفراد العائلة في دار النصيرات، وعششت في صدورهم كما يعشش العشب في زواياها المتداخلة، وممراتها الملتوية؛ جميعهم كانوا يتمنون أن أتخلص من رمزية، كانوا يرون أنها تضغط على شرياني مثل حية، حتى حولّتني إلى خرقة بالية.

ربما كانت رئيفة أكثرهن كلاماً، لكنها لم تكن أكثر عدائية من نعايم وريوف وبقية أخواتي السبع. كن يشفقن أن تذهب دار النصيرات للوارثين، وكن يعملن ما بوسعهن كي يرين لأخيهنّ سالم ولداً يدرج في تلك الرحاب الخالية من صخب الأطفال وعفرتتهم .

ومن جهتي فقد كنت أحترق مثلهم في هذا الأتون الذي رأيتني فجأة أتقلب فيه على سفود حقدهم وكراهيتهم لهذه المخلوقة التي كانت تمتلئ حباً، وتشتعل أنوثة، وتتقد معي على السفود ذاته.

* * *

بالأمس حمل لهم بريد طبرق نبأ حرك الفرح في الدار؛ رقصت له نعايم وريوف مثلما رقصت رئيفة التي أخذت تهتز، فيهتز معها جرابان فارغان يتدليان فوق صدرها. لقد أرادت رئيفة أن تعيش هذا الفرح القادم من الغرب، فتوجهت إلى أبي سالم تستحثه كي يقرأ لها الرسالة مرة ثالثة .

نظر إليها محاولاً اكتشاف سر الفرح المشتعل في جسدها، فقالت له:

- **ابعثوا لأهلها، لازم يعرفوا .**

لكنه أفهمها :

- **يعني أهلها شي، ونحنا شي؟!.**

فردت تسوغ سر إلحاحها :

- **حتى ما يقول إنسان هذه دعاية جديدة من دعاياتنا.**

عندئذٍ وجد نفسه مرغماً على أن يزجرها :

- **يا رئيفة! حرام عليكِ، الحرمة ماتت و شبعت موت، ارتاحت وريحتك.**

وفتح الرسالة وأخذ يقرأ :

ـ اسمعي « لقد فتحت رمزية في قلبي جرحاً واسعاً لا يندمل، وتركت حولي فراغاً قاتلاً» .

عندئذٍ امتزج في ضحكتها نوع من السخرية والغبطة، واقترحتْ عليّ غيابياً أن أسد الفراغ الذي تركته رمزية بالبلوك، أو حتى بالإسمنت المسلح. غير أنه انتهرها، وربما جازف جراء ذلك بطاعتها له في الليل، لقد كان يصفها لي دائماً « **حرمة جهنمية** » وإن الله كان بصدد أن يخلقها شيطاناً. وكان يلجأ إلى المقارنة بينها وبين أمي، فيخرج من صدره ألم تهتز له أحشاؤه، ويتمتم : « **الله يرحمك يا أم سالم** » .

وحين أدرك أنه آذاها حاول أن يغير لهجته :

- **رئيفة ! الحرمة ريحتنا من همها، صار علينا إنا نقوم بالواجب.**

ودون أن ينتظر جوابها توجه إلى مضافة النصيرات، ليتحدث مع الرجال في إجراءات المأتم.

ذلك اليوم شاهدت المجدل مأتماً حافلاً تلاقت فيه العيون، وتحدثت بصمت عن مأساة ما، وتهيأ الجميع لتأبين رمزية تأبيناً يليق بصبية، فيما كان والدي يشيد بشرفها وعفافها وسعة صدرها.

وسوف تظل هذه الرسالة، وتلك الوقائع لغزاً إلى أن أكتشفه بنفسي مصادفة بعد أربع سنوات من تاريخ التأبين.

من جهتي كنت أعيش مع رمزية معركة متكافئة؛ هي بأنوثتها وعطرها وعنادها، وأنا بانشداهي بها من جهة، ونزوتي مع مصيونة من جهة أخرى، وعقدتي التي حملتها معي يوم غادرت المجدل ممعناً في البعد.

كانت طبرق تكتنفنا بظلالها القاتمة، وانكسارات الشباب الذين طوحت بهم المجدل إلى ذلك الجزء من الجغرافية العربية، يستنزف أدمغة الجميع وعرقهم وأحلامهم قطرة قطرة، ويستبيح ذاكرتهم، ويزرع الخشخاش في شرايينهم. وكانت الحاجة عايشة قد بسطت سلطتها علينا بالكامل أنا ورمزية، وجعلتنا نعتقد أن حلاً ما لا يمكن أن يأتي إلا من النافذة التي تفتحها بيدها ليدخل الهواء المحمل بعبق الخصوبة .

هل كانت الحاجة عايشة تسخر منا يوم أذعنّا لسلطتها؟!. وأخذنا ننفذ أوامرها بشيء من القدسية؟. وهل كنت في وعيي وإرادتي يوم أسلمت لها قيادي؛ وأنا ذلك المعلم الذي جاء إلى طبرق يحمل رسالة، وينشر مفاهيم وقيماً عالية ؟. هل كان عقلي حاضراً يوم جرفتني مصيونة باتجاه عطرها الذي تسبح به يوم خطرت أمامي بزيها الليبي الشعبي، فجعلتني أقطع المسافات وأقيسها ما بينها وبين رمزية؟.

إذاً شتّان بين ما كان يجري في طبرق؛ وما كان يجري في المجدل في ذلك اليوم الذي أبّنوا فيه رمزية، وصلّوا عليها صلاة الغائب، ثم تناولوا طعام العزاء عند محسن الحوت حيث ضمتهم مضافته مع أهل رمزية على طبق واحد، وعلى همٍ واحد، مع الفرق في مقياس الفجيعة في قلوبهم جميعاً .

* * *

إلى رئيفة... انتقال

ظهرت كأنها تحمل الهم وحدها، هي التي تنفخ في النار التي لا تلبث أن تتقد في صدور أفراد العائلة من دار النصيرات.

والذي أثارها أنها لم تستطع أن توصل هذه النار إلى صدري. كانت تحاول أن توقدها فتنطفئ، صوت من السماء كان يهتف : « **يا نار كوني برداً وسلاماً على سالم** ». لقد كنتُ متعلقاً برمزية تعلق الشريان بالقلب، كنت مشدوداً إليها بحبل سريّ، مربوطاً إلى جذعها، يمدني نسغها بالحياة، كنت أراها زوجاً وأماً وصديقاً. ومع ذلك فرئيفة لم تعرف اليأس. بإلحاح الذباب كانت تحاصرني، وبإصرار النمل حاولت جري إلى البؤرة التي تريدها، حاصرتني مرة وأنا في طريقي إلى المدرسة، كانت تعرف أنني أبكّر، فبكّرت، خلقت أمامي بقدرة قادر مثلما تشرع المفاجأة أبوابها، وكان ما يزال بيني وبين المدرسة مسافة سيكارة، أذبها في هدوء، وأتابع الطريق متمهلاً. لمحتها من بعيد: « هذه رئيفة ! اللهم اجعله خيراً ». توجّهت إليّ:

– **ما تخاف الله يا سالم؟!.**

- لا إله إلاّ الله.

- عشر سنين وأنت تركض وراء الأولاد ، تتعب وتعلّم أولاد الناس، وما تفرح بولد؟!.

لم أكن مستعداً لسماع هذا النوع من الحديث الذي أعادته على مسامعي للمرة العشرين، لا سيّما وأنا أهيئ نفسي لدرس صباحي يختلف عمّا تسعى من أجله. ظهر الامتعاض على وجهي؛ أنا الذي لا أستطيع أن أرسم لي شكلاً آخر، ولا أبدّل بوجهي وجهاً آخر. لكنني محكوم بعلاقة أخرى معها، فهي زوجة أبي، هذا الذي تمسك به من بلعومه، وكان خوفي يتعاظم من أساليبها الثعلبية، وسيطرتها الشرسة على كل من حولها. قلتُ باقتضاب :

- هذا نصيبي على كل حال، وأنا راض.

- بلا نصيب، بلا هوا ! انقطعت النسوان؟ ما بقي غير رمزية على وجه الدنيا تسرح وتمرح؟!.

- بنت حلال، وبحبها، وبتحبني.

- حبها عما، الأيام ماشية وأنت واقف.

انتفضت، أردت أن أنتقم لرمزية، ملاكي الذي على الأرض، وخمري الذي يعبئ رأسي بالأحلام، وقمري الذي يشق أمامي سدفة الليل. لكني تذكرت الخيط الذي لا ينبغي أن ينقطع، ومع ذلك لم يمنعني من أن أخرج زفرة حادة من أعماق أحشائي :

- يعني؟! .

- انت عارف! حكينا بالموضوع أكثر من اللازم

- الحرمة مستورة، وبنت حلال، الله حرمها، وهي بلا ذنب.

- انت أشفق من ربها؟! .تروح تعيش عند أهلها.

عند هذا الحد أبديت رغبتي في عدم متابعة الحديث، أظهرت ذلك بالنظر إلى الساعة، وأعلنت أنه لم يبق أمامي أي وقت، فقد أوشك الجرس يدق. فيما تمتمت وهي تعود أدراجها :

« أنا وأنت يا رمزية والزمن طويل»

* * *

كانت تعلم أن متروكاً أطمع من جمل، وتعلم أيضاً أن محسن الحوت يبحث عن صبية تزرع الأفق عنباً وتفاحاً في صحرائه القاحلة، بعد موت زهية .

وصل الخبر قبل أيام أن محسن الحوت يرفرف في سماء نوفة؛ ابنتها من متروك. من يضمن لها ألا يسيل لعاب متروك على كرم النجوم الذي يلوّح به محسن الحوت مهراً؟!.

كان عليها أن تكمل بناء مشروعها بطريقة غير قابلة للفساد، وهي ليست مستعدة لغلط آخر يفقدها آخر ما تأمل به من هذا الزواج.

لقد ارتضت بأبي على مضض، وشكواها خرقت أذنيّ يوم تفشت بين النساء مثل بقعة زيت، منحته يوم تزوجت به قامة ممتلئة، وصدراً ناهداً ، وردفين مكتنزين، وأتوناً ما تفتأ النار تلتهب فيه، وأبي لا يدري كيف يغذي هذا الأتون. من أين

لوالدي الحطب وقد استنفد كل وقوده. جميع من في المجدل لم يصدقوا أن أبا سالم يمكن أن يستأثر بكل هذا الثراء، وذلك البهاء الأسطوري، لم يتصوروا كيف سيدخل هذه الجنة التي تجري من تحتها الأنهار ،. هل هبطت عليه من السماء ؟!. ومن أين سيبدأ الجني وكل الأجزاء تثير الاشتهاء حد القتل؟!.

ولئن أشعلت رئيفة النار في صدور الكثيرين، فإن النار التي اشتعلت في صدر متروك كانت الأقوى والأعنف. وهي ما تزال تعس حتى تاريخه أدناه. بدأت يوم لفظ كلمة الطلاق بلحظة نزق، ولم يدر أنه سوف يخرج من الجنة، ويحرم من التفاحة التي كانت تعطر مساءاته وصباحاته بالندى.

ولو كان السبب الذي أوصله إلى هذه المتاهة وجيهاً لما أصابه كل هذا النكد. كل الحكاية أنها كانت فتنة، وكان الرجال يتلمظون حين تتحرك باتجاه البركة أو الكرم أو البيدر. كان يسيل لعابهم على أشداقهم حين تلقي تحية الصباح أو المساء، يوم كانوا يشكلون ثلة تحتلّ باب الساحة أو طريق الماء، وكانت عيونهم تأكل قامتها المتسقة، ومشيتها المتّئدة، دون أن يكونوا قادرين على رؤية التفاصيل المثيرة، باستثناء ما تبرزه «التنورة العربي» في الصدر والعجز من ظهورات عاجلة. ألسنتهم كانت تلوك بصمت وعجز عبارات الحسد الموجهة ضد متروك، كيف يستأثر متروك بكل هذا الحقل من الشقيق والأقحوان. وربما

نزّت بعض الأحيان عبارات تخترق رأسها، فتنشر فيه نشوة وخدراً « **فرس بحضن بغل** ». غير أن أحداً منهم لم يكن قادراً على أن يقتنص أكثر من ذلك.

كانت تعود إلى البيت محملة بذلك الكبر الذي أخذ يتنامى جراء الجداول التي كانت تسقسق من يمينها وشمالها، ومن ورائها وأمامها، فتزيد هذا النهر غزارة، حتى يبلغ حد الفيضان.

هذا ما جعلها تصرّف همها باتجاه واحد؛ هو الشرط الصعب الذي برز أمام متروك، فجعله ينفلت. تريد له أن يكون غير متروك الذي تعرفه في البيت، وغير متروك الذي تعرفه المجدل في أحوالها المختلفة:

- **يا متروك افتح المضافة واطبخ قهوة .**

- **يا متروك! بالبلد ضيوف روح ادعيهم على فنجان قهوة.**

- **يا متروك! ضروري اليوم تروح على الأجر.**

أخذ متروك يمضغها، حتى انتفخت أوداجه، وامتلأت رئتاه. أخيراً صاغ احتجاجه على النحو التالي :

- **لازم أعرف مين فينا الرجال ومين المرة.**

فأكدت له أنها هي المرأة، ولكن عليه أن يكون الرجل. احمرّ واخضرّ واشتعلت العاصفة. لم يكن يمنعه شيء من استخدام يده، لكنه حسبها في آخر لحظة، وربما تبين له أن الأمور قد تتطور إلى وضع لا يريده.

وجاء الليل، فظن أنه مسح عاصفة النهار، وأن السماء قد صفت، وتبددت غيومها مع آخر خيوط الضياء المنسحبة باتجاه الآفاق الغربية، فما أكثر ما وصلت الأزمة بينهما إلى أبعد من ذلك، ولكنها ما تلبث أن تتلاشى.

غير أنها ابتدأت من هناك... من الضحى، وحين أراد أن يسقط في فراشها:

- **غسلت؟!.**

تجاهل سؤالها، خلع سرواله، رماه بنزق، مثل من يهم بقضاء أمر عاجل. ظهرت ساقاه العجفاوان؛ مثل حطبتين تحت قميصه المقلم، الذي يصل إلى الركبة. فيما أخذت خيمة بالتشكل في فضاء قميصه الذي يعبث به هواء الغرفة.

رفع اللحاف، وانزلق جانبها. انتفضت واقفة دون أن تصلح من شأنها. كان بإمكانه حينئذٍ أن يميّز نهراً من الوهج، ابتدأ من العنق، وتحدّر إلى الأسفل الأسفل، ولم تستطع تدويرة القبة أن تحجب عصفورين تقافزا ذعراً، فاشتغل بصره بمنبتهما أعلى الصدر مشكلين ذلك الممر الوردي المشتعل، والمنساح أبداً باتجاه الأسفل .

التاع متروك، وهو الذي لم يذق طعم النوم في فراشها منذ عشرة أيام. كان عليه أن ينام على البيدر حيث تكومت غلال سنه كاملة. وما إن رمى آخر «شتلة»(١) من الحب في الحاصل حتى

---

(١) الشتلة : الشوال، أو العديلة المملوءة حبا.

أخذ يهيّئ نفسه لهذا الطقس الغجري. نظر إليها بكبر، وأمرها بحسم أن تعود إلى الفراش، فاستطال عنقها مثل فرس، وارتفعت أرنبة أنفها مع ارتفاع رأسها. وارتفع الثوب الذي كان يصل إلى منتصف الساقين، حتى انحسر إلى ما فوق الركبتين. عند ذلك استعر متروك... زاغ بصره حين جال في ذلك الفضاء المعبّد بالمرمر... كأنه يراه لأول مرة... صرح من الرخام انتصب أمامه فجأة، كأنما نبت من أعماق الأرض، ضج في داخلة ألف حصان، ولم يبق فيه ما يدعو إلى التريث، لقد احترقت كل المراكب التي يمكن أن تعود به إلى الشاطئ الآخر، كما انقطعت كل الحبال التي تشده إلى الأسفل. ومع ذلك لم يقو على الوقوف، زحف نحوها، شدها من ثوبها، امتدت يدها تريد النجاة من دوار البحر، لكن يد الأخطبوط التفت حول معصمها بسرعة مذهلة، وجذبتها إلى القاع. عندئذٍ أذعنت، وترهلت كمن يسلم جسده للريح.

كان متروك قد نضج قبل أوانه، وانساح عنفوانه بلا نفع، يعصف بما تبقى من الشهوة التي تلاشت عبر ارتعاشات باردة .

في هذه اللحظة عبّر عن خيبته بتلك الطريقة البلهاء، وارتكب الحماقة التي ظن أنها نوع من رد الاعتبار. وسيظل متروك منهوكاً، تأكله الحسرة كلما لمحها تخطر بتنورة المخمل المرصع العنابية، يوم كان يسكر على خمرها رجال المجدل كلهم.

* * *

إلى رمزية... توحّد

إن فكرة الزواج بأرملة لم تكن واردة أصلاً في حساباتك. وحينما اتصل ما بينكما، لم تكن قد كشفت عن رملتها بعد، ربما لأنها لم تجد في البدء ما يسوّغ هذا الاعتراف. وربما لأنه لم يخطر ببالها أصلاً أن ذلك اللقاء العابر، الذي تم بينكما في أحد المحالّ التجارية في شارع الشعراني بالسويداء؛ سوف يؤدي إلى ما انتهى إليه.

كان الأمر ببساطة أنك تريد أن أشتري هدية لأختك نعايم التي ولدت حديثاً، فوجدتها أمامك؛ تتجدك حينما أعياك الخيار المناسب. تدخلتْ بشكل مفاجئ، فلفحك فضولها، وحين أمعنتَ النظر رأيتك مصلوباً على خشبة ذلك المعبد الذي هبط من السماء، فارتفع أمامك بإتقان عجيب. دفعة واحدة وجدت نفسك أمام معبد وثني، يرتفع على أعمدة من المرمر، أخذت تصغي إلى ذلك اللحن الشجي، الذي انداح في المكان فجأة، ففاحت رائحة التفاح، وملكت عليك كيانك، وأحاطتك برداء من السحر الحلال.

استهللت استجابتك بابتسامة مشرقة؛ كان عليك أن ترد على السؤال الذي نطقتْ به دون أن يبدو عليها أي قدر من توليف الموقف. سألتْ عن جنس المولود، كي تكون الهدية مناسبة، ففتحت يديك وأدرتهما بآلية دون أن تدري ما تفعل:

- **بنت.**

- **إذاً اللون الزهري أنسب.**

هكذا أطلقتْ حكماً لم يكن من وجهة نظرك قابلاً للاستئناف، ولا للتمييز بطريق النقض. ذهلتَ لهذا الدخول الطارئ، إنه فتح دون قتال، تسلمتْ بموجبه مفاتيح القلعة بكل أبوابها الموصدة، أعلنتَ موافقتك بكلمة واحدة ... رددتها مرتين مؤكدّاً لها قناعتك المطلقة بهذا الحكم :

- **زهري؟... زهري.**

صار العالم كله زهرياً أمام عينيك، امتدت يدك إلى جيبك، أخرجت منديلاً تريد أن تمسح ما تشكّل من رطوبة على شفتيك ووجنتيك. وفيما أخذ البائع يلف الهدية بالورق الزهري أخذت نفساً وأكملت رحلتك في ذلك الفرع الليلي، وتلك البشرة البلورية، أحسست أنك تخترق العالم من شرقه إلى غربه، عبر هذا البهاء الذي أخذ يستمطرك حتى آخر قطرة فيك، حينها انعقد لسانك فلم تبح بأية كلمة .

عندما أعلن البائع عن انتهائه من لفّ الهدية ذهلت، كمن عاد من رحلة فضائية. نظرت إلى البــائع الــذي اكتنفــه الــدهش، وصنعت ابتسامة طائشة، زائغة. ولما انصرفت لم تلتفت إلــى المبلغ الذي أعاده لك، فقط شكرتها وخرجت مثقلاً بهذا الــزاد الذي تزودت به في غفلة من الزمن. غير أنك لم تبتعد كثيــراً، ظللت تنتظر حتى خروجها من المحل، فتوجهت إليها، حاذيتهــا فالتفتتْ إليك، ونقدتك ابتسامة، فاغتسلت بالندى، وأحسست أن جناحين قد نبتا لك فجأة، ولم يبق إلاّ أن تصفق بهما وتطير. بيد أنك فضلت قبل ذلك أن تستثمر هذه الألفة على نحو مفيد، ولــم تجد حرجاً في أن تسألها عن اسمها :

- **رمزية.**

وقريتها:

- **سهوة الحدادين.**

فقط هذا كل ما كنت تريده في تلك الساعة. انصرفتَ تقبض على هذا الكنز بعينيك وشفتيك ويديك. لقد انطبق كل شيء فيــك عدا قلبك؛ حرصاً منك على هذه اللقية النادرة .

* * *

حين ذهبت أمي تحت إلحاحي عادت محملة بالخيبة :

- **أرملة يا سالم؟!. تصوم وتفطر على أرملة؟!.**

- **معقول؟!.**

- إذا ما انت مصدق، روح تأكد لحالك.

لم أصدق أن كل هذا الثراء كان مملوكاً في لحظة ما لرجـل ما في الدنيا، لم أتصوّر كيف يتخلى رجل في هذا العـالم عـن التوحد في هذا الجمال الأكمل. وقبل أن أقرر الاعتمـاد علـى نفسي في فك رموز هذا اللغز؛ أوضحت لي أمي أنهـا كانـت متزوجة لمدة عامين، وأن زوجها قد اختصه الله إلى جواره دون أن ينفخ في أحشائها روحاً .

ضاء وجهي مرة أخرى، فهي ليست مطلقة إذاً، ولـيس لهـا ولد، وهذا هو الأهم .

لم أغرق في تلك المراسم، زيارة واحدة ليس غير، وآلت إليّ بعد ذلك كل نضارتها، وكل بهائها. وتلوت ليلة دخولي إلى جنتها « **إذا جاء نصر الله والفتح** »، وأعلنتُ أن الدنيا قد انقـادت إلـيّ بكل مقاديرها.

* * *

بحتَ لها في أول كلمة ترحيب بها في بيتها الجديد؛ أسـعفك لسانك في التعبير على غير العادة، فسال الكلام الجميل، تذكرت أنك قبل الآن لم تكن تحفظ كل هذه الأناشيد، ولم يكن لديك القدرة على هذا الأداء العالي، لكنها هي من أقنعتك: أن هذا التـرف لا

بد أن يولّد هذه الطاقة من التعبير. وغرقتَ في هذا النوء الصاخب، كل حواسك كانت تحتفي بها دفعة واحدة، وتلهف كل ذلك العسل الذي حملته معها، وألقت به مرة واحدة في محيطك الساكن.

* * *

قبلكِ لم يكن قبل، كان الزمان قبلك صفراً، وكان كل شيء حائلاً، ولا معنى له. قلبتِ كلّ شيء بدءاً من تحية الصباح الأولى، واستطعتِ أن تمتصي هذه العدائية التي قوبلتِ بها من أبي وأمي، أردت أن تؤكدي لهما أنه لا ذنب لك في هذا المسار الذي وجدتِ نفسكِ فيه ذات وقت. وإذا كان زوجك السابق قد قطف وردتين من عمرك فإنك ما تزالين روضة تزخر بالورود ، وتستطيعين أن تمنحيني العطر الذي أشتهي، وأنت فوق ذلك قادرة أن تجعلي أمي تقتنع أنه كان ينقصني امرأة مثلك؛ كي تتحمل معي مسؤولية بيت النصيرات بشكل لائق .

لقد دخلت عالمي دخولاً استثنائياً، تعصفين بكل أشكال التردد التي كانت تلازمني، فإذا بي أسلك الطريق التي توصلني إليك وإلى جميع الناس. هكذا ابتدأت بتشكيلي من الألف إلى الياء وفق الأنموذج الذي ارتسم في رأسك. فتعلقت بك مثلما يتعلق طفل بطيارته الورقية، يشدها نحوه فتبتعد، لكنها أبداً لا تحلق إلاّ في

فضائه. لم يخطر لي لحظة أن يزحف هم ما ليبدد كل هذا الألق الثرّ. كنت أغرق حد الرأس في حمام العطر، ولا أستفيق إلا على نغم دافئ يقطعه خروجي إلى المدرسة، فإذا عدت جئت محمولاً على محفة الشوق كمن عاد من سفر طويل .

سؤال واحد انتزعني من بين أكوام البنفسج، يوم أقبلت أمي عليّ بكل حرارة الأم :

- وآخرها معك يا سالم؟!.

* * *

كان قد مضى على دخولي جنتها أكثر من عامين، لم أفطن إلى ما ذهبت إليه أمي، ولو تيسر لي الدخول إلى قلب الأم لاستطعت أن أقيس مدى لهفتها لنأمة ما تقطع هذا الصمت الذي يلف فضائي، ليدٍ ما؛ ناعمة وطرية؛ تعبث بقشات هذا العش، للثغة ما من لسان طفل تخرجني من هذا العالم اللازوردي، إلى عالم واقعي؛ فيه قسوة ولين، كما فيه فرح وحزن، وغضب ورضا، وضحك وبكاء.

لم يضعني سؤال أمي في الدائرة التي تريد، لكنه حرك الماء الذي كان يمدني بمتعة الدفء والهدوء. فإذا هناك تيار بارد ارتعشت له أعصابي، فانتشلت نفسي قليلاً، كمن يستفهم بعينيه. كان لا بد لها من أن تفضي لي بوجع الأم وعطشها. حدثتني عن الأطفال... عن تلك المتعة من متع الحياة... عن تلك الزينة التي

لا تكتمل السعادة إلاّ بها ... حملتني على جناح الوهن، وحمّلتني هذا الشوق الذي كان غائباً خلف تلال العسجد التي أقامتها رمزية من حولي. أيقظتْ بي أمي ذلك النزوع الأبدي إلى الاستمرار.

بدأ الطريق من قلبها حين وضعت يدها فوق راحتي المفتوحة، ونقلتها ببطء إلى الجهة اليسرى من صدرها. عندئذٍ وصلت الرسالة، فمرت على تلك الأيام الراعفة، يوم كان أبو سالم يستنطقها كل ليلة، ثم تنبهتْ:

« ياه ... لم يكن أبو سالم بذلك الوقت، يومها كان يوسف فقط، كان والدك زينة شباب المجدل؛ خطف قلبي من أول نظرة، كان يلبس فوق القنباز جبة صفراء، على أكمامها خرج أخضر، وبرجله جزمة حمراء، لها شرابات تلوح على الجانبين. كان يذهب إلى البركة ليورد فرسه الكحيلا الشقرا. قلت في نفسي هذا عز دار النصيرات، هنيئاً لمن دخل تلك الدار، سيغرق بالخير حتى الرقبة؛ أرض ثلاثة فدادين وثور(١)، خمس عمالات غير البطال(٢)، ومئة رأس غنم. دار كبيرة، ورزق لا تأكله النيران. فيها ثلاثون قنطرة، أربعة مربعات فوقها أربع عليات من الحجر النحيت، ومضافة من أكبر مضافات المجدل. أول لوكس دخل المجدل أضاء مضافة النصيرات .

---

(١) الفدان ٢٤ قيراط، وأرض الثور نصف فدان. ومساحة الفدان غير ثابتة تتراوح من قرية لأخرى.

(٢) العمالات: البقرات الكبيرات التي تحرث. والبطالات: الصغيرات.

كثيراً ما حكت لي ستك وأنا صغيرة حكاية دار النصيرات والنعيم الذي كانوا يعيشون فيه. كانت تقول لي:

دار النصيرات لا يضعون السمن في البياطس[1]؛ أتوا بمعلم عمار من لبنان، حفر بئراً وطواه بالحجر، وطينه بالشمينتو حتى صار مثل الخابية، وكانوا يضعون السمن فيه، ينشلونه من البئر كما ينشلون الماء. قالت ستك : كل هذا السمن لمؤونة البيت والمضافة، النصيرات لا يبيعون منه درهما[2] واحداً .

وعلى سيرة دار النصيرات حدثتني ستك عن قفل الجمال[3]. قالت كان القفل يخرج من دار النصيرات إلى الشام يحمل القمح والشعير والحمص والعدس؛ كل غلّة الموسم. ستة جمال كانت تخرج من دار النصيرات دفعة واحدة، قدامها جمل القيدة[4]. كانوا يلبسون جمل القيدة حداجة[5] من الصوف المنقوش، وتتدلى الشراشيب الملونة على الجانبين مثل أزرار الورد، وعلى صدره

---

(١) البياطس جمع بيطس، وعاء كبير من الفخار لخزن السمن أوالدبس ونحوذلك.

(٢) الدرهم وحدة وزن صغيرة توزن بها الأشياء الثمينة.

(٣) قفل الجمال : عدد من الجمال تشكل قافلة صغيرة

(٤) جمل القيدة ينتقونه من أجود الجمال، يسير في مقدمة القفل.

(٥) الحداجة حشية من الصوف توضع على ظهر الجمل أثناء التحميل لتقيه من الدبر.

كانوا يعلقون السكملة[1] المزينة بالمرايا والأجــراس والنـــواقيس. وعندما ينهض جمل القيــدة تــنهض معـــه عـــشرات الأجـــراس والنواقيس. وتقوم القيامة ليس في دار النصيرات فقط بل في كـــل المجدل. أكثر من عشرين ناقوسة وجرسة على سطح السكملة تقرع معاً مع كل خطوة يخطوها الجمل القيدة ومن خلفه الجمال الـــستة. والمرايا تلمع بضوء الشمس، شيء يخطف البصر ويأخذ العقل.

وعندما ترجع الجمال من الشام، ترجع محملة بالتمر والجوز والقمردين وملبس الكوم وبيضات الحرزون وحلي سنونك.

أقسمت ستك أم يوسف إنهم كانوا يعودون والذهب العصملي يملأ خرج العقيلي. وكانت ستك أم يوسف تنادي المرابعين حتى ينزلوا الخرج عن ظهر الفرس، ثم تخزن ليرات الـــذهب بتنـــك زيت الكاز .

تمنيت من كل قلبي ان يلتفت يوسف صوبي، ما كنت أجرؤ أن أنظر إليه وجهاً لوجه. وقف عند الجرن، نزل عن الفـــرس، صار يتطلع، نظر إليّ:

- **بدنا نكلفك؟ .**

(١) السكملة: مربع خـــشبي له تشـــاريف مبطن بالمخمل تعلق عليه مرايا صغيرة وأجراس ونواقيس، يعلق على صدر الجمل القيدة .

- *ولو! تكرم.*

أفرغت الجرة بالجرن، وقلت له دون أن أتطلع :

- ***الكحيلا بتستاهل.***

- ***بس الكحيلا ؟!.***

- ***وخيالها كمان.***

لا أعرف كيف فلتت من الكلمات، ومن يومها علقت الـــصنارة. كان يشهق كلما رأى طفلاً يمر من باب الدار، قال لي مرة :

- ***أنت أصيلة، والأصيلة ما بتغدر بخيالها.***

وحين أخبرته أنني حامل جلس على الأرض، لم تعد رجــلاه تحملانه من الفرح. يا ولدي الفرحة تعمل أكثر من ذلك بكثير.

* * *

أعقبت أمي هذه الحكايات بقولها :

- ***ما حلي البيت إلاّ بقدومك.***

أظهرت لي بشيء من الرفق أن كل سعادة العالم تختصرها لثغة من لسان مثل لسان الطير، تركتني في هذا الأتون الذي أقامته لـــي مباغتة، وهمت أن تتصرف. أمسكت بها، تشبّثت بثيابها :

- **من أين خلقتِ لي كل هذا الهم؟! .**

- **من قلبي المحروق... الناس ما هي ساكتة.**

« الناس ؟! إذاً يتحدثون، ماذا يريد الناس مني ؟ لعل الطفل الذي ينشدونه لي سوف ينقذ المجدل من كل أوجاعها... لعله يهطل مطراً موسمياً، يزرع الخصب في أرجائها، بعد أن غادرها النماء؟! ».

في السنة الأولى سألوا أمي إن كانت رمزية قد هيّأت لي شيئاً. وفي السنة الثانية نفخوا :

« بعدها رمزية ما دبرت شي يا أم سالم؟! ».

وفي السنة الثالثة ضجوا :

« لا... لا.. ما لازم تتركوها يا أم سالم » .

غدا البحث عن مستقبلي هاجساً، يأكل رؤوس الناس جميعاً. نعايم وريوف حملتا العبء؛ كل واحدة بطريقة مختلفة. كانت نعايم تعتقد أن حبي لرمزية هو نوع من الخضوع، وأن تقاليد آل النصيرات لا تسمح بهذا الانسياح الذي جعلني أعمى، لا أدري أين أضع قدميّ. أما ريوف فقد ملأ رأسها النذر الذي وعدت أن ترشو به ذلك الولي في أعالي التل المطلّ على المجدل، كي ييسر أمراً ليس مفعولا، لترى لي ولداً يدرج في دار النصيرات؛ من رمزية أو من غيرها لا فرق، مع أنها كانت متأكدة أن رمزية لن تخلّف أبداً، وربما أشارت إلى ذلك مواجهة.

إذاً لم يبق في المجدل من هم غير همي، وكأن المجدل حلّت كل عقدها، وخرجت منتصرة على آلامها، فلم يبق فيها فرد جائع. نسيت المجدل أن أبناءها الذين يغادرونها منذ الصباح

الباكر كل يوم؛ يعودون في المساء وقد ارتهنوا ليوم آخر؛ أشد ضراوة ومرارة. والذين هجروا نساءهم وأطفالهم إلى بلاد الله رجعوا إلى المجدل؛ وقد انتهب جهدهم، وسرق عرقهم، وربما زرع في أرحام نسائهم أولاد ليسوا من أصلابهم. والمجدل التي كانت كرومها تقطر خمراً، وحقولها تفيض غلالاً، أخذت تستجدي كل أنواع المصارف، لتغدو بين ليلة وأختها في قبضة دين يتعذّر سداده. كل هذه الأوجاع غابت ولم يبق إلا وجعي أنا ورمزية، وإخفاقنا في أن نرفد المجدل بمخلوق خارق؛ يملأ المجدل عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

أخذت أمي تسأل عن الطريق المجدي الذي يجعلني أباً مثل كل الرجال في المجدل. وتوصلت إلى أن المسألة لا تحتاج لأكثر من كلمتين عند « وريدة ». وأضافت أن المخلوقة لديها قدرة عجيبة، فالحجاب الذي تكتبه؛ يجعل الماء ينزّ من قلب الصخر.

غضبت حين لجأت أمي لإقناعي بالفكرة. وتساءلتُ عما يجعل الناس قلقين إلى هذا الحد. وبحثت عن حجم المأساة التي نشكلها نحن الاثنين لآل النصيرات. كانت المشكلة تتلخص بأن هذه الدار لا يجوز أن تذهب للوارثين من غير أهلها، كما أفهمتني أمي مراراً ، لم أشأ أن أقف في طريقها، كما لا أستطيع أن أعيد تشكيل نمط تفكيرها، وطريقة تعاملها مع الأشياء.

في الليلة نفسها ذهبت أمي إلى وريدة، أخذت علقة من ثيابي وثياب رمزية، ذلك الأثر الذي تريده وريدة، كي « تبيّت » عليه

لنا نحن الاثنين، علّها أن ترى في صباح اليوم التالي ما الـذي يحول دون أن نكون أبوين.

عادت أمي تحمل أملاً بحجم قلبها، وأقبلت علينا تحمل وعوداً بنضارة العشب .عادت يتلبسها فرح جبلي طارئ، وتستحمّ في مقلتيها صورة ولد؛ تحاول أن تبحث له عن اسم فخم، يليق بعائلة النصيرات. قادتنا إلى غرفتها، أتحفتنا بفنجانين من القرفا، ثم دعت لنا ودفعتنا إلى النوم مبكرين. ولم تترك رمزية إلا بعد أن مسحت بيدها على رأسها ووجهها، ثم أخذت تتثاءب، وتذرف الدمع: « ***رقيتك رقوة الست سارة، أم الجودة والطهارة، يلّي فرشتها تبن، ومخدتها حجارة*** ».

* * *

لم يبق إلا أن نطبق أجفاننا حين سمعنا طرقاً لجوجاً على الباب، نهضتُ، فتحت الباب، كان أمامي قطعة من الليل، على وجهه ترتسم علائم الكارثة، وفي عينيه قرأت الفجيعة. هدني أبي بتلك الهيئة الشبحية :

- **شو في؟!. ... قطعت قلبي.**

- **أمك.**

- **أمي؟! .**

لم أستفهم أكثر، حافياً خرجت، ومجنوناً ركضت، وركضت رمزية خلفي. الباب مشرع أمامنا، فليس ثمة حدود تفصلنا عن الفاجعة. ها هي أمامنا بكل ما أوتيت من وقار، لم يغادرها صفاء وجهها، كانت تطبق جفنيها على صورة الطفل الذي رأيته في عينيها قبل ساعة، وثمة طيف ابتسامة على الشفتين، ولا حركة، لا نبضة قلب، هززتها :

- **أمي.... يا أم سالم؟! .**

ولا من يرد.

بكيتُ، وبكت رمزية أكثر. لقد كانت على شدة لهفتها لرؤية ولد لي؛ لا تحمل أي نوع من الكره لها، بل على العكس، كانت تحبها، وتتمنّى لها أن تلد ابناً لي كي تقر عينها، وحينما كانت رمزية تجلس أمام البيت؛ مستمتعة بشمس الربيع، كانت تظن أن البذرة قد علقت، فتقوم بالطقوس المناسبة، تضع لها خيمة كيلا تؤذيها الشمس الحارة، وتصنع لها كوباً من النعناع يجعل القلب أكثر نشاطاً، وربما لجأت إلى القرفا بدلاً من النعناع لاعتقادها أن القرفا تطرد كل ما من شأنه أن ينال من البذرة الناتشة .

وكنت أفرح لهذه العلاقة الحميمية، وتعتريني نشوة حين تبدأ أمي تسرد لي علامات الوحام الأولى عند المرأة:

- شوف يا ابني! العين تنقل، المرأة الوحمانة ما لازم تشوف الوجوه الكريهة.

وحين لجأت أمي لإقناعي بفكرة الحجاب عند وريدة؛ لم تكن تبدي أثراً لأي إعياء. ذهبتْ بعد أن رفضتُ الفكرة، وعلى وجهها علامات الخيبة، عرفتُ أني آذيتها، ولم أكن أعلم تلك اللحظة أن عهدي بها سيكون الليلة. خففت إليها، استرضيتها، قبلت يدها ورأسها:

- كما تريدين يا أم سالم... روحي إلى وريدة.

- يا ولدي أنا...

غاصت الكلمات في أسفل صدرها، كأنما احتفظت بكل أبجديتها حتى تدبجها لي قصيدة حينما يتحقق حلمها.

رحلت أم سالم، ورحلت معها أحلامها. وبرحيلها انفتح باب لا يدري أحد من أين تأتيه الرياح لتقوض أركان البيت العتيد .

* * *

عندما تلتقي الأنهار

عندما اقتنعتْ أن تكون زوجة لأبي لم تكـن مختـارة. فلـم تتصور يوماً ما أن يتحول هذا الاكتناز في صدرها، إلى ما يشبه الجرابين الفارغين، كما لم تتصور أن يؤول كل هذا البهاء إلـى تاريخ غابر، يتحدث عنه الناس.

كانت تريد منذ البدء أن تكيد لمتروك، وكانت تعتقد أن عقداً من الرجال سوف ينتثر أمام قدميها العاجيتين، لتنتقي من هو كفؤ لهذه الأنوثة الفائرة. لكنها فيما يبدو لم تستطع أن تحكم قبـضتها على ناصية الزمن الذي أخذ يتسرب من بين أصابعها كما أشعة الشمس. فيبدد ذلك الثراء في الوجه، وذلك العمق في العينـين، مثلما سينزع نصاعة اللون، ويحيله إلى قتام مهلك .

كان يخيفها هذا الترهل الذي بدأ يغزو ذلك الجسد المرمري. فلا تكاد تستقر يداها على ناحية من ذلك الجسد، حتـى تنـتفض مثل من لسعه التيار. وأخذت تستوقفها تلك القحولة في الرجال، الذين لم يستطيعوا أن يستثمروا هـذا الـشعاع المتـسرب، وأن يوقفوا هذا النزف عند حد لائق .

كل القامات التي انتصبت أمامها بدت قصيرة، وكل النصول التي احتربت أمام عسجديتها تآكلت، دون أن تـستطيع اجتثـاث الصلف الذي لفت به نفسها. حتى غدا الوصول إلى تلك الـذرا الشامخة ضرباً من المحاولات الطائشة .

شيئاً فشيئاً خفت الحركة أمام ذلك المحراب، وبدأ العشب ينبت على طريق القلعة، التي صارت زيارتها وقفـاً علـى عـابري السبيل، ولم يبق في اليد غير عصفور مهيض الجناح. لقد بـرز لها أبي بعد أن نزّ كل مائه، فأحست أنها ائتزمت. لكـن النافـذة التي برزت لها فجأة كانت مغرية. لقد كان بإمكانها أن تطل منها على دار النصيرات، لترى سالماً الذي التف بمعطـف رمزيـة الدافئ، دون أن تستطيع رمزية أن تقدم له سعادة كاملة. ومن خلال ذلك حلمت أنها ستصل إلى ما تريد .

كانت دار النصيرات مغرية لها. وكانت تظن أن نوفة أحـق من رمزية بهذه الدار، ولسوف يأخذها الإغراء بعيـدا؛ إذا مـا استطاعت أن تزين لها ذلك الطريق لتصبح كنة لها. واعتقـدت أنها لن تكون عاجزةً في لحظة ما؛ ما دامت تمتلك لساناً طريـاً، ووجنتين تقطران بشاشة حينما تريد .

منذ اليوم الأول أغرقت أبي بالنعمة، وفرشت دربـه بزهـر اللوز. ابتدأت بالمضافة، فأعادتها إلى ذلك العهد الغـابر، عهـد أمي التي كانت تجعلها شغلها الشاغل؛ عهد القهوة تلمع بأباريقها ودلالها النحاسية ، والسجاجيد تنثر على الجوانب الثلاثـة عـزاً

وجاهاً. حتى خُرج العقيلي وعدة الفروسية القديمة كلها؛ وضـــعتها في صدر المضافة بشكل استعراضي. لقد أرادت أن يدخل الرجــل دار النصيرات فلا يخالجه شك أنها تلك الدار التي يتحدثون عنهــا في الأسمار، حين اكتسبت في زمن مضى قدراً وافياً من الجـــلال، وكانت جزءاً من تاريخ المجدل المضيء، حينما ضـــمت زعمـــاء الجبل في أكثر من مناسبة وطنية واجتماعية.

بعد ذلك نهضت إلى أبي تريد له أن يعود إلى ما قبل ثلاثـــين عاماً؛ يوم لم يكن في شاربيه شعرة بيضاء، ولا في وجهه أيـــة علامة لشيخوخة. لقد ظهر أبي إلى جانبها بقامة منتصبة، وفـــم مليء بالأسنان الحليبية، ويد لاترتجف حين يتناول طاسة الماء أو فنجان القهوة. أما في الداخل فقد بقي كل شيء على حاله، ينتمي إلى ذلك الزمان، خارج نشاطها، وخارج دائرة اهتمامها. لقـــد ظل والدي ذلك الشيخ المترامي على أعتاب السبعين، يحمل قلباً واجفاً، ويقيناً أنه يدفع ثمن هذه النقلة كل يوم .

مع رمزية تبادلت من أول لحظة نظرتين خارقتين، تريـــد كل منهما أن تصل إلى أعماق الأخرى، نهران صاخبان مـــن الأنوثة الباهرة كانتا حين التقتا في دار النصيرات، وحينمـــا تلتقي الأنهار لا يأمن أحد خطر الفيضان. غير أن كلاً منهما كان يشكل تياراً خاصاً به، له اتجاهه وقوة دفعه، وله فـــوق ذلك طعم مائه الخاص.

لقد غرقت دار النصيرات في هذا الفيضان المباغت، وفي هذه اللجة كان يسبح اثنان؛ أبي، وأنا. نحاول أن نصل إلى الضفاف النائية؛ في مركبين مستقلين؛ يبتعدان حيناً، ويقتربان حيناً آخر، دون أن يكون لأي منا قدرة على التحكم بطريقة الملاحة الصعبة.

أرادت رمزية أن تصنع طقساً من المؤانسة، يسرق رئيفة، ويجعلها أكثر رقةً في تعاملها معها، أخذت تناديها بما يليق أن تنادي به الكنة امرأة عمها، ولم تكتفِ بذلك، فقد سلّمتها مفاتيح القلعة كلها، وجعلت يدها هي العليا في كل زاوية؛ بدءاً من بيت الخرج؛ بما يحتوي من مؤونة. وعند ذلك قادتها إلى جولة بين القطرميزات التي تراصفت مثل صف العسكر، فعبقت في أنفها رائحة السمن العربي والجبن والمكدوس واللبن القنبريس. كان بيت الخرج يحتل الصدر الجنوبي من دار النصيرات يتجادر مع المربع الجنوبي المتجه إلى الشرق بجدار يمتد على حافة باب المربع، فيشكل معه زاوية مترفة، جعلتها أمي فيما مضى مصطبة تظللها شجرة التوت التي تشمخ بفروعها حتى مستوى المضافة في الطابق العلوي من الدار، فيما اصطفت حول المصطبة تنكات الحبق والعطرة والمردكوش ومكنسة الجنة في بهاء مطلق .

وفي داخل بيت الخرج، الذي يمتد على مسافة ثلاث قناطر توزعت حواصل الحبوب والصويل، والكواير المكتنزة بالطحين والبرغل. بينما أخذت عدة بياطس[1] من الفخار أماكنها في الزوايا المتناثرة، تحتضن كل بيطس قاعدة من الطين أمضت أم سالم وقتاً ليس سهلاً في إعدادها، لحماية البياطس من الكسر.

---

(١) البياطس : أوعية كبيرة من الفخار لخزن المؤونة من السمن والدبس وغيره.

والخلاصة فقد كانت دارنا دار عز، أغرت رئيفة عراقتها، فنعمت بوارف ظلالها، واستبد بها طمع امتلاكها.

قالت لها رمزية بشيء من الود :

- الله منعم ومفضّل... انتِ من اليوم صاحبة البيت، وكلمتك ما بيعلى عليها كلمة.

لكنها قررت أن تكون عنيفة منذ البدء. أخذت تستوعب هذه الطريقة في الاحتفاء، وبدأت تمارس سلطتها الحديدية بشيء من التعطش، ويوم تمكنت من ذلك الشيخ جيداً، واستباحت ضعفه وحاجته إليها، حاولت أن تبسط هذه السلطة عليّ أيضاً، أنا الذي أدهشني هذا التحول في عالم دار النصيرات، فأخذتني رغبة في التململ وتحريك الأذرع، ولكن هيهات؛ حبل من الليف كان يلتف حول صدري لفات عدة، يشد ذراعيّ حتى الجذع، فيجعل الحركة ضرباً من المحال.

ألغت رئيفة خلال عام واحد كل احتمالات بقاء دار النصيرات داراً واحدة، وبدأت القتال على جبهتين؛ واحدة باتجاه رمزية، لا تسمح لها أن تتحرك، حتى الخبز والإدام بات ينز من بين أناملها بتقتير عجيب. أما الجبهة الثانية فهي باتجاهي، ولكن بشكل إيجابي. كانت تريد أن تجمع الشيء ونقيضه، وأنا أعلنت أنه من أحب رمزية فقد أحبني ومن عاداها فقد عاداني. لكنني كنت مضطراً أن أحتفظ بخيط من الود الذي تقدمه لي، في مأمن من عيني رمزية، أريد من خلالها أن أحتفظ بود والدي، حاولت

بدورها استثمار هذا الود، كمن يلعب بأوراق نادرة، ومع كل المحاولات الدائبة لمسكي من اليد التي تؤلمني، ولف الحبل حول عنقي، فإنها لم تستطع منعي من تلبية رغبة رمزية في أن يكون لها بيت مستقل، وتكون هي سيدته، رمزية التي ما زالت تغدق عليّ من فيض أنوثتها ما تعجز عنه أية امرأة في الدنيا .

* * *

لم يكن القرار سهلاً، وكان عليّ أن أبدأ من الملعقة والصحن والفراش. هذه المفردات التي لم أكن أعيرها أي اهتمام وأنا في كنف دار النصيرات العتيدة ... رحلة في الحياة بكل فجواتها ابتدأت ... سهوبٍ من الأرض امتدت أمامي ... نماذج من الكائنات أصبحتُ واحداً منها؛ نرسف جميعاً في أغلال الحاجة المشتهاة، دون أن نكون قادرين على إدراك شيء من ظلالها. ابتدأت الأزمة منذ أن تبدد المرتب الشهري في عتبة البيت، دون أن يكون بإمكاني أن أدخل مع رمزية ونستريح ولو على «طرّاحة من الخرق ». كانت رئيفة تتعقبني بين القدم والقدم، تمد باتجاهي شباكاً من العليق، لكنني كنت قادراً أبداً على تجاوز الأفخاخِ التي تزرعها في طريقي، مرة بالحيلة، ومرة بالصبر، ومرارا بضجيج في النفس، يقطع الصلة بينها وبين ما أعانية من أزمات، ويبرز السؤال الذي تختفي خلفه الإجابة الشافية: هل رئيفة هي المسؤولة عن كل تلك الأزمات التي تفرّخ كل يوم حولي، فتولد كما يولد الفطر؟!. أم هنالك سبب جعل الناس في المجدل ينصرفون إلى مشاكلهم التي لا تقل عنتاً عن مشاكلي؟

في المدرسة كان الحديث ينحرف بهذا الاتجاه حتى الجــدل، وكانت ترتفع أصوات تشتكي المحنة نفسها. وكنت أستمع ذاهلاً لكأنني خارج اللعبة كلها. فلم يخطر ببالي أن أعــيش التجــارب المريرة التي يتحدثون عنها. إذ كيف سأقف ساعة وربما ساعتين خلف طابور من الجائعين لأحصل على سطل مــن سـمن لــم نتعامل به على مدى عمرنا في دار النصيرات، فعملتنا الدارجــة حتى تاريخه هي السمن العربي .

لقد صرت مضطراً إلى الانحناء بعد ذلك القرار التــاريخي، الذي أملته علي رغبتي في أن أطير برمزية إلى أمداء؛ لا تطالها يدا رئيفة. وبدأت الريح تسف الرمل في وجهي في كل خطــوة أخطوها، ريح لجوج كانت تصفعني من الأمام ومن القفا، وأرى الناس حولي فأجدهم مثلي، فيهون عليّ ما أنا فيــه مــن عــسر وشدة، وشيئاً فشيئاً بدأ الجواب يلوح أمامي ... جــواب لــسؤال طالما أرقني، لماذا يفرون من المجدل فرارهم من الجذام. إلى أن كان قرارنا التاريخي؛ الفرار من الجذام نفسه. كنت أعلم أننــي أبادر إلى حل أزمتي بطريقة فردية، وأن مبادرتي هذه لا تخرج عن حدود الانهزام، وبين الفرار والانهزام مسافة شهقة الروح.

مازلت أذكر تلك الرحلة، جميعهم كانوا يتجهون إلى هنــاك، يتحدثون عن بلاد تفتح أبوابها للجميع، وعــن فــرص نــادرة، وثروات يجمعونها بلمح البصر. ما من أحد تحدث عن العنــاء الذي لاقاه. ما من فرد اشتكى الجوع والإهانات المتلاحقة؛ أنت

غريب وهارب من الفقر إلى الفقر، هارب من « **الدلفة إلى المزراب** » بتعبير أهل المجدل أنفسهم. كان كل شيء يزول بعد أن يعود المرء موفورا.

دهشت لهذه الإغراءات، واندفعت أكثر حينما ألحت علي رمزية، تريد أن تهرب بي بعيداً، تلفني بأشيائها المنداة بقطر الخوف، تبعدني عن رياح رئيفة التي أخذت تهب ذات الشمال وذات اليمين، تريد أن ترمم بي الداخل. أقنعتني أنني قادر أن أبدأ من أول السطر، وأتابع طريقي إلى مغامرة حلوة شائقة، والأهم من كل شيء فقد يتيسر لي أن أكون كالآخرين ممن يعيشون « **بثبات ونبات ويخلفون صبياناً وبناتاً** ».

شيء من القلق... شيء آخر من الأحلام، دفعني إلى تقديم استقالتي، ورأيتني بين شهقة وأختها أحمل حقيبة سفري، وأحمل رمزية رفيقة عناء، و.... نسير... نسير، ولا نلوي على شيء.

أعترف أن التجربة كانت قاسية وأصون نفسي أمام رئيفة من الجزع، لأول مرة في حياتي أحمل الهم منفرداً وحملت، ولأول مرة أمضي في التيه، ومضيت. بدت الحياة أمامي بصورتها العارية، لا رتوش ولا تزيينات. بعيداً عن الهلوسات والطموح الفارغ، الذي يرفع قصوراً في الهواء. ولأول مرة أدرك أن الأخبار تأخذ طريقها إلى المجدل بعد أن يسقط منها الوجه الآخر، الوجه الذي يجعلها حقيقة؛ إذ تخرج من الحجاز فتراً، فتصل إلى العراق ذراعاً، بتعبير محققي الأحاديث النبوية الشريفة .

* * *

فإلى هناك... طبرق الـ٩٠

هأنتذا في طبرق! يجتاحك هاجس النـــدم، وتأكـــل عينيـــك المسافات، كل شيء في طبرق يؤول إلى نتيجة واحدة، لكأنـــك لم تغادر دمشق، أو لكأنك في القـــاهرة أو عمـــان، فالمدينـــة العربية لا تغادر زمانها، ولا تبدل ثوبها؛ الـــشوارع مرشـــوقة بالصور، والحيطان مزدانة بالشعارات، صور مـــن مقاســـات متعددة، صغيرة وكبيرة وكبيرة جداً، تذكرنا بأجدادنا العماليق، ناءت بحملها الشاخصات والجدران، فصارت تئن تحتها أنينـــاً موجعاً. وتأبى كل صورة إلا أن تنتمي إليك بالأخوة: الأخ قائد الثورة. أخوة من نوع نادر، تجدها تحت كل صورة، وتحـــت كل عبارة، وتحت كل شـــعار، بـــالخط الفارســـي والـــديواني والنسخي والثلثي والكوفي وخط الرقعة وخط الاستواء. هـــذه المدرسة العربية في تسييس الجدران مدرسة ضاربة في البعد في ذهنية القوم، منذ أن قال لهم قوموا فقاموا ساجدين لمن رفع الشعارات على عمد، وبسط اليد للبيعة قوة واقتداراً.

كانت طبرق قبل اليوم مجرد اسم في الذاكرة، تحيلك إلى الحرب العظمى، يوم اتخذها القائد الإنكليزي « مونتيغمري » قاعدة انطلاق له، وهزم « رومل »الألماني في موقعة العلمين بمصر عام ١٩٤٢.

خالك سليم الذي كان جندياً في الجيش الإنكليزي آنذاك هو الذي حدثك عنها، لقد حضر تلك الحرب، ورأى كيف كانت طائرات الحلفاء تنقض من قاعدة طبرق لتفتك بجيوش رومل ثعلب الصحراء.

والمعارك الجوية التي دارت في ذلك الوقت كان لنا فيها ناقة بلا جمل، لقحت الناقة من غبار المدافع، وعجاج الدبابات التي كانت تتناطح مثل الكباش من طبرق حتى السلوم على حدود مصر الغربية.

تذكرت خالك سليم الذي هرب من الجيش الإنكليزي لأنه كان يقاتل بلا هدف، وخالك سليم أضاع ثلاثة أرباع عقله، حينما كانت تتناثر أشلاء الجنود مثل ندف الثلج، وتنزل فوق رأسه ورؤوس رفقائه العسكر، الذين جمعتهم بريطانيا من مستعمراتها فيما وراء البحار، أما الربع الآخر من عقله فقد أضاعه في طريق العودة.

* * *

حين وصلت طرابلس جمعكم محمد جمعة، وخطب بكم : « البحر من ورائكم وأولادنا أمامكم، ها نحن نسلمكم أغلى ماعندنا، وأنتم المعلمين لا رقيب عليكم إلا الوجدان، فاعملوا بوجدانكم الذي حملتموه معكم ».

أحسستَ حينئذٍ أنك مطوق بالمسؤولية حد الرقبة، وأنك لست مجرد هارب برمزية من صلف رئيفة وجبروت المؤسسات الاستهلاكية. أخذت كتابك بيمينك، وقرأت باسم ربك الذي خلق اسم طبرق. كانت رمزية في فندق قصر البحر بطرابلس الغرب، تقتات على ما تبقى لها من أمل أن يكون المكان آهلاً ببعض أبناء المجدل ممن قذفتهم رياح السموم قبلكم .

وضعت الخريطة أمامك وزفرت: « أين أنتَ من طبرق؟!».

على الخريطة كانت تقبع طبرق في أقصى الشرق، مدن بين طرابلس وطبرق انزرعت على الشريط الساحلي الممتد شرقاً حتى مصر : الخمس، مصراتة، سرت، بنغازي، جدابيا، درنة. كل هذه المواقع لم يكن لك فيها نصيب ؟ بدأت حافلة النقل العربي تأكل الطريق باسم الله مجراها ومرساها. . أيقنت أن رحلتك لا تقل هولاً عن رحلة امرئ القيس، الفارق بينكما أن امرأ القيس اتجه إلى الشمال ليدرك ثأر أبيه، أما أنت فإلى الغرب لتدرك ثأر الحاجة المشتهاة، والرغيف الذي يركض فتركض، فتركض معك رمزية هاربة من براثن رئيفة .

بحر من الماء إلى يسارك، بحر من الرمال إلى يمينك، وليس لك والله إلا الصبر. صحراء ... صحراء حتى البحر، وأنت موغل في صمتك ووحشتك، تلهث بين المدينة والمدينة، تشتاق إلى نسمة هواء منعشة، تأتيك من قبل الشام، حتى البحر لا ينفث إلا جحيماً وصهداً.

تنظر إلى رمزية الغارقة في صمتها وكينونتها هي الأخرى، تنتشلها من صمتها:

- **تعبانة؟.**

- **لا، خايفة.**

- **من شو؟**

- **وين ماشية فينا هذي الآفية؟!. بعد في بلاد مشرق؟!. خلص ما وصلنا لآخر الدنيا.**

لم يخطر ببال رمزية مسألة كروية الأرض، لكأن للأرض حداً شرقياً وآخرغربياً. لخصت علم الجغرافيا بهذه الزفرة، متناسية جهود شيخنا الإدريسي؛ الذي ابتدأ من هذا الساحل نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

تسأل نفسك: من يمتلك كل هذه المسافات، وهذه الأصقاع ؟. وسوف تكتشف أهمية هذا السؤال حينما تقرأ الكتاب الأخضر وتطلع على نظرية الفراغ؛ التي يقول فيها معمر القذافي: «**الفراغ عامل جذب للقوى العظمى، الفراغ الجغرافي، والفراغ السياسي، والفراغ الاقتصادي، كل هذه الفراغات جعلت من ليبيا هدفاً للطامعين** ».

وسوف يدهشك أن تعلم أن صراعاً دار على هذه الأرض منذ القرن السادس قبل الميلاد حينما أقام باتوس الأول في قورينة بالقرب من درنة مستعمرة إغريقية تتابع على الحكم فيها من

بعده أركيسيلاوس الأول وباتوس الثاني الذي بدأ الإغريق في عهده يعلنون عن سياستهم التوسعية بنبوءات إضافية من العرافة دلفي، وموجات جديدة من المهاجرين لملء الفراغ.

«وفي عصر باتوس الثاني نشبت الحرب بين الإغريق وبين الليبيين الذين التفوا تحت قيادة «أدكرن» شيخ قبيلة الإستبسي، وطلبوا العون من مصر، فبعث الفرعون أبريز بجيشه عبر الصحراء الغربية لأول مرة منذ أيام الفراعنة العظام، وحاصروا قورينة، وتمكن باتوس الثاني من خداع القائد المصري الذي انسحب شرقاً عبر صحراء طبرق معرضاً قواته للعطش ولغارات الإغريق.

أما الليبيون فقد تراجعوا إلى الغرب متجهين إلى «برقة» باعتبارها خط دفاعهم الثاني ضد قورينة، وقد ظلت جبهة القتال نشيطة بين هاتين المدينتين خلال السنوات العشر التالية».

وأنت في رحلتك تلك تعبر برقة دون أن تدري، ودون أن تشكل برقة الآن خط دفاعك الأخير. وسوف تعلم لاحقاً أن برقة التي عبرتها شرقاً ما هي إلا مدينة المرج الحالية التي تستريح في حضن الجبل الأخضر مثلما يستريح ملاك بعد إبلاغ رسالة الله إلى الأرض.

* * *

من الأعماق،،، تلك الزوبعة

من الذي سوف يقنعني الآن أن الحكاية من صنع رئيفة، وأن رمزية لا تزال تحتفظ بطهرها، ونقائها، وعطرها الذي غسلتني به كل هذا الأمد؟!. من يجعلني أتبين أن أصيب قوماً بجهالة إذا جاءني فاسق بنبأ ؟! فأصبح على مافعلت نادماً طوال دهـــري. أراني أرتعد من الفكرة، أرتدّ إلى أعماقي، لم أقبلها، ولم أستطع أن أتصور أن كل هذا الاحتشام إنما كان تمثـيلاً، وأن رمزيـــة تبذل لغيري تلك المفاتن الباذخة؛ التي بذلتها لـــي ذات فـــراش، بالقدر نفسه، وبالحرارة نفسها.

عدتِ إلى فراشي، وأخذت أقلب ملاءته... أتفقد حرارتـــه... أشتمّ رائحة الحبق التي كانت تتحفني بها... أبحث عن الكرة التي عجنتها لي من المحلب والقرنفل وجوزة الطيب، والتـــي كانـــت تفرك بَها شعرها، وعنقها، ووجنتيها قبل النوم، فيغرق الفـــراش بالندى، ويسيطر البهاء على كل شيء من حولنا.

أيمكن أن تبذل رمزية كل ذلك الجاه والعز لعابر سرير؛ يلوح لها بحرامه وعقاله؟!.

وإذا اقتنعت ببراءة رمزية؛ فمن يملك أن يزرع هذه القناعة في نفوس الناس، والحكاية طارت بها حمامات رئيفة الزاجلة، وصارت حكاية على حكاية على حكاية في كل بيت ؟!.

عدت من دمشق، فزكمت أنفي رائحة الفضيحة، قرأتها في العيون التي شاهدتني أترجل من الميكرو باص ذلك المساء. أخذت أعتقد أن كل الذين مروا من الساحة تلك العشية؛ إنما جاؤوا ليمطروني بنيران عيونهم الزائغة، وألسنتهم اللاسعة، وأنوفهم الحشرية. تلكأت قليلاً في الفهم أول الأمر، لكنه بات عليّ أن أفهم، شئت ذلك أم ضربت رأسي بالجدار، وأن أي تباطؤ في الفهم والاستيعاب سوف يقذفني إلى جحيم لا قرار له.

لم أسأل رمزية، لا أدري ما الذي منعني من ذلك، ربما الحب، وربما الكبر الذي رأيته في عينيها وشموخ أنفها، وربما المفاجأة التي أخذت تتحول إلى تيار من الحنق، ينذر بالكارثة.

في قرارتي كنت معتنقاً براءتها، وكنت مستعداً أن أقاتل عنها أم السنابل، وأم ذقن[١]، وكل اللواتي أردن بها شيئاً من نقيصة. من ساعتي اتجهت إلى نعايم؛ رأس الأفعى في هذا الذي يدور على ألسنة الناس :

- **خبريني يا نعايم! شو صار؟! .**

لم تزد نعايم حرفاً واحداً، قالت فقط إنها لم تر معذى بل رأت ثيابه.

---

(١) أم السنابل وأم ذقن: من رموز الشر النسائية في ذهنية الجبليين.

- **كيف يا نعايم؟... احكي لي.**

قالت إنها ذهبت مبكّرة تحمل حليب الدور، فلم تجد رمزية؛ كانت رمزية قد أخذت جرتها، واتجهت إلى البركة، وأمام باب الغرفة المفتوحِ كان يرتمي عقال معذى وحرامه، أما السروال فقد كان مرمياً في الداخل.

واصلت تحقيقي:

- **كيف عرفتِ انها ثياب معذى؟! .**

- **ريوف تعرفت عليها، ثياب المرابع معروفة.**

لم تدر رمزية أين يمكن أن تبحث عن براءتها في هذه الزوبعة، قرأت في عينيها حيرة وألماً، ومع الحيرة والألم اضطراب وتوسل، ماذا تفعل ثياب معذى عندها؟!. هل أحضرتها العفاريت؟!. غاب من عينيها ذلك البريق الساحر، الذي كان يمدني بآفاق من العشق، وأخذ يغزوهما بشكل بطيء لون ينذر بالعاصفة والتشتت والاقتلاع. كان ذلك عندما قررت أن تسمعني صوتها. أرادت أن يسمع أهل المجدل وقائع مرافعتها. خاطبتني وكأنها تخاطبهم؛ بالشكل الذي يوقظ ضمائرنا جميعاً:« ***أني رمزية إلّي لبستوني العيب والعار ظلم وزور، عشت بينكن مثل أي وحدي منكن، فرحت لفرحكن، وحزنت لأحزانكن، رفعت ثوبي حتى ما يتبقّع بوحل المجدل، ولما بان كعب رجلي شهقتوا، ليش ؟!.***

هذي أيدي ممدودة، وهذا فرجي للحق، الريح يمكن تهز شجرة التوت، وتوقع كبوشها، لكن الجبل ما بتهزه الريح».

وشيئاً فشيئاً صارت تمطر ألماً، لم تستطع أن تواجهني مباشرة؛ لا خوفاً مني، وإنما إشفاقاً عليّ. كانت تحصي اللحظات التي أمضتها بغيابي إلى دمشق تلك الليلة. استعادتها لحظة لحظة؛ منذ أن جاءت «صيتة» لتنام عندها، وحتى الإعلان عن الفضيحة.

تذكرت أن «صيتة» خرجت معها. عند ذلك لم يكن في البيت ما يشير إلى شيء. توجهت إلى صيتة متوسلة:

- بعرضك، وستر بناتك! مين شفتِ بطريقك؟!.

- شفت نعايم.

- نعايم؟!.

امتلأ فمها بالكلمة، وانفتحت عيناها إلى أقصى مدى، وارتخت يداها، فوقع الحرام والعقال على الأرض، كل ذلك بلا إرادة منها.

- وين كانت؟!.

- رايحة صوب داركن. وكان بإيدها كيس.

تشبثت رمزية بصيتة، طلبت منها أن تتكلم، أن تفصح عمن أراد أن يصبغ شرفها بالسخام. بعد ذلك جمعت كل الوداعة التي كانت تمتلكها، وبصقتها في وجوه النسوة، وأعلنت لي أنها لا تستطيع الاستمرار في هذا الوسط المليء بالموبقات.

من جانبي؛ فقد وصل الحريق إلى الداخل، أخذت أرى كل شيء نهباً للنار، لقد طالت ألسنة اللهب شعاف الجبل الذي كنت أتسنم ذروته، فإذا أنا في مدى خفقة قلب في قرار ذلك الوادي

السحيق، تحاصرني صرخة الجبل الخالدة «**وما غيض السلوان دمعي وإنما / نزفت دموعي في فراق الصواحب**».

من جديد لملمت رمزية فجيعتها، ورأت أن تنتشلني وتنتشل نفسها من هذا الوميض الذي أخذ يتوهج تحت الرماد، فأنا أحترق، وهي تحترق معي، لقد أحسست بالألم يحزمها... هذا الألم الذي انقلب حرصاً عليّ؛ أنا الذي غدوت عاجزاً عن أي فعل، فأسلمت لها القياد، وبدأتْ تمارس عليّ مسؤولية الزوجة والأم معاً.

لقد أيقنتْ رمزية أن أية بقعة في العالم ستكون أكثر أمناً من المجدل، تلك التي فتحت أبوابها ونوافذها؛ ليغزو غبار الزوبعة كل زاوية من زوايا بيوتها المتراصة، والممتدة في الأرجاء؛ دون أن يخطر لأحد أن يغلق الباب أمام هذا الهباب المتطاير؛ الذي يخترق الآذان والعيون معاً.

* * *

في أمانة التعليم بطبرق تلقفني بريّك الغرياني موجه المادة وحملني رسالة لا تقل زخماً عن رسالة محمد جمعة. قال لي بريك في أول لقاء إنه من الغرب، من غريان، وإن الظروف هي التي قذفت به إلى هنا كما قذفت بي. ورسم لي خريطة طبرق؛ كما يراها بأهلها، بعاداتها وتقاليدها، لخص لي الواقع بجملتين: «قوم طيبون، لكنهم أداروا ظهرهم للصحراء، ولم يصلوا إلى المدينة». ثم مهر الخريطة بقوله:

- نبي نقولك حاجة[1].

- تفضل.

- مهمتكم هنياهي[2] وعرة خالص[3]. ونبيكم تاخذوا بالكم[4].

- من أيش؟.

- من كل شي.

وبدأ يشرح لي؛ أوضح أن المسافة شاسعة بين الناس وأصحاب القرار:

ـ الناس هنا يتعاملون مع الحكومة كما كانوا يتعاملون مع الإيطاليين.

ثم أشار إلى بناء ضخم يقبع أمام أمانة التعليم متهالكاً على نفسه:

- تشوف؟

هززت برأسي متسائلاً، فأوضح لي أنه أكبر وأضخم معهد هندسي في الشرق الأوسط، لقد استغرق بناؤه خمس سنوات، وكلف مئات الملايين من الدنانير الليبية، كي يكون قاعدة انطلاق لنهضة ليبية معاصرة، فهدمه الدهماء بأسبوع؛ أسبوع واحد فقط، لم يستغرق تخريبه أكثر من ذلك. أتلفوا معداته، حطموا أثاثه،

---

(١) نبي نقولك حاجة : أريد أن أقول لك شيئاً .

(٢) هنياهي: هنا.

(٣) وعرة خالص: صعبة جداً.

(٤) نبيكم تاذوا بالكم: نريدكم تنتبهون.

وباعوه خردة. قطعوا الأسلاك الكهربائية وباعوها نحاساً بالكيلو، حطموا سيراميك الحمامات والمطابخ، وباختصار لم يتركوا حجراً على حجر. ما زالوا يتعاملون مع كل ما هو أميري كما كانوا يتعاملون أيام الاستعمار الإيطالي .

أضاف الشيخ بريك: أن السبب في ذلك كله أن الثورة على مدى عشرين عاماً لم تتجه إليهم، ولم تستطع أن تغير في أفكارهم وأحاسيسهم شيئاً. فمازال ظل الإيطاليين ماثلاً. وما زالت قبعة الجندي الطلياني معلقة على باب كل بيت، يفترس من يشاء من النساء، ومتى يشاء.

هكذا نقلني بريك الغرياني إلى تخوم السياسة. فتلت عقلي هذه المقولة القديمة الجديدة المتجددة؛ هذا المشجب الذي نعلق عليه كل أعبائنا، ونحيل إليه كل مشاكلنا. إذا جعنا فالاستعمار نهب خيراتنا. إذا اختلفنا فالاستعمار زرع بيننا سموم الفرقة. إذا انهزمنا فالاستعمار لم يزودنا بالسلاح كي ندافع عن أنفسنا. **«وكنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » صدق الله العظيم.**

وأولئك الذين سيصيرون من أهل الكتاب اختلفوا أيضاً، ودفع لي صفحة من «تاريخنا»:

– خذ ! اقرأ.

«وفـــي ذروة اختلافــاتهم الداخليــة انقــسموا إلــى فــريقين متناحرين؛ واحد تقوده الأسرة الحاكمــة وتدعمــه أثينــا، والآخــر جماعات منشقة من أبناء الأسر العريقة الثرية الذين حالفهم الليبيون ضد قورينة.

وحينما مات الطاغية أركيسيلاوس الثاني ملك قورينــة مخنوقــاً دخلت قورينة في مرحلة الصراع على الحكم. واستفتى أهل قورينــة القاضي ديموناكس بناء على نبوءة جديدة من العرافة دلفي، فتقــدم بمشروع دستور أوقف النزاع، لكنه تجاهل ملك قورينة أكثــر ممــا ينبغي. وشب النزاع مجدداً بين الملك والأحــزاب المعارضــة التــي تمكنت من طرده مع أمــه فيريتيمــا مــن المدينــة. لكــن الملــك أركسيلاوس الثالث تمكن من استرداد قورينة، وســلط ســيفه فــي أهلها، غير أنه عاد وهرب من جديد إلى مدينة برقــة، دون ســبب واضح، سوى أن العرافة دلفي كانت قد هددته بالموت، فــي نبــوءة أخرى من نبوءاتها المفاجئة. وغير ذلك لا يعرف التاريخ سبباً لأن يهرب الملك من عاصمته التي دافع عنها بكل الأسلحة.

وثمة خبر يقول إن أمه هي التي دبرت أمر هروبــه إلــى برقــة لمجرد التخلص من أعباء وعوده للمرتزقــة الــذين أعــانوه علــى استرداد عاصمته ريثما تتمكن من توطيد سلطتها .

لكن برقة لم تكن مكاناً مناسباً لإقامة حاكم إغريقي، فقد هــوجم أركسيلاوس في أحد شوارعها، وقتل على مشهد من صــهره الــذي

التجأ إليه. وقامت الملكة فيريتيما بطلب المساعدة من أرياندس الحاكم العسكري للفرس في مصر. فزحف أرياندس نحو برقة، وطلب من أهلها تسليم قتلة أركسيلاوس، فأجابوه أنهم جميعاً يتحملون مسؤولية قتله لما ألحقه بهم جميعاً من أضرار ».

وضعني بريك الغرياني أمام حقيقة هامة:

«إن شعباً على هذا القدر من التماسك، ورفض الظلم، لابد أن يكونوا قد استخدموا في تدجينه أحدث الأساليب في غسل الأدمغة، حتى غدا مشروع إرادة معطلة. وإن عملية التدجين تبدأ بشراء النفوس الميتة».

* * *

إلى الداخل ثانية... نوفة

هأنتذا تعود من المدرسة تحمل هوية أكلت نصفها الفئـــران، وانغمر الباقي في الوحل، تتغرس بين وحدتك وكآبتـــك، بينمـــا رأسك يدور في فراغات تفضي إلى الحيـــرة والنوســـان، كـــان مشروع رئيفة اختراقاً لكل أشكال السكون الذي عشته كل هـــذه الفترة؛ في كنف البهاء الأميري؛ الذي تمطرك به رمزية في كل خطوة لها. لقد أوقدت رئيفة في صدرك جمرة، أخذت تتقد ببطء قاتل، دون توهج، تسلمك بشكل تسلسلي إلى الملالة والـــضجر؛ ضجر بدأ يلوح في المواقف الصغيرة .

على الطريق كان كل شيء أمامك ترابياً، بما في ذلك وجـــوه النسوة؛ اللواتي أخذن ينظرن إليك نظرات لم تستطع أن تحـــدد مغزاها، ربما كانت مزيجاً من السخرية والشفقة. وحينما ألقيـــت السلام عليهن لم يخطر ببالك أن يستوقفنك ليسألن عن أولادهـــن في المدرسة، على غير عادة منهن. عند ذلك أدركت أنها محاولة سخيفة لفتح حوار معك، لكنك لم تكن مستعداً لسماع أي شيء، إذ قطعت عليهن فرصة الامتداد في الحديث، وبالتالي حرمتهن من متعة الثرثرة، التي يعشن عليها بكرة وأصيلا.

تواصل دبيبك إلى التفرع الذي يفضي إلى دار النصيرات، حيث بيت أبيك. تصاب بالذهول إذ تختار ذلك الطريق. يقول علماء النفس: «**إن الرغبة المكبوتة سرعان ما تجد طريقها إلى الظهور لدى أية مناسبة**» ربما كنت تنزع إلى ذلك المكان، لغاية ما في نفس سالم الجواني. لا تدري كيف وصلت إلى ذلك القرار، كنت تتحرك برجلين من خشب متآكل، شعرت بالقرف الشديد حينما وصلت إلى باب الدار، بيد أنه كان عليك أن تواجه رئيفة، وأن تكشف لها أوراقها ودفاترها. ترددت، وفي اللحظة التي قررت أن تلغي مشروع المواجهة، وتستدير راجعاً، برزت لك؛ قطعة من نهارات المجدل المشمسة، تعج بالحياة، والرغبة والجسارة، متناسية كل شيء، لا ذنب، لا توبيخ ضمير .

لم تستطع أن تتجاهلها، أخذت تتشاغل بعروة حذائك؛ ففككتها، شددتها، ففككتها، شددتها من جديد، انتصبتَ ثانية، كانت لا تزال أمامك على قيد شهقة، واصلت دبيبك بخطوات منكسرة، ضاعت كل عبارات التنديد واللوم التي هيأتها؛ أمام حضرة هذه الهيئة الصارمة. اندفع لسانك إلى الداخل ... إلى الداخل حتى البكم، وتولت رئيفة إدارة الحديث:

- **مليح إنك جيت...**

لم ترد.

أضافت:

- **عندنا ناس.**

تنظر إليها دون معنى، تتابع طريقك إلى الغرفة المفتوحة، كأنك تقصدها منذ اختارت قدماك مدق أبيك. كنت تعتقد أن والدك بانتظارك، وربما هيأ لك حديثاً خاصاً، بخصوص الفضيحة، بيد أنك ما تلبث أن تفاجأ بها.

كانت تقف قرب النافذة التي تطل على الطريق، تداعب بيدها الناعمة زريعة الحبق؛ التي تكوكبت فوق سطل السمن الأخضر، فعبقت في أنفك تلك النفحة التي اختلطت بعطرها. تذهل، يدهشك هذا التسامق الذي لا تكاد تطاله يد، لم تكن قد رأيت رئيفة في صباها، لكنك الآن تستطيع أن تلتقط ملامحها من خلال نوفة .

كانت نوفة نسخة مصدقة أصولاً عن رئيفة، مختومة بطفح العينين، واستدارة الوجه، واكتناز الصدر، وموقّعة بنهوض العنق إلى أعلى. تلك نوفة التي كثيراً ما كنت تراها مع أمها، لكنك أبداً لم ترها بعينيك اللتين تملكهما الآن. كانت شيئاً آخر مختلفاً عما كان... شيئاً من الأنوثة الفذّة، لا تستطيع أن تمتلك إزاءه أية مقاومة. وبلحظة تمتد الحياة النشطة في عروقك، ويسود في داخلك جوّ مفاجئ من الغبطة، تنسى معه كل شيء، حتى مشروع الثأر الذي ندبت نفسك له.

عيناك تلتهمان كل جزء من ذلك المشهد الأمبراطوري، فيما ينعقد لسانك على التحية التي كنت قد هيأتها، حتى لم تعد تبرح شفتيك. تتقدم نحوها، تمد يدك لتصافحها، تشتبك يداكما، يطفح وجهك بلون جار، تلتصق اليدان بما يشبه الأبدية.

رئيفة التي عادت من المطبخ؛ تحمل صينية المتة وغاز السفير، تضعهما وتتصرف لإحضار الإبريق. عند هذا الحد تسحب نوفة يدها، وتجلس تحضّر المتة الجافة في الكأس، وأنت جالس على الطرف الآخر من النهر، تفكر ثانية في تقريع رئيفة؛ التي زجتك في هذا الأتون. تفتش عن الكلمات المناسبة. لكن رئيفة تفوّت عليك الفرصة بحفاوتها، وتفرح لهذا الانسجام الذي انعقد بأسرع ما تصورتْ.

وكأنما تشعر رئيفة بما يختلج في داخلك، فتترككما تشربان المتة، وتتصرف إلى شأنها في إعداد الطعام.

في البدء كانت الحاجة المشتهاة، وكان الحديث محاولة لكسر الصمت الذي فرضته المفاجأة، قالت لك:

- **كيف بتحب المتة؟.**

- **حلوة... وإنتِ؟.**

- **أحلى.**

يعود الصمت يفرض نفسه من جديد، لا يقطعه إلاّ خرخرة الكأس، معلنة نفاد مائها. أرادت أن تخرج من هذا الحرج الذي يسببه الصمت، وقفت تنادي أمها كي تسقيها كأساً. تدرك أنت مدى حرجها، لكنك لم تكن تمتلك الرغبة في الكلام. كنت تشعر أن ذلك سوف يقطع عليك متعة الغوص في تلك اللجة الصاخبة والزاخرة. غير أن الصمت من جانبك نوع من البلادة؛ هكذا كنت تعتقد:

- اتركيها بتجي لحالها.

تنظر إليك، تسألها:

- بتزعلي شي؟.

- من شو؟

- أمك...

- كلهن هيك.

- لا.. أمك غير، طبعها مختلف.

كان ذلك بداية حسنة ليتشعب الحديث باتجاه الأمزجة، والرغبات، والطباع، دون أن تتحدث عن المكيدة التي بيتتها لرمزية. وجدت نفسك مشدوداً للثناء على ذوقها في صنع المتة أولاً، ثم في انتقاء ثيابها، وامتد الحديث إلى إطراء جمالها بشكل خفي، الأمر الذي صبغ وجهها بخفارة؛ لم ترَ مثلها على وجه. وحينما عادت رئيفة تحمل السفرة، انتعشت لتلك الحميمية السائدة.

حاولت أن تتصرف، وفي قرارة نفسك أيقنت أنك وقعت في الفخ؛ الذي نصبته لك رئيفة. وعلى الأصح أنت الذي قدت نفسك إلى الفخ. كيف لك أن تتخلص من براثنها؟ وكيف لك أن تفتح معها حديثاً مناوئاً بعد هذه الحفاوة؟ إنه ابتزاز من نوع آخر، هكذا ترجمته. وكان عليك ألا تدخل أصلاً، أما وقد أغرتك نوفة بالدخول؛ فما عليك والله إلاّ الإذعان.

مكرها جلست، ومكرهاً أكلت، ومكرهاً قبلت اللقمة التي قدمتها لك رئيفة؛ بعد أن أعلنت أن معدتك لم تعد تتسع نفساً واحداً. وأنت تنتظر الفرصة المناسبة لتعلن شيئاً مما يجول بخاطرك، لكن شيئاً من السحر مارسته عليك، فعطلت لسانك، وغلّت شفتيك. أخيراً اقتنعت أن الوقت لم يعد مناسباً لطرح شيء من خصومة.

تقف، تغادر مكانك فجأة إلى العتبة، تنتعل حذاءك، وفي نيتك أن تتقيأ كل ما قذفته في معدتك من طعام. تلحق بك، تستوقفك لأكثر من نصف ساعة عند باب الدار، تفرغ كل ما تريد أن تقوله، وأنت تتلقى؛ دون أن تمتلك القدرة على التفوه بنأمة. كان أنسب وقت يمكن أن تستثمره لصرخة احتجاج، لكلمة عتاب، بيد أنك كنت مقيداً، ملجوماً بتلك اللجمة التي كانت أمك تلجم بها كلب الشواعرة كلما تهيأ لها:

«كلبٍ كلبك، حمزي لجمك، وطّي راسك، وارفع ذنبك». وكان الكلب يقف وقد مد رأسه إلى الأمام، وأخذ يهز ذيله بخضوع تام. هكذا كنت؛ كمن حام على رأسه الطير، تحسبك حاضراً، وأنت بين الغائبين .

حينما عدت إلى البيت كانت رمزية قد نضجت على نار هادئة، تلقتك بحياد مطلق، لم تمارس معك أي نوع من التحقيق الذي يمارسنه عادة في مختلف المناسبات، فقط سألتك إن كنت قد تغديت، فأنكرت، واستنكرتْ:

- وين يعني يمكن اتغدى؟!.

- يعني؟!....

أعدت لك المائدة، جلست أمامك، أخذت تتأملك، أنت لست من النوع الكتوم، مكشوف أنت حتى خلايا الدماغ. شفّاف أنت حتى شرايين القلب، صامت أنت؛ لسانك حصانك، كامل اليباس، ناطقة عيناك وشفتاك ويداك بما في الداخل.

تلتهمك رمزية بعينيها، تفهم أنت ما يدور في رأسها الزاخر بالرؤى، يمتزج العرق المتصبب من وجهك بالطعام، تخرج من حرج الموقف، تعلل ذلك بحرارة الطعام من جهة، وبأن رمزية تكثر من البهارات، وبخاصة الفلفل الأسود. ورمزية تقيس مدى شهيتك للطعام، تتقرّى بمنديلك قطرات العرق، ولا تتكلم. أنت تأكل بطريقة مختلفة، تعرفك حين تكون جائعاً. ها أنت تطوف في فضاء رمزية التي أمامك، تاركاً لنفسك إمكانية المقارنة ما بين هذا الفضاء، والفضاء الذي تشكل أمامك قبل ساعة، يوم كانت نوفة تحتل مساحة الرؤية كلها، تنهض أمامك بترفها الأسطوري. رمزية هي الأخرى ما زالت تحتفظ بكل إمكاناتها التي تشدك إلى عالم غني، وزاخر بالجمال. لمَ تسلطت عليك تلك الأفعى. لمَ ؟!. تسأل نفسك بشيء من القلق، هل صحيح أنها تفعل كل ذلك من أجل ولد يدرج في دار النصيرات ؟ أم أنها كذبة أطلقتها؛ فصدّق الجميع ما تذرفه من دموع كاذبة، وأن كرهها لرمزية ولّد هذا الزخم من الحقد الذي يسكن داخلها.

ومع أن الأمر لا يتعدى جلسة غداء قلقة عند رئيفة، دون سابق تخطيط؛ إلاّ أنك تشعر بالإثم والتبكيت. قوياً كان سيف رمزية عليك، مشرعاً في كل الاتجاهات، ورمزية تتقن المبارزة بحرفية، لقد علمتها حادثة الحرام والعقال كيف تستخدم أسلحتها ببراعة فائقة.

تنتهي من طعامك، تهيئ لك المتة، أين ستضع كل ذلك الماء؟!. تخرج للحمام؛ كانت هذه المرة الثالثة التي تجتاحك حاجة التبول خلال ساعة، تلح عليك الحاجة حينما تتوقع أن تفتح معك تحقيقاً، تجدها فرصة لتهيئ المرافعة اللازمة، لكن رمزية كانت في كل مرة تبتعد عن الموضوع الذي سكن دماغك، وعشش فيك حتى الأبدية. ها هي الآن تقفز إلى الموضوع الأهم:

- **سالم!...**

تنتفض كمن لسعته عقرب، برودة جافة تسري في مفاصلك كلها، تنتبه هي لما انتابك، تجيبها بعينيك الكابيتين، وفمك المفتوح نصف انفتاح.

تقول لك إن هذه البلاد ليست لك. لا تفهم، تتجاهل عبارتها. تضيف: إن أهلك ينوون أكلك. تواصل النظر إليها بعينين ازدادتا اتساعاً، تبوح لها مازحاً بما يساورك من شكوك تجاه عقلها. تؤكد لك:

- **أني عاقلة يا سالم... لكن إنت...**

- **أنا مجنون ها ؟... قوليها.**

- **سلامة عقلك؛ أنت... بلا أولاد.**

تتخمع، ترتخي رجلاك، لا تقوى على الوقوف، تستدرك ضعفك بالجلوس دون أن تفتح فمك بكلمة. تجلس إلى جانبك، تتخذ وضعاً أقرب ما يكون إلى التوسل، تظهر لك أنه لا فائدة من جمع أية ثروة؛ ما دمت لست أباً، وأن أهلك يشعرون أنهم مغبونون بوجودها معك، وأنت بين أهلك وذويك أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. أخيراً توقد لك شمعة في تلك السدفة:

- بكرة يا سالم بتخلف... وبتتعبّا الدار ولاد وصياح.

يوقظك هذا الصخب الذي طرأ فجأة .. يقرع رأسك بمطرقة الفراغ الذي يعبث بك كل يوم. ترى الأولاد يخرجون من غرفة النوم؛ واحداً وراء الآخر، تماماً كما يخرج التلاميذ من المدرسة، قطيع من الأولاد يحتل كل شبر حولك، أمامك، خلفك، إلى يمينك ويسارك. وأنت تمضغ رمزية بعينيك النديتين. ينشد الأولاد أثناء خروجهم أناشيد مدرسية، تسمع النشيد الجميل، تضبطه على وقع أقدامهم؛ التي تدق الأرض حولك :«**أبت أن تذلَّ النفوس الكرام**». يخنقك الخيط الحار الذي ينسلّ من محجريك، ويلتفّ حول عنقك. «**تتحدثين عن الأولاد وكأنهم يركضون بيننا؟**». تنتشلك رمزية من شرودك بما يشبه الرجاء:

- قبال مني، واتكل على الله.

تسألها بعينيك:

- .... ؟

- نسافر مثل ها الناس.

تجفل، لاتستطيع أن تـــنظم مـــشاعرك، تـــشتبك مـــشاعرك كأغصان شجرة التوت؛ التي تملأ فضاء دار النصيرات، وتعانق المضافة في الطابق الثاني. تقول بحرارة :

- **نســـ.......افر؟!...**

تجتاحك تلك الموجة من البرودة. تتذكر الجدل الذي احتدم منذ أيام في قاعة المدرسين:

« ـــ هذا السفر هروب من المواجهة .

- **من سيواجه من؟.**

- **كلهم فارون بجلودهم.**

- **هذه حلول فردية والحل الفردي قاصر دائماً.**

- **هم ألجؤونا إلى هذا الحل.**

- **وضعونا في خانة الياك.»**

أخيراً تضرب الأرض برجلك كما فعل ذلك الإيطالي، وتقول: « ومع ذلك فإنه حل فردي ».

* * *

إلى متروك... منعطفات

لم يكن يجهل في يوم ما محاولات رئيفة؛ الساعية لامتلاك مصير ابنتها نوفه؛ بعد انفصالهما... ومع ذلك فلم يحاول مرة واحدة أن يقف في طريقها؛ حينما كانت تعلن عن رغبتها في زيارة أمها.

أخذ يفسر لي مشاعره تجاه رئيفة، ويحدد تلك المشاعر: *« لم أكن أختزن في قلبي شيئاً من الحقد ؟ فتشتُ في تصرفاتي ... في أحاديثي ... في قلبي المنكسر فلم أعثر على أثر لذلك، كان فقط ينتابني شيء من حدة المزاج حينما يذكرها أحد أمامي، أذكر صلفها وجبروتها. وربما تطور شعوري إلى غضب مفاجئ. غير أن هذه المشاعر المختزنة كانت تتلاشى حينما تقودني الذاكرة إلى تلك الدنيا الزاخرة؛ التي صنعتها رئيفة حولي ذات يوم».*

همس لي بما يشبه الشكوى؟:

- **وين رئيفة؟. ووين ذوابي؟.**

ومن خلال شكواه لي ظهرت ذوابي مادة قابلة للتشكل على أية طريقة يريد.

- جميل! ماذا تريد أكثر من ذلك؟!. لم ترد لك طلباً، ولا رفضت لك رغبة.

لكنه أعلن حرباً على هذا الأنموذج من النساء؛ الذي ينساب مثل ماء القناة التي تتغلغل في الكرم بلا ضجيج، فإذا انفتحت أمامها بالوعة؛ انساقت فيها بلا إرادة ولا مقاومة.

قال لي إن رئيفة أنموذج آخر جعله يعشق العناد، ويرى في مقاومته نشوة، وفي الانكسار أمامه لذة. ولقد مدت رئيفة يدها السحرية إلى نوفه فنفخت فيها من روحها، وألبستها شيئاً من طباعها، بعد أن كانت قد منحتها ضياءها وألقها.

« وهذا بالضبط ما جعلني أتعلق بنوفه ولا أتوانى عن مخاصمة ذوابي إذا هي حاولت الامتداد باتجاه رغباتها. لم تكن ذوابي عنيدة، وليس لديها استعدادات عدائية، غير أنني كنت أذكّرها دائماً بمكانة نوفة عندي، وأنها كدار أبي سفيان من دخلها فهو آمن».

لا أدري كيف سأفسر تسامحه مع نوفة في زياراتها المتكررة لأمها، والأكثر من ذلك كيف أفسر إغداقه عليها ما تشتهيه من لباس وأدوات زينة، وهو المصنّف عندي وعند رئيفة وكل خلق الله من أهل المجدل في خانة البخلاء.

لقد رفضت نوفة محسن الحوت بكل ما لديه من إغراءات، وقد جاء هذا الرفض بالنسبة له طبيعياً، لم يشكل ما يثير حفيظته. مع أنه يعلم يقيناً أن محسن الحوت لن يتردد في أن

يبذل له كرم النجوم، كي يضمه إلى كرمه، وهذه فرصة نادرة طالما حدثتي عنها ولعابه يسيل لها، وطالما حلم بها كلما ذهب إلى الكرم، ولكم ردد:

«فرصة ما راح تتكرر أبداً»

فقط اكتفى بالإغراء حين زيّن لنوفة الأمر:

«محسن الحوت يجعلك ملكة ،يرصعك بالذهب؛ طربوش عيار ٢١ بشكتين وقرص مشنشل، وعقد وزوجين من المباريم أغلظ من الإبهام، وخمس ست سحبات بكل يد، يعني يضعك على الرف فقط من أجل أن يتفرج عليك. طاوعيني يا بنت»

لكن نوفة لم ينضجها ذلك الوهج، وأخذت تتطلع إلى أمداء أرحب، لقد زرعت رئيفة في رأسها طموح الأنهار، وتطلعها إلى فضاءات أكثر خصباً، دون أن تحدد لها ملامح تلك الفضاءات صراحة. وراحت ترسم لها أفقاً واسعاً؛ فيه مساحات غير محدودة من الطموح، وعندما هيأت لها فرصة اللقاء بي على نحو ترصدي لم يأتِ هذا الترصد واضحاً أمام نوفة، بل ظهر شكلاً متمادياً من أشكال المصادفة، وربما رأت أن المصادفة كثيراً ما تكون مسكونة بالحلاوة والمتعة، وربما تكون مسكرة أيضاً. ولذلك فقد أخذتْ تمضغها بلا حساب، دون الانتباه إلى تلميحات أمها الخفية في حضرتي، كانت تسمعها فتغضي حياء.

لكن رئيفة لم تستسغ هذا التجاهل من نوفة. ووجدت نفسها مدفوعة بعد انصرافي إلى شدها من فستانها، حينما أبدت رغبتها بالانصراف هي الأخرى:

- اقعدي... ما حكينا بعد.

«سرى في بدني صقيع جاف، وتلاشت مقاومتي، كنت اظن أنني تماديت في جلستي معك، فخرجتُ بذلك عن حدود اللباقة والألفة التي اعتادتها أمي، وربما لمت نفسي أنني لم أحسب حساباً دقيقاً؛ فأنت متزوج، وأنا...»

هكذا أخذتْ نوفة تذوب خجلاً، مع أنها لم تخرج أمامي عن حدود الأدب، ولا رأيتها تبذل لي نفسها رخيصة، لكن أسلوب أمها الصارم في الكلام جاء ليعزز هذا التبكيت الذي سكن في قرارها منذ لحظات. نظرت إلى أمها بنهم مشوب بالقلق، وارتسم على وجهها شكل سؤال لا إجابة له. قالت رئيفة:

- شو رايك بسالم؟!.

« فتحت عينيّ، وارتجف جسدي... كل جسدي. سألت

- سالم؟!.....

فاجأتني، صعقتني، ردتني إلى وعيي بعدما تحدثت بصراحة، وبدون مواربة، ولا لف، ولا دوران. استمعت حتى الأخير، صبرت نفسي، وأنا أستمع إلى رغبة أمي صراحة؛ أمي

التي صارت واضحة مثل عين الشمس. قالت إنها ضحت كثيراً من أجلي، وتضحيتها كبيرة... كبيرة. كانت تأمل أن تنجب ولداً من أبي سالم، لكن هذه الأمنية لم تتحقق، تبخرت مثل الدخان الذي يخرج من القساطل فوق السطوح، ويختفي في السماء. ما بقي باليد حيلة، انهدّت أمي وهي تحدثني عن انتظارها، ولهفتها، لكنها ما قدرت ترمي سلاحها بسهولة. ولما رأتني صبية، وحلوة، رجعت ترسم خطتها الجهنمية من جديد. وكانت متأكدة إنها قادرة على إنجاز مشروعها الذي خططت له.»

كل شيء كان متوقعاً ومحسوباً بدقة بنظر رئيفة، لكن هذا الموقف الذي واجهتها به نوفة غيّر كل الحسابات دفعة واحدة، وفاق حدود التخمين. كانت تظن أن المشكلة تكمن في وجود رمزية في بيتي، ولذلك سعت بكل فحيحها إلى تلك الفضيحة التي دبرتها بالاتفاق مع ريوف ونعايم. أما الآن فقد ظهرت نوفة أمام أمها بصورة مختلفة عن الماضي؛ لم ترها قبل الآن بهذا النفور، غزالة كانت في نفورها. ولم ترها بهذه القسوة في الحكم، ولا بهذا العقوق، ولم تستطع أن تسمع أكثر مما سمعت. فقط ظل في أذنيها آخر صوت لنوفة:

- وين تروحي من خطية رمزية؟!.

لمّت نوفة نفسها، وطوحت بقامتها من الباب دون أن تلتفت. انتهجت الطريق الأقصر، اخترقت الزقاق الضيق.

« من زمان بعيد ما عبرت من هذا المكان، ولا داست قدمي هذه الأرض، من يوم كنت طفلة. وجدت نفسي أعبر دار ريوف عن طريق الحوش، وصلت إلى الزقاق الذي يصل إلى بيتنا، دخلت، وتكومت مثل الفراشة الهامدة، التي أحرقتها النار. وصرت إسأل نفسي: هذا هو الفضاء الذي كانت أمي تهيئه لي ليل نهار ؟!».

باحت لي فيما بعد بكل شيء؛ أنها لم تعترض عليّ في شكلي، وطريقة تعاملي، وربما أحست بدفء كلماتي، لكنها شعرت أنني لست لها، فأنا مربوط إلى سنديانة أخرى، موثوق إلى كل أغصانها، رغم ما يبدو عليّ من تراخ وانفلات، والأكثر من ذلك فقد وجدت نفسها فخاً... مصيدة... مادة جاهزة للاصطياد... لزجة ومكشوفة اللزوجة أيضاً. وشعرت بالإعياء والقرف، والكره لأمها. كل هذه المشاعر انتابتها بكثافة تشبه كثافة الخيبة التي ارتمت فيها.

«وأغلقتُ باب الغرفة، أقفلته من الداخل، وارتميت على الأرض، من دون أن أستجيب إلى صوت ذوابي التي حاولت أن

تعرف شيئاً.. أن تعرف السبب، ولكن دون فائدة. لقد خافت أن يظن والدي أنها زاعلتني. وحين عاد والدي إلى البيت بعد ساعة؛ كنت قد قررت الامتناع عن زيارة أمي، وكنت أيضاً قد مضيت إلى قرار أكثر خطورة حينما أعلنت لوالدي موافقتي على محسن الحوت الأرمل المسن».

ستصاب بالدهشة يا متروك، ستفتح فمك، وتزوي ما بين عينيك، وستميل برأسك منحنياً باتجاهها، كل ذلك بلا إرادة منك، محاولاً أن تستوعب الموقف. لكن النظرة الكسيرة التي أرسلتها نحوك جعلتك تجفل حينما اعتدلتَ، فتماسكتَ، فسألتها، فقررت مرة أخرى ألا تبوح بشيء، ربما خطر لها ألا تعاقب أمها مرتين بآن. «**فبأي آلاء ربكما تكذّبان؟**».

* * *

لك الليل

إضافة إلى أمتعتك الشخصية، ووحشتك، ورفيقة دربك رمزية، حملت اسمك الثلاثي: «سالم يوسف النصيرات». دفعة واحدة قدمت اسمك مدوناً في كتاب التكليف، ومشفوعاً بالختم الأحمر «الأمانة العامة للتعليم»، والمزدان بباقة من التواقيع.

قرأ الاسم... نظر إليك:

- **النصيرات؟!.. مسيحي؟!.**

قفز قلبك إلى شفتيك... عبقت في أنفك رائحة شواء آدمي... الفرز هنا على الهوية أيضاً؟!... تغيب لحظة في لجة السؤال اللغز... تحاول أن تهيّيء جواباً على قدر السؤال... لا يسعفك اضطرابك ومفاجأتك، فتستيقظ بعد صمت:

- **لا. مسلم.**
- **من وين؟.**
- **من سورية.**
- **ندري من سورية، من وين؟.**
- **وأنت تعرف سورية؟!.**

- نه[1] نعرف سورية شبر بشبر.

- أنا من جنوبي سورية، من السويداء.

- يعني درزي؟!.

تستيقظ بك للحظة استعدادات المواجهة، غير أنك ما تلبث أن تبتلع جبليتك التي برزت فجأة مثل نصل حاد ... تزدرد ما بقي من لعاب في جوانب فمك المتشقق ... تقرأ : من سورة الحجرات «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**»... تخترق عينيه بنظرتك الصارمة:

- تقصد مسلم موحد.

ينتبه إلى أنه خرج عن الجادة، يدرك أن في إجابتك شيئاً من التحدي، يكتشف أن لحمك قاسٍ، لايستوي بغلية أو غليتين، وإنما يحتاج إلى كومة من حطب. يستلم أوراق اعتمادك مدرساً.. ويسرع إلى التخلص منك حينما يطلب إليك أن تعود في الغد ليحيلك إلى هناك.

وهناك كل شيء يحيلك إلى ذلك الكتاب؛ صورة الأخ قائد الثورة، بحجم أحزانك القادمة من الشرق .. شرق الصور والشعارات، وشرق أقواس النصر، والنصب المزروعة في كل مكان. عبارات ساطعة من الكتاب الأخضر :

«من تحزب خان. لا ثوري خارج اللجان الثورية. شركاء لاأجراء».

---

(١) نه: أنا.

إذا فستكون شريكاً هنا في كل شيء؛ في الهم والحصار الذي سيغلق أمامك الأجواء، كما يغلق البر والبحر. وستكون شريكاً في ذلك الأخضر المنسدل في كل مكان؛ يسيطر عليك حد الجذل. فالكتاب أخضر، والزحف أخضر، والراية خضراء، والجبل أخضر، والأمل أخضر، ودربك أخضر إن شاء الله. يمالئك الباب المفتوح، طالما تمنيت أن ترى باباً مفتوحاً في شرق هذا العالم، وأنت الذي ترى أن الباب المفتوح يفتح الشهية للبوح دون حساب، وبلا كلفة، ولا مقدمات، ويفتح الطريق باتجاه عرض الجال. وأنت الغريب هنا تستبيح الصمت، تستنطق الأشياء، تبحث عن ملاذ في كلمة، في بسمة، في باب مفتوح؛ يفضي إلى أمل أخضر.

لا أحد... أبداً... مكتب وقور، عليه بقايا من بهاء قديم، وأوراق متناثرة، ومدونات ترسم حالة من الفوضى، مع أرائك خالية إلا من غبار. النوافذ المشرعة، وهواء يصفر، وأنوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس. وتروح تلقي بتحية الأماكن الخالية: «**ألا عم صباحاً أيها الربع واسلمِ**».

يخرج لك من الداخل؛ طويلاً، عريض المنكبين، متلفعاً بجرده دون كلفة ولا وجاهة، والشنة الحمراء الزاهية تغطي ربع رأسه، منسدحة إلى الوراء قليلاً. نظرته الأولى لا تدل على أنه معني بشيء أبداً، إلا أن يستقبلك بابتسامة تذيب ما تكاثف من ثلجية المكان. ينظر في كتاب التكليف، ويهز رأسه:

- **جامعة دمشق؟!. كويس... أنتم السوريين هكّي.**

ويشير بيده كما السيف.

«كنا فبنّا». كدت تتلفظ بها... غير أن العزة أخذتك، وامتلأ رأسك بمجد بني أمية، وأخذت تجر الذيل تيهاً كأنك شيء من عقبة بن نافع، أو أمير من أمراء بني أمية؛ جاء يؤسس لإمارة في الأندلس؛ ببقايا جنود نفذوا بريشهم من سيوف السفاح وأبي مسلم. دفعة واحدة رأيت نفسك صقر قريش، فماذا ستفعل في طبرق؟!. وطبرق تحت حراب الرايات السود من بني العباس.

يعيدك احتفاء الرجل إلى الأرض، وقد اختار لك موقعاً ذا أهمية كما جاء في عباراته الترحيبية:

- **نبّو(١) نستفيد من خبرتكم يا السوريين.**

ثم ختم احتفاءه:

- **هيّا نعرفوك على المدرسة.**

كل ذلك وأنت مشغول بهذا الشكل من الاستقبال، منشرح لهذه التلقائية في التعامل.

تخمن من يكون الرجل الذي أمامك؟ ما مسؤوليته؟ وما هي الحدود الفاصلة بين المجاملة والنفاق؟.

في السيارة المازدا ستيشن يقدم نفسه:

---

(١) نبو: نريد.

- **نا[1] بريك الغرياني ... موجه اللغة العربية.**

وبدأ من الشام؛ أسواقها، ومطاعمها، ومكتباتها، حتى وصل إلى حدود معاوية العشرين.

تجد نفسك ملتزماً بالسؤال:

- **أنت زرت الشام؟**

- **ديمة[2] نا نروح للشام.**

وبجرة لسان ينقلك إلى بردى... سيفها المصلت على اليباس، يطوف بك سوق الحميدية جادة جادة... يقودك إلى الحلبوني مكتبة مكتبة... ينتقل بك إلى المرجة مطعماً مطعماً، ممتدحاً الشاورما الشامية؛ والكبة الحلبية.

على الطريق يتداخل حور الشام وجوزها ومشمشها؛ مع نخيل طبرق المتناثر بحياء في الحويزات والأودية، إلى أن كنت هناك وجهاً لوجه أمام مسطح هائل من الأسمنت، ولوحة على عرض الباب الرئيس كتبت باللون الأخضر: «معهد الزحف الأخضر للمعلمين».

«بداية لم أرَ سوى كلمة الزحف. كيف حضرت أمامي الصورة بكل تفاصيلها؟ !. صورة الجراد الذي زحف على المجدل يوم كنت تلميذاً في الابتدائي. يومذاك أخرجونا من

---

(١) نا: أنا.

(٢) ديمة: دائماً.

المدرسة، وتوجهوا بنا إلى الحقول حيث يزحف الجراد. طرنا فرحاً نحن الصغار لأننا سنتخلص من يوم دراسي. حمّلوا كل واحد منا تنكة وعلمونا كيف نعزف عليها معزوفة الجراد. وأن الجراد سيهرب من أول طقة، لم يدخل في سريرتنا أن الجراد سيستوطن البلاد؛ كل بلاد العرب، فماذا تستطيع هذه التنكات أن تفعل؟!. جيش من الجراد الأصفر الزاحف، لم يبقِ خلفه عرقاً أخضر ولا يابساً. جراد على مد البصر أكل كل شيء ودخل المدارس والبيوت، أكل الكتب والدفاتر والأقلام والصحون والملاعق والقدور، وصار يطارد الناس في الأزقة. كل جرادة تحولت إلى نسر بمنقار وأظفار معقوفة. صرنا مطارَدين بعد أن كنا مطارِدين، رمينا تنكاتنا وتحوّلنا إلى بيوتنا لاهثين. ومن يومها عشش الجراد في بلاد العرب من الماء إلى الماء».

معهد الزحف الأخضر يمتد على مساحة عشرة هيكتارات من الرمل الأصفر، ولا شجرة... ولا عرق أخضر. تسأل الشيخ بريك:

- **متى يصل الزحف الأخضر إلى المعهد، ومن ثم إلى طبرق؟.**

يبتسم الشيخ بريك ابتسامة على قدر مسؤوليته:

- **ما زاااااااااااااااااااااااال.**

ويميل بالألف حتى تغدو ياء : ما زيـــ..........ل

ويضيف الشيخ بريك: إن الزحف الأخضر بدأ من الجبل الأخضر، لكنه لم يتعدَّ مدينة البيضا عروس الجبل. وما بين البيضا وطبرق بلاد من الرمل والصحراء يا «ولد سيده»، كأنما أتى عليها الجراد منذ مئات السنين.

يعشش الزحف في تلافيف دماغك، وستكتشف بعد توالي الأيام أن زحفاً آخر قد استهدف تجمعات سكنية حكومية في طبرق، احتل المواطنون بموجبه ــ وبتحريض من السلطة العليا في طرابلس ــ هذه الأبنية وكتبوا عليها بالخط العريض «**من الشعب وإلى الشعب. شركاء لا أجراء**». ولم يخرجوا من الأبنية إلا بزحف آخر جاء هذه المرة مسلحاً من طرابلس ــ وبأمر من السلطة العليا نفسها ــ جعل صيفهم شتاءً، ونهارهم ليلاً، ونعيمهم بؤساً .

يدخل الشيخ بريك إلى إدارة المعهد وأنت خلفه بلا مراسم ولا تشريفات:

– **الأستاذ سالم يوسف النصيرات. مدرس لغة عربية ، سوري**. ثم يحضن فمه براحة يده، ويميل برأسه نحو المدير هامساً:

– ... .

يعاودك الإحساس بالعزلة، والحزن، والحنق بآن واحد، وسيتعاظم هذا الشعور حينما تدخل غرفة المدرسين وتقدم نفسك. ستكتشف حينها أن خبرك سوف يسبقك أينما اتجهت.

صوت من خلف المكتب الأسود يرحب بك باقتضاب شديد، ويطلب إليك أن تعود غداً لاستلام الجدول، وتتصرف مترنماً بما قال قراد بن الأجدع يوماً: **لئن يكُ صدر هذا اليوم ولّى / فإن غداً لناظره قريب.**

منذ اليوم الأول يبدأ العد التنازلي من قاعة المدرسين، يتطوع أحدهم بالتعريف:

- عبد العزيز عثمان فلسطيني، عادل عبد الجليل مصري، محمود الهاشمي سوداني، عبد الهادي بلقاسم تونسي، ثم يضع يده على صدره: ونه السنوسي عبد الله ليبي.

يعلق عبد العزيز عثمان:

- والأستاذ سالم درزي... من سورية...، صار بإمكاننا تشكيل جامعة عربية.

قال السوداني محمد الهاشمي:

- لعلها أن تكون أكثر نفعاً من الجامعة العربية الحالية.

يتطوع عبد العزيز عثمان لحسم الموقف:

- ما لنا وللسياسة؟! هذه فرصة ليحدثنا الأستاذ سالم عن الدروز، لقد جاء الشيخ بريك البارحة وأخبرنا: «جاييكم مدرس درزي».

تجفل، تلاحقك اللعنة أينما حللت. تتذكر:

«على أحد المعابر الأردنية، فتش أحد رجال الجمارك حقائبي:

- من وين انت؟

- من وين يعني؟!. من سورية.

- أنت درزي؟!.

لقد عرفني من لساني العريض.

- نعم درزي. في شي؟!.

- لا، أبد.

في مصر أيضاً، لقد كانت السويداء دليل درزيتي، ينظر في جواز سفري ممعناً:

- أنت من سورية؟.

- نعم.

- من السويدا؟.

تستغرب هذا الاستقصاء، يتابع.

- هو في في السويدا مسلمين؟!.

- نعم، في أنا».

يستلّك عبد العزيز من شرودك:

- عدم المؤاخذة، لا أحد فينا يعرف شيئاً عنكم هنا.

تغور في منعطفات هذا الإلحاح، تتعوذ، تبسمل:

« يسئلونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله» صدق الله العظيم.

تحلم ببلاد لا يسألونك فيها عن اسمك الثاني، تبحث عن سبيل لإقفال هذا الغور الذي فتحه عبد العزيز، ترتب مجموعة من الأسئلة الافتراضية: هل استشاركم أحد عند ولادتكم في الجنسية التي ترغبون؟... في الديانة التي ترغبون؟. في ممارسة طقوسها، لتصلوا إلى الله؟! .

لو خلقكم الله دروزاً؛ أكنتم قادرين على الاعتراض؟!.

تستبعد كل هذه الأسئلة وتبادر عبد العزيز:

- أعدك أنني سألبي طلبك، ولكن ليس الآن.

يفتح عينيه دهشة:

- متى؟!.

- بعد أيام... حينما تتعرفون عليّ من خلال أدائي في المدرسة، لا من خلال الهوية التي أحملها... أعدكم أنني سأقدم لكم تقريراً مفصلاً: كيف نعيش، كيف ننام، كيف نأكل، كيف نفكر، كيف نتعامل مع الآخر من خلال العمل، لا من خلال الاسم .

غير أنك تتراجع قليلاً:

- حسناً ما دمتم مصرين، باختصار شديد هو لقب ألصق خطأً بالمسلمين الموحدين الذين ينطقون بالشهادتين، نسبة إلى نشتكين الدرزي الذي خرج عن مذهب التوحيد، أحد المذاهب الإسلاميةالتي تعددت جراء تعدد الاجتهادات، وقد تأسس في عهد الدولة الفاطمية وانتشر في بقاع عديدة من البلاد العربية والإسلامية، هل يكفي ذلك؟.

منساقاً إلى ذلك الخطاب التعسفي تجد نفسك، مندفعاً إليه بغير إرادتك. فتحشر فيه حشراً. وتجدك تقتل مرتين وثلاثاً: مارق أنت هناك في المجدل، خارج من حدود الرحمة التي تمنح منة من أصحاب القامات المحنية واللحى البيضاء، لا لشيء إلا لأنك تأبى إلا أن تستخدم عقلك في كل خطوة من خطواتك، وفي كل كلمة من مداخلاتك معهم.

مارق أنت خارج حدود مملكتك الصغيرة الكتيمة، حينما تخرج حاملا خشبتك على ظهرك، تبحث جاهداً عمن يرميك بحجر.

وسيكون المروق الأكبر لك حينما تبتعد أكثر، فإذا أنت أمام التهمة المفصلة على مقاسك: إرهابي، والحرام بين والحلال بين؛ ألست مسلما تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟. لقد حقت عليك اللعنة إذاً، فأنت إرهابي، لا تنظفك من التهمة كل منظفات العالم.

منذ اللحظات الأولى تقرر أن تكون سفيراً لسورية في هذه الجامعة العربية، لا سفيراً لمواطنيك في السويداء.

* * *

الحاجة عايشة... أراجيف

لم تكن فكرة الذهاب إلى الحاجة عايشة فكرتها، ألحت عليها مصيونة، وأكدت لها كفاءة الحاجة عايشة في هذا المجال:

«والحاجة عايشة ياحبيبتي كاهنة، لا يخفى عليها خاف، ولدت في الليلة الكريمة المباركة، فسموها مبروكة، ويوم ولدت ماتت أمها، ثم مات أبوها فأخذوها إلى الجامع، وصاروا يرضعونها من العنزة. وجاء ذئب وقتل العنزة، فأخذوا يرضعونها من البقرة. ثم ماتت البقرة، فصاروا يرضعونها ماء وينسوناً، وعاشت مبروكة، وصاروا ينادونها عايشة، وكبرت عايشة وصارت عروساً، وفي ليلة بلوغها؛ في الليلة المباركة، جاءها الخضر، وحملها إلى البيت الذي ببكة، فطافت وسعت، وكبرت ولبّت، ثم حملها إلى المدينة الشريفة، فزارت قبر الرسول ألف صلاة عليه، وعاد بها إلى طبرق في الليلة نفسها. ومن يومها لبست الأبيض، واعتكفت في بيتها، تزورها الناس للاستشفاء، ولا تزور أحداً».

وكي تثبت صحة شهادتها بها طرحت نفسها مثالاً، وفتحت أسرار بيتها حينما أخبرت رمزية بأمر زواجها:

«أول يوم ما صار شي... ثاني يوم ما صار شي ... ثالث يوم ما صار شي، ون جاه باته[1]، قال الله وشن سويت[2]؟ وشنهيه قصتك[3]؟، وقام واخضه[4] على الحاجة عايشة. ووين عاود[5] عاود زي الحصان».

عند هذه الوقائع لجأت رمزية إلى هذا الطريق الذي أرهقك وعصف بما تبقى لك. رأيتك تسبح مع التيار لا تقوى على المجالدة، باردة تلك المياه... باردة حتى الثلج. وذراعاك عبثاً تحاولان التحرك... عبثاً تحاولان التجذيف، وما من فائدة.

تبين للحاجة عائشة أن رمزية مثل حصاة الفضة، نقية، صاخبة كفرس، خصبة مثل أرض بكر؛ فقط تحتاج إلى حسام يحرث، وماء يروي، وبذار ينتش. كانت الحاجة تستخدم سبحتها البيضاء الطويلة حينما عددت هذه العناصر الثلاثة. وقد حاولت رمزية نقل حركة الحاجة عائشة لك حينما طوت أصابعها الثلاث؛ الخنصر والبنصر والطويلة الوسطى، وهي تهز يدها أمامك.

---

(١) ون جاه باته: وإلا قد جاءه والده.

(٢) وشن سويت: ماذا فعلت.

(٣) شنهيه قصتك: ما حكايتك.

(٤) قام واخضه: فقام وأخذه.

(٥) وين عاود: وحين عاد.

وأنت تقف باهتاً، تحس وطأة الحمل. كان النبأ صرخة لجوجة في ذلك الخواء الذي تشكل في صدرك وعقلك وقلبك. صعقت، ثم انهددت، ثم تهالكت مجموعاً على الحصيرة التي افترشتماها في البيت الجديد.

قالت لك رمزية إن هذا ليس عيباً، والله قادر على رفع العلّة مثلما وضعها، وفي كل ذلك كانت ترجع للحاجة عائشة .

* * *

« عادت بي الحاجة عائشة إلى المجدل، يوم غادرتها مكرهاً، ترسم لي رمزية دروباً زاهية مشعشعة بالورد والياسمين والفل وكل أنواع الرياحين. وعادت بي إلى أرض النصيرات التي تركتها بوراً... إلى الحسام الذي كان يعالجه أبو سالم لدى سعيد الحداد، فيحسمه ليغدو أكثر مضاءً من ذي قبل. بدأت أتلمس جسدي، أعضائي عضواً عضواً، رأسي، وجهي، أنفي، إذنيّ، عينيّ، يديّ، خاصرتيّ، حتى انزلقت يداي إلى الأسفل. شيء ما انطفأ فجأة في محجري كما السراج، لم يبق أثر لأية حمحمة أو صهيل، بات كل شيء ساكناً، ميتاً، لا حركة فيه ... خرقة بالية ومرمية أكلها الوهن. بات كل شيء قابلاً للفجيعة، خذلت، بدوت مثل مادة سائحة، لم يشفع لي لهاثي، ولم تشفع لهفتي، كأنني لم أكن يوماً رجلاً بحسام، يشق الأرض البكر، بصخب المواويل والعتابا والهجيني.

بيد أني لم أستسلم، أسقطت من حسابي كل شيء إلا تلك الحركة التي يجب أن تشتعل ثانية في حجري .»

* * *

كانَ الليل يزحف ببطء قاتل نحو ذلك الأفق المتدرن، وكنتَ هاجعاً بجانب رمزية تتهجّد. أخذت تحرك لسانك بالابتهال، تراءت لك كل المزارات التي تنتصب فوق التلال المحيطة بالمجدل، هناك في أقصى بلاد العنب، التي يفصلك عنها بحر من الماء، وبحر من الرمال، وبحر من البشر، أخذت عرائس الليل تخطر أمامك، تتعرى، تبرز لك مفاتنها، وتصنع حولك طقساً من الأنوثة النادرة؛ أذرع من المرمر تطوق عنقك، قوائم من العاج تلتف حول ساقيك، نهر من الحليب يغمرك، وأنت تتقرى بيديك تلالاً رهيفة من الزبدة، تمضغ بلسانك الشهد والعسل.

فجأة زغرد الليل، وأنضج في حجرك عرقاً مجدولاً من الأعصاب، محقوناً بالدماء الحارة، خرج ابتهالك عن نطاق التهجد، صار همهمة، صار كلاماً مسموعاً. أفاقت رمزية على ابتهالاتك وسط آلهات الجمال، ظنت أنك تعيش كابوساً هزتك:

- سالم ... سالم.

نهضت كمن أرهقه النوم. أخذت تتعرى أمام رمزية، ورمزية مأخوذة بجنونك، خلعت ثيابك كلها ورميتها بعيداً وهي ذاهلة، ترمقك بعينين مفجوعتين... تظن أن عقلك قد طار، وأن جنياً ما قد سكن إهابك، وأنت تتقدم نحوها بذلك العرق المجدول مثل صبي مشاكس، تبذله لها بتوسل حار:

- بربك يا رمزية! هذا حسام ولا ...؟!.

تفطن رمزية إلى لهفتك، تقدِّر مدى الخيبة التي تعتريك:

- انت ما فهمت قصد الحاجة عايشة.

- يعني؟.

- يعني العطب لا بالحسام ولا بالأرض. العطب بالبذار، فهمت؟!. البذار معطوب يا سالم.

خذلت، ارتددت إلى الخلف، وارتد معك الحسام إلى غمده، وأخذت ترتدي ثيابك بملل وبرود وتشتت، تنعى الصورة الجميلة التي رسمتها لك عرائس الفجر الجميل .

* * *

هكذا صرت محكوماً بالطاعة، مسكوناً بالخوف والتردد، تقودك رمزية كما تقود بعيراً، فإذا أنت في حي المنارة اللاطئ في خاصرة بحر طبرق، أقصى الشرق، تلفه المياه من جهاته الثلاث؛ الجنوبية والشرقية والشمالية، فتشكل حوله حزاماً من المنعة والأمان، كل ما حولكما يشير إلى أنكما في طبرق الآولى... طبرق البكر... المكان الذي اختاره السنوسي الأول في حضن الهضبة، التي تساير البحر حتى السلوم، على مشارف مصر. أبنية من الطين والحجر، ملتصقة بالأرض بطابق واحد، لا نوافذ مطلة، لا شرفات، كأنما أصحابها

انغلقوا على أسرارهم، وتوحدوا مع الغرف التي تنكفئ إلى الداخل؛ بالأدب والاحتشام اللذين يفرضانه على المرء كلما انحرف عن جادتهم: «تحشّم».

تعبران الزقاق المؤدي إلى ساحة ضيقة، تتفرع عنها معابر عدة، في أحد هذه المعابر، وعلى مدى بيتين؛ تقفان أمام بوابة خشبية كبيرة، ذات مصراع واحد، ثمة حلقة من الحديد تستند إلى طرف مسمار كبير يشكل سنداناً تعزف عليه الحلقة لمن في الداخل لحن القدوم. تشير رمزية بعينيها، فتتناول الحلقة بيدك المرتجفة، وتطرق على السندان طرقة ... طرقتين ... ثلاثاً، تتراجع، وبوضوح تستطيع رمزية أن تعد دقات قلبك التي أخذت تتسارع، فأنت قادم إلى المجهول، أتيت عوالم لست أول من اكتشفها، ولن تكون آخر من يطرقها في هذه المدينة التي امتلأت حباً وامتلأت عفوية.

ينفتح الباب وسط صخبك الداخلي، دون أن تدري من الذي فتحه. فجأة ترى الباب يدعوكما للعبور، ولا أحد ... فسحة مبلطة ببلاط إيطالي قديم، أحال طول العهد لونه، وتركت المياه وعوامل الطبيعة على حوافه بعض الثغور، وثمة بابان؛ أحدهما على يمينكما، والآخر إلى اليسار، مغلقان، يلفهما الصمت الذي يلف المكان. وفي المواجهة باب مفتوح فوقه بروز ضخم كما الأنف، انفرجت فيه فتحتان. هكذا أنتما أمام وجه كامل التفاصيل، بعينيه المغمضتين، وفمه المفتوح، وأنفه الكبير الذي يستنشق الهواء عبر فتحتيه.

تقف أنت، تنتظر إشارة الدخول، فيما تدلف رمزية إلى الداخل. من أين لرمزية هذه الخبرة بالمكان؟!. لكن الحال لم تسمح بأي سؤال.

تعبران الباب المفتوح، قاعة لها استطالة باتجاه الأمام، وعلى الجانبين فتحات معلقة في الجدار، اصطفت فيها أباريق نحاسية بأعناق طويلة مخنوقة، نقشت عليها آيات قرآنية كريمة، كبا لونها الأصفر المشوب بالخضرة، واختفى لمعانها لطول مقامها في تلك الكوى.

وفي الوسط طاولة مستديرة من خشب الصندل، ارتفعت عن الأرض مقدار شبر، فوق أرجل إسطوانية مزخرفة. وثمة شمعدان من النحاس بطول ذراع، استقر فوق الطاولة، تعلوه مجمرة تنطلق منها رائحة للبخور، فيتعانق مع رائحة الصندل بإلفة عجيبة، تجعلكما تذهلان عن البسط التي امتدت في أرض القاعة، بلونها الأبيض والأسود الطبيعي، تشيع في المكان عبق التاريخ، وجلال الماضي، وتحيلكما إلى نشوة عارمة.

من الباب الذي يتصدر القاعة تطل امرأة بلباسها الليبي الشعبي، تحيي رمزية تحية العارف، وتنظر إليك متفحصة، كمن يرى إلى هيكل مليء بالأسرار.، لا يخامرك شك أنك أمام الحاجة عائشة، التي طالما حدثتك عنها رمزية، فأخذت ترسم لها في خيالك صورة لا تخطئها. تحيلك المرأة إلى أريكة على يمين المدخل، فيما تأخذ بيد رمزية بحميمية، تشي بأنهما يأتمران بك.

فتشتعل، وتربدّ، وتنتهكك غرابة الطقس، ويضيق عليك المكان، إلى أن ينفرج الباب ثانية عن المرأة؛ تدعوك إلى الداخل، فإذا أنت في حجرة مضاءة بالشموع، وفي صدرها تربعت امرأة ملتفة بثيابها البيضاء، لم تستطع أن تتبين عمرها. كل ما حولك أبيض؛ الجدران، الشراشف، الستائر، البساط، المرأة المتربعة، وعرقك البارد. لكأنك غارق في حقل من الثلج، أين منه ثلج المجدل.

من هذه المغلفة ببياضها؟!. وجهها قُدَّ من صفاء الماء الزلال، وصوتها قادم من الأعماق.

تدعوك باسمك واسم أمك، فتقترب، تقف أمامها كما الألف، مثلما كنت تقف أمام المعلم في مدرسة المجدل الابتدائية. تبلع لسانك، فيما أذناك تصغيان.

* * *

« حين أتيت إليها لم أكن أحمل قناعة كافية، أردت أن أماشي رمزية في قناعتها ولهفتها، كي تصنع لي شيئاً ما يروي ظمئي، لكن إجراءات الحاجة عائشة الحافلة بالتعب حملت لي بروقاً وأماني.»

* * *

حملت دفتر النشرات، وأخذت تلقي عليك بتوجيهاتها الشحيحة:

عليك أن تنتظر رمزية حتى تنظف، ثم تعد سبعة أيام، ثم تبدأ:

نشرة تشربها، ونشرة تحرقها وتنشق دخانها، ونشرة تنقعها بالماء، ثم تغسل الحسام المسلول، قبل أن يستقر في الأرض. يجب أن تكرر العملية ثلاثة أيام متواصلة، ثم تتوقف. والحاجة عايشة «يا ولد سيده» لا تفعل شيئاً من رأسها. دفعت لك الكتاب المفتوح، ثم تذكرت أنك قد لا تكون على وضوء، فجعلتك تنظر إليه بعينيك الزائغتين، دون أن تستطيع تمييز حرف واحد من الأحرف.

وأنت يا سالم تزحف إلى مجدك، يقتلك التردد والخوف والعياء، تنتظر اليوم الذي سترى فيه جنازة القمر.

في كل احتضار قمري كان يموت في صدرك شعاع عمره شهر، ومع ولادة قمر جديد؛ كان ينبثق الشعاع برّاقاً؛ ليضيء في داخلك مساحة من الأمل.

سألتها بعد احتضار القمر الأول دون أن تتكلم؛ لقد صنعت السؤال بفتلة من يدك فقط. أجابت:

- **ما بقي غير يومين.**

- **كيف؟.**

وقد أعدت فتل أصابع يدك الخمس أمام عينيها.

- **هذي المرة غير كل المرات.**

- **معقول؟!.**

أردت أن تصدق، لكنك رأيت رمزية في غفلة منها تعتصر بطنها، وتمسك بخاصرتيها، وتسند ظهرها إلى الجدار، هي هي طقوس جنازة القمر؛ التي عاصرتها منذ أن عرفت رمزية.

* * *

« ورمزية يا سالم مصابة بعسر الطمث. وعليك أن تراعي حالتها النفسية، ربما نفرت منك، وربما أرهقتها رائحة ثيابك، وربما عبرت عن إرهاقها بفعل طائش، كل ذلك ينبغي أن تحسب حسابه».

* * *

وتسأل الطبيب عن السبب، فتعلم أنك بريء من دم يوسف، وعليكما الانتظار. إلى متى؟ هذا ما عجز طبيبك عن الإجابة عنه.

تتذكر قول الحاجة عائشة، النتيجة قد لا تكون سريعة كما تتوقع. والمسألة ليست جرة قلم. فهناك أبراج ونجوم تتحرك، وتتباعد وتتقارب وتتعانق، ولا يدري أحد غير الله متى يقترن برج رمزية مع برجك. عند ذلك تنبثق السعادة في كل اتجاه، ويندلح الفرح مثل مطر الكوانين، ويضيء في بيتك قمر لا يلبث ضوءه أن يعم، فيقتل ليل وحشتك، وسهادك وأرقك.

بعد مرور يومين، أكّدت لك رمزية أنها لا تزال نظيفة طاهرة، غير أنها اعتذرت لك عندما أبديت رغبتك في مواصلتها، لا لشيء سوى أنها متعبة، وأن شيئاً ما يلعب برأسها،

فيجعلها تدور وتدور، وأن شيئاً آخر يلعب بمعدتها، فيستحثها على أن تلقي بكل ما في جوفها إلى الخارج. وأخذتْ تترنح، وأخذتَ تترنح معها. ظننت نفسك تحلم، فأخذت تهزها كما كنت تهز شجرة التوت التي تملأ دار النصيرات في المجدل . وكانت الشجرة تجود بكبوشها الوردية، فهل تجود رمزية؟. فطنت إلى خطورة هذه الحركة الطائشة؛ التي قد تخلخل التربة حول بذرة بدأت بالإنتاش. وأقبلت تصلي قبالتها بخشوع، وآلاف الملائكة تبارك صلاتك. وهي واقفة أمامك مثل حائط آيل إلىّ التصدع. تتلقفها بيديك، وقلبك ، تندفع من بين يديك إلى الحمام، دون أن تنطق بكلمة، تهم أن تنزلق وراءها، توصد الباب دونك، وتسمع بحلقك المفتوح : طق ... طق. ثم بعد ذلك صوت إقياء متواصل. أخذت تتابع الصوت بشغف، مثل من يتابع لحناً خالداً... سيمفونية من خالدات بيتهوفن.، وحين خرجتْ، قدتها إلى المغسلة بخشوع الحنفاء أو كما يحتفى بالملوك، ثم قدمت لها المنشفة بالطقوس نفسها، وقدتها إلى الفراش، مغموراً بالسعادة والأحلام. هل تقيأت رمزية بالحمام فعلاً؟. وهل كانت تعيش الحالة حقيقة؟ هذا سؤال لم يخطر لك على بال. لقد كنت مأخوذاً بالحلم من رأسك إلى أخمص قدميك، لم تعد تدري ماذا عليك أن تفعل، لأول مرة ترى نفسك مغموساً بهذه المهمة الحافلة .، ترشح دفئاً وحناناً، وتختال مثل طاووس. ويلعب برأسك كل نبيذ العالم. درت حول الفراش دورتين، ثم اقتربت منها تسألها ماذا تشتهي من هذه الدنيا، في هذه اللحظة النادرة،

توسلت لها، أبلغتها أنها الآن في ليلة القدر، وبلا مراسيم ولا مراسم أعلنتها ملكة منذ اليوم، وأنت وزيرها الذي سيتولى شؤونها **«شبيك لبيك»**.

أخذت رمزية مسارات جديدة، صارت أكثر صمتاً، وبدت جافة مثل ليمونة نزّ ماؤها، ثم انغلقتَ مثل باب حجري. وأنتَ تعالجها، تواقفها، تقرأ لها: **«قل أعوذ برب الفلق»**. تستنطقها. تظن أن الحياء والدوخة يمنعانها من البوح.

- **يا رمزية قولي، لا تستحي.**

ورمزية تحيلك إلى تمثال خرّش وجهه المطر، تجيبك بزم الشفتين، وانغلاق الروح.

لم تعد تطيق صبراً؛ اندفعتَ تشبر أسواق طبرق التي انفتحت أمامك بازدخارها بالأشياء، لكنها جميعها عجزت أن تملأ عينيك النهمتين، ورغبتك المستعصية في فتح ثغرة في فم رمزية الذي انغلق فجأة مثل مغارة سحرية:

« أين بسمتك الحلوة يا رمزية؟!... وأين كلامك الذي أحلى من العسل؟!».

وشهدت طبرق حركة عجيبة ومحمومة، يحكمها النزق والقلق والحيرة. من سوق العجاج حيث البضاعة المكدسة من كل صنف ولون، إلى سَوق القزاز حيث الخضرة والفاكهة التي لا تخطر

لك على بال. إلى سوق الحفرة حيث اللحوم بأصنافها الأبيض والأحمر والسمك. إلى سوق الشعب رقم واحد فسوق شاهر روحه. لم يبق إلا سوق التوانسة حيث يبيعون هناك البضاعات المهربة والنادرة. ومع ذلك فقد وجدت نفسك تغزوه، لعلهم قد هربوا شيئاً يليق برمزية. تريد أن ترضيها؛ وقد حققت لك حلمك آخر النهار. ينبغي ألا تلد رمزية ولادة مشوهة، عليها أن تبوح بما تشتهي ولو تحت الضرب. نعم تحت الضرب. فمن غير المجدي أن تظل ساكتة مثل حجر مرمي، على حين تشتهي ألف شيء وشيئاً .. هي مسؤوليتك أنت أن تستنزف حجريتها وصمتها الطارئين .

تشتتت، أصبحت عشرين سالماً، أقسمت أنك مستعد أن تذهب إلى طرابلس؛ إن لم تجد ما تشتهيه رمزية في طبرق. ليس الحرمان من الطعام هو الذي يشوه المولود فقط، حكت لك أمك الحكاية يوم كانت توحم بك:

« رأيت شجرة الرمان بحاكورة الجيران والأكواز متدلية مثل القناديل، وواحد من هذه الأكواز مفلوق، وحبات الرمان تبرق صافية... صافية مثل حب اللولو. اشتيهت آخذ كوزاً، وأفرط حباته، وآكله، استحيت، وما حكيت لأبي سالم ، طلعت على

جبينك بعد ما خلقت بقعة حمراء، ظلت تلعب فيها الشمس والريح مدة طويلة، وصارت تمتد على كل وجهك .أخذتك إلى عـارف، بيّت لك. تبين لعارف أنه لا يشفيك إلا زهر البركـان، وزهـر البركان يا حبيبي بعيد عن المجدل، قطع أبو سالم مـسيرة يـوم كامل بالربيع صوب الشرّق، حتى وصل أرض البركان، وجمع كيساً من أزهار البركان البنفسجية، وظليت إسقيك مـن منقـوع زهر البركان، حتى منّ الله عليك بالشفاء».

عدت من رحلتك تملؤك النشوة:

- رمزية! قومي يارمزية!.

جلست رمزية بتثاقل، أخذت تلف جذعها بالبطانيـة، وهـي تنظر إليك نظرة مواربة، تخطف بصرها عنـك حينمـا تلتقـي عيونكما، تتشاغل بالشرشف الذي يغطي رأسها. رميت حملـك بين يديها وأنت تشتعل، كمن أدّى رسالته بأمانة. فجـأة وجـدتْ رمزية طبرق تتكوم أمامها؛ بسلعها المختلفة... بثيابها وأقمشتها ... بخضارها وفاكهتها وعطورها، وأدوات زينتها. طبرق التي اتسعت تتجمع الآن أمامها، تغدو في متناول يدها.

ابتسمت ابتسامة جانبية مقتضبة، أطلت البسمة من بين الغيوم المتكاثفة في ذلك الوجه الليموني؛ الذي فقد نضارته وإشـــراقه. وأخذت يدها تعبث بالأكياس بتثاقل ظاهر. ومع ذلك فقد تعتعتك النشوة، ، كنت تعزو ذلك التثاقل إلى حالتها الطارئة:

- **والله بحقلك تدّ للي يا رمزية.**

أخذت تبحث في أرجاء طبرق عن شاطئ آمـــن، يـستوعب الصغير، توجهت أولاً إلى رأس طبيرق، ذلك الشاطئ الهـــادئ، البعيد عن ضوضاء المدينة. هناك يـستطيع فهـد الـصغير أن يخوض فيه إلى ما فوق الركبة دون خوف.

لكن هاجساً ما أقلقك:

* * *

« مجنون أنت يا سالم! والله مجنون. رأس طبيـــرق هـــذا الملـيء بالصخور النافرة ؟ !. ألم تجد غيره، ؟!. كيف تغامر بثمرة حياتك بكل غباء؟!. رأس العودة أكثر أمناً، والناس فيه أقل، والشاطئ هناك رملي ضحل، يستطيع فهد أن يلعب فيـــه كيفما يشاء.»

* * *

فجأة عبر فهد الماء، رأيته بعينيك ينساق نحـــو ذلـــك الثـــبج الأبيض الجم .، تغريه اللجة، فيندفع نحوها بلا هوادة كسهم فقد

صلته بالقوس. تهرع أنت نحوه بثيابك، دون أن تتمكن من إدراكه، كان فهد يشق الماء مثل سمكة طائشة، وأنت تتحول إلى صياد، سمكة ببحر، وليس معك شبكة ولا صنارة، ولا طعم. شهقت لصقوعة الماء، فذعرت رمزية:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

- ما رأيك يا رمزية ! نظل على فهد ولا نغيّر؟!.

- وكل الله يا رجال ! يعني خلص؟. صار الولد بالكيس؟ ادع لي حتى قوم بالسلامة، والاّ الولد أغلى؟!.

- احرجتني،انت غالية، لكن فهد يا رمزية.

- قلها يا سالم! قلها ولا تستحِ. ثم هزّت رأسها: رجال مثل الغربال.

- بدأنا بالغيرة.

ارتدت يد رمزية إلى صدرها بعنف أرهقك، لم تتوقع رد الفعل هذا، كل مهارتك فشلت، تلاشت قدرتك. وقفت عاجزاً عن أن تعيدها إلى هدوئها. ما الذي حدث؟!. ماذا فعلت ياسالم؟!. كيف اشتعل الفتيل الصاعق، وأنت تقف ذاهلاً، باهتاً مباغتاً؟ داهمتك هذه العصبية، وهذا الجنون المفاجئ الذي لم تعتده من رمزية من قبل.

لم يكن لك من ملجأ إلا الحاجة عائشة، رمزيـــة هـــي مـــن ربطتك إليها، أوثقتك إلى شـــمعدانها، ونـــشراتها، وطقوســـها، وجعلت منها قدراً.

* * *

« والحاجة عايشة يا سالم تمتلك قـــدرة خارقـــة وتكـــشف المستور وتقرب القلوب، وتفعل ما لا يستطيع أن يفعله البشر »

لكنها لم تستطع بكل ما تملكه من براعة ووسائل متعددة أن تعيد شيئاً ما إلى ما كان:

* * *

ـ يا حاجة عايشة ! ما كانت رمزية هيك! كانـــت مثـــل الـــشهد بالعسل، جنينة ورد كانت يا حاجة عايشة.

أظهرت لك الحاجة عائشة أن هذا التغيير شيء طبيعي عند كل النساء في فترة الوحام، وأنت جديد على المهنـــة، المـــرأة عندئذٍ تنفر من زوجها، لا تطيق رؤيته، لا تـــستطيع أن تـــشم رائحة ثيابه.

وأنت صدقت، وركنت للواقع المر، وعـــادت لـــك روحـــك الهائمة، واستأنفت صلاتك في محراب رمزية بخشوع واطمئنان.

* * *

خيبات

كم كنت متسولاً أمامها، وكم كنت محموماً لاهثاً، مقتفياً أثر ولد عبْر بحرٍ من سراب، سراب تأخذك أمواجه الكاذبة حـــد رمزيـــة، فترتطم ببطنها الخاوي، وترتد منقلباً على قفاك. ما أنـــت الأول ولا أنت الآخر؛ فلمَ هذا التشتت الذي ينتابك كلما نظرت إليها؟!.

كل شيء تغيّر فيها ما عدا بطنها الـــذي مـــا زال يلتـــصق بظهرها مثل صائم الدهر، يعلن خواءه الأبدي.

تشعر بالذنب يقتات قلبك، هل أنت مذنب حقاً؟ وما ذنبك في أنها لم تتناول الطعام اللازم الذي يكفل نمو طفلـــك، تـــتكلم وكـــأن الطفل لك وحدك، وكأن رمزية قد غدت وعاءً، مستودعاً لأطفالـــك القادمين من الغيب. هي إذاً تعذّب نفسها، وتتعمّد أن تـــضعك فـــي دائرة الخوف والقلق الدائمين، وما كانت رمزية يوماً مصدر قلق أو خوف، فما الذي تغير في هذا الكون؟! ما الذي انتابهـــا؟ عليـــك أن تفتش عن السببَ، ربما كنت أنت من حيث لا تدري. أو ربما هنالك سبب تجهله. يحدث أحياناً أن يعاقب الإنسان نفسه لـــذنب اقترفـــه؛ فهل كانت رمزية مذنبة؟ أهي تحاول أن تجلد نفسها؟!.

إنها حامل؛ يجب أن تتناول طعاماً يكفي شخصين اثنين. أجل هما شخصان فعلاً؛ هي وفهد، أليس فهد شخصاً؟! فهد أيضاً صار من أفراد العائلة، أضفت اسمك له، وأنزلته في دفتر التفقد، والسجل اليومي للمصروفات، وأفردت له ميزانية خاصة مثلما أفردت له جانباً في قلبك، صار يزاحم رمزية... يساكنها الشغاف، يؤاكلها، يقاسمها قلقك، ورهقك، ومشروعك الأبوي كجزء من مشروع وطن، وطن، تنتمي إلية بالأصالة عن نفسك، وبالنيابة عن ابنك القادم من الغيب، ليضيف إلى جنود الوطن رقماً، أو ليضيف إلى حشم القصور خادماً طيّعاً ألين من الخاتم في إصبع العروس، وأضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. فيزورّ عنك الوطن، لافظاً أبناءه الأعزاء كما تلفظ بندقية طلقاتها . فارغاً يلفظك، ثم لايلبث أن يعبئك من جديد، لتعود إلى جعبته مقذوفاً طازجاً، مقذوفاً في مخزن رشاش في حالة استعصاء دائمة، مهيأً لمعارك خاسرة.

ما أقساه وطناً يحاول بناء أمجاده خارج الحدود، ويبحث عن ضالته في الأماكن المضيئة، مع علمه أنه افتقدها في أشد الأماكن حلكة.

حديثك معها استجر الوطن البائس إلى دائرة همك، وأنت ـ كما يحلو لك أن تعلن دائماً ـ صاحب قضية، وقضيتك متعلقة بهذا الذي في رحم زوجتك رمزية.

- كلي يا رمزية، الأكل ضروري.

- ما لي نفس، نفسي صادّة.

- يا رمزية ببطنك ولد؛ ولازم يتغذّى.

تنتفض رمزية، تتقد عيناها كما لم تتقدا من قبل .

- قلها من الأول وريّحني.

- شو؟. زعلتِ؟!.

- كل شي الولد، الولد. من اليوم صار الولد أهم من رمزية؟

- بالعكس! إنت الأهم، إنتِ أم.

تدخلك رمزية في مسائل شائكة... بمنطق جديد، أنت تسعى لتزيد هذا الجيش المغرّب نفراً.

أين ذهبتِ بي يا رمزية؟، تخاطبها بكل ما في قلبك من حميمية، وأنت تعتبر الإنجاب مهمة وطنية. آه... آه... إلى متى يلاحقك هذا الوطن؟!. وآه... آه...ماذا يبتغي الوطن منك بعد أن أقصاك بعيداً؟!. وكيف تستطيع إقناعها أن الإنجاب والتربية مهمة وطنية؟.

تقترب منها، تلامس فرعها الليلي بيد مرتجفة، تطوقها، تشتهي أن تقبلها... أن تلتحم بها... أن تتحدا معاً، تكتفي بأن تخلع قبلة على جبينها:

- اسمعي يا رمزية!

تنظر إليك... توغلُ في الإصغاء.

- هناك ناس يخلفون حرامية وزعران، وهناك ناس يخلفون أوادم.

تنظر إليك كأنها تحاول اكتشافك. تبسّط لها فلسفتك: ينبغي أن يكثر الصالحون على حساب السفلة من أبناء الوطن. ... أن نخلّف أولاداً يجعلون الوطن رابية خضراء، لا مزبلة نووية. تختتم محاضرتك بإعلان هام:

- اليوم، اليوم ينبغي أن نذهب إلى الطبيب حتى نطمئن.

تجفل لذكر الطبيب، ينتابها ذعر وحشي، حالة ما؛ تشبه الصدمة، تنظر إليك، تحاول أن تصوغ عبارة الرفض الرادعة، تقتنع أخيراً أن لغة العيون أكثر قدرة على الرفض. تفتحهما، تظهر المساحات البيضاء الشاسعة، تبدو العينان متّقدتين مع ارتفاع الحاجبين إلى أقصى مدى لهما، ما تزال أنت تفكّر في هذا الفزع المفاجئ، الذي أحدثته فكرة زيارة الطبيب. هي زيارة طبيب لا استدعاء أمني. فلمَ الفزع والقلق والاضطراب؟ تتمنى أن تكون قادراً على اقتحامها... أن تتغلغل إلى الداخل، لكنها قررت منذ زمن أن تقفل كل المعابر المؤدية إلى تلك القلعة... قلعة يسكنها الخوف والغضب والرغبة في التحدي. من أين لرمزية كل هذا العناد؟ وهي الأليفة كقطة شامية؟ الودود كفرس. ولمَ هذا الإصرار من جانبك أنت؟ برز السؤال فجأة. هل تشك لحظة في حالة رمزية؟ في صدق حملها مثلاً؟. أتخاف على رمزية أم على فهد؟. ما معنى رمزية الآن دون هذا المشروع

الأبوي؟!. هل فكرت يوم أخذتك من شريانك في أول لقاء لكما في هذا المشروع الحيوي؟. أخيراً ماذا لو لم يكن هناك فهد؟ أكنت تندم على ذلك الوهج الذي امتلأ به قلبك، وذلك الهواء النظيف الذي عبّأ رئتيك جرّاء عثورك على كنز اسمه رمزية؟.

سؤال آخر قطع لهاتك، وأوقف الماء في بلعومك؛ ماذا لو مات فهد على الطريق جرّاء عناد رمزية الطارئ؟.

تختنق أمامها دون أن تستطيع أن تلمّ نفسك. من جانبها تتحسس السؤال الحار الذي ينغمس بين لسانك وشفتيك، تبدّل من تعسفها؛ كأنها تعود إلى طبيعتها البكر؛ تلين كمهرة عربية، كأن يداً من أيدي الرحمة امتدت إلى ذلك القلب. ينقلك لينها بعد جموح إلى المجدل. ترى إلى أبي سالم كيف كان يربق العجلين بالنير، يتسرّب إلى أذنك ذلك النداء العجيب :

«**يا علول... يا مجول... طيع لله والرسول**». فيطيع العجلان بعد صلف كما تطيع رمزية بعد شموس:

- **طيّب يا سالم، تيسّر على المدرسة، والمساء على الطبيب إن شاء الله.**

* * *

يستقبلك عبد العزيز عثمان بابتسامة باهتة، يحدثك عن أحلامه وطموحه، فتحدثه عن همومك ومتاعبك، تقصي رمزية وأنت أمامه؛ فالهم هو الهم الأكبر، كلاكما زفرة وطن ذبيح، بسكين

أعدائه مرة، وسكين أبنائه مرات. يوهمك أنك أكثر سعادة منه، وأكثر تماسكا. وأكثر تمتعاً بوطن يقتلك مرتين؛ مرةً جوعاً فيه، ومرةً شوقاً إليه. أنت لك أرض وبيت، وهؤلاء لا أرض لهم ولا بيت. يأخذك إلى أسدود الغافية في جفن البحر، فتأخذه إلى المجدل الملتحفة في حضن جبل. يمتد بينه وبين أسدود حبل من الذكريات، يفتح لك سفراً من تاريخ أسدود يوم عمّرها العماليق إلى الشمال من عسقلان، وصاروا يصطادون العبرانيين كما تصطاد الكلاب، وحين جاء العبرانيون بعد دورة التاريخ تبادلوا الأدوار مع أهل أسدود، لتصبح وفق تسمياتهم أشدود. يا لها من مهزلة التاريخ.

ينظر عبد العزيز عثمان إلى ساعته، يهب واقفاً:

- **عندي فصل.**

وأنت أيضاً لديك فصل، والبنات ينتظرنك؛ لا لتشرح لهنّ درساً في الأدب واللغة، بل لتشرح صدورهن بقامتك الباسقة، وعينيك الخضراوين. العيون الخضراء في طبرق عملة صعبة، يتداولها البنات سراً في السوق السوداء؛ كما يتداول الشباب الحشيش. منذ أيام وقّعتَ وثيقة عصيانك على قدميها، وختمتها بصوتك الجهوري. كنت تجلس على كرسيك أمام المقعد الأمامي، تنتابك حالة تاريخية باذخة، تتابع تارة مع المتنبّي ما جرى في الحدث الحمراء؛ يوم سقتها الغمائم والجماجم، وترقب

طوراً جيشاً من الرعب في جحفل لجب مع أبي تمام، وتكاد تبعث عمورية والحدث الحمراء من البلا، ينتفخ صدرك، تتشظّى مزقاً من أمة فقدت أمجادها في ضحوة النهار، لعل ألسنة اللهب تصل إلى صدور البنات، وبملء فمك وانتفاخ صدرك تهدر:«**هل الحدث الحمراء تعرف لونها / وتعلم أي الساقيين الغمائم ؟!**».

وتمضي بك اللحظة التاريخية الباذخة إلى عمورية:«**يا يوم وقعة عمورية انصرفت**». فتنصرف رجل مبروكة لتطأ رجلك. تحت الطاولة تمّ ذلك ولا من رأى. تصلك اللحظة بلقطة من مسلسل مصري؛ طاولة ومعلم وطالبة، وحديث بالأرجل تحت الطاولة. فجأة تنتفض مثل طائر بلله المطر، ترى أن هيبتك أصبحت في خطر، وأن التربية بخطر، وأن محمد جمعة يرقبك من طرابلس؛ يوم أعلن في خطبته العصماء: «**سوف نسلّمكم أغلى ما عندنا؛ أولادنا أمانة في أعناقكم**».

تنتهرها بقدمك، برجلك تقذف حذاءها بعيداً فتغدو قدمها عارية. وتتحول الحصة إلى درس في الأخلاق .

تفتقدها في الأيام التالية، مكانها فارغ، لا يشغله أحد، تحاول أن تسأل رفيقتها عنها، تلقاك بعد أيام عند باب الفصل:

- **أستاذ ! نه[1] متأسفة. ما نقصدش.**

---

(١) نه : أنا.

تظهر تسامحاً، ترسم على وجهك ابتسامة، تهم أن تدخل الفصل بعد أن تشير إليها بالدخول، لكنها تتلكأ :

- نه عندي مشكلة.

تسألها بعينيك، فيما تشكل شفتاك منطبقتين حالة تحفز مثير، تنوب زميلتها في بسط المشكلة باختصار:

- المشكلة في باته[1].

هل عرف أبوها بتصرفها؟! من نقل له ذلك؟!. تستخدم رأسك هذه المرة في الاستفسار. تقول لك إنه منعها من متابعة الدراسة.

يسقط في يدك، تأسف لتعسفك في تلك الحصة، ماذا لو استوعبت الموقف؟!. لكنك تنفرج عندما تتابع البنت: إنه يرى أن تعليم البنات حرام، لن يعيدها إلى المدرسة إلا إذا استند إلى نص شرعي؛ يقنعه أن تعليم البنات حلال وليس حراماً.

هكذا تجدك في مواجهة النص؛ مواجهة ليس فيها خصومة، ولا تحد، إنها مواجهة فهم، واجتهاد من أجل الاتحاد في روح النص قصد استيعابه.

ثمة من يرى النص مستبداً قاسياً لأنه يتعامل معه تعامله مع صبة بازلتية أزلية، وثمة من يدرك أن للنص مفاتيح وأقفالاً، وما لم تمتلك المفتاح فلن تستطيع الدخول. عليك إذاً أن تفتش عن المفتاح، أن تستقرئ ثقافتك، أن تفلسف النص.

---

(١) باته: والدها.

هل تدرك مبروكة أنك تخوض في قاعة المدرسين معركة هوية، وعليك الآن أن تخوض معركة نص؟ وما بين الهوية والنص ريح هوجاء يا سالم بن يوسف النصيرات، ريح تأخذك ذات الشمال تارة، وذات اليمين أخرى، وأنت تتقاوى، ترفع هويتك، تهزها أمام النص، لكن المشكلة في التأويل، عند ذلك تجد من يضعك خارج حدود الله.

- **والمطلوب مني؟!.**

تسألهما. تقول رفيقتها:

- **نبّيك[1] تقنع باته، يبي[2] شاهد.**

- **شاهد؟!.**

* * *

«ولماذا أنا من بين خلق الله في هذه المدرسة؟!. أنا يا مبروكة؟!. وإذا علم والدك أنني من أولئك المربوطين بفتاوى ابن تيمية؟. المشنوق بين أغلفة الكتب الصفراء؟. ماذا تراه سيقول؟ أيمكنني إقناعه ولو اتخذت كتاب الله ،وكل الكتب السماوية دليلا ؟»

---

(١) نبيك: نريدك.

(٢) يبي: يريد.

تحاول التجذيف في ذلك التيار المشاكس، ويداك مغلولتان إلى عنقك. لا ينبغي أن تقهرك قوة التيار، ولا صقوعة الماء. تدخلها الفصل، وتبدأ درسك، تتحول الحصة من فقه في اللغة إلى فقه في الدين، تعتزم المواجهة، مواجهة العقل المكبل بالسلفية، المختوم بالكتب الصفراء والشمع الأحمر، تقرر صياغة إجابة شافية، تفتح الكتاب. تصوغ رأيك مكتوباً، تبادر في اليوم التالي إلى قذف الكرة أولاً إلى الملعب الآخر، تصطحب عادل عبد الجليل مدرس الدين، تقفان بالباب، لا يطول انتظاركما حينما يبرز لكما. تدركان أية مهمة عسيرة قذفتكم مبروكة باتجاهها، رجل بلحية انفلتت حتى الصدر، يحملك لدى أول نظرة إلى عدة قرون خلت، تشهر هويتك، تلك الخشبة التي ما زلت ترفعها على عاتقك:

- انا سالم يوسف النصيرات... من السويداء.. من سوريا. وزميلي الاستاذ عادل من مصر.

يفاجا الرجل... يرحب بكما... تدخل في الموضوع بلا مقدمات: «أعطوني أنتم شاهداً واحداً يثبت تحريم تعليم الأنثى، ويجرّمها بجريرة أنها متعلمة، تذكّر بأن «**ربك الذي علم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم**» والإنسان الذي أراده ربك ليس رجلاً فقط، إنه الذكر والأنثى، تدخل في فقه اللغة،

تغوص في الأمثلة والاستشهادات «**ومن يعمل من الصالحات من ذكر وأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة**» صدق الله العظيم. تنتقل إلى فريضة طلب العلم في الحديث، تستحضر السيدة عائشة وسكينة بنت الحسين، تسخّر كل ثقافتك الإسلامية من أجل أن تثبت أن الأنثى كالذكر، وإذا كان للذكر مثل حظ الأنثيين؛ ففي الميراث لافي العلم.

* * *

أعود إلى رمزية منهكاً مكدوداً، معركة أخرى عليّ أن أخوضها، لكنها من نوع آخر، وهي بطريقة ما معركة إثبات الذات؛ عبر ولد يحمل وهجي، ويسري به دمي.

ما الذي جعلني أحس بالكارثة قبل أن تقع؟ أهو قلبي الواجف على شرفات ولد سيصبح اسمه فهداً؟. لقد أدركت الكارثة من اهتزاز القلم في يدي، من اهتزاز الكرسي تحتي، من الخفقان الذي أخذ يعالق القلب، ألم يقولوا إن دليل المؤمن قلبه؟ أم تراه ذلك الغراب الذي أخذ ينعب في كل اتجاه؟ أثقل أذنيّ واقتحم عليّ الفصل؟.

كان ما يزال أمامي حصتان، والنهار ما يزال يمتد أمامي جدولاً من الضياء، نهراً من الفضة، غير أنيّ فجأة تسربلت بالألم، لم أستطع أن أتبين شيئاً من النور الممتد في الآفاق، فقط

امتد بصري إلى ذلك النفق المعتم الرطب، الموغل في الوحشة والكآبة. أطبقت دفاتري، وحملت حقيبتي، وطلبت إذناً إدارياً، وانصرفت لا ألوي على شيء ولا ألتفت إلى أية ناحية، ما عدا تلك التي انفتحت فجأة.

بآلية قاتلة توجّهت إلى السيارة، وبالآلية نفسها فتحت الباب، وتكوّمت خلف المقود، ثم مددت يدي إلى المفتاح؛ أدير المحرك دونما هدف محدد، أضع يدي على ذراع السرعة. أضغط برجلي على مبدّل السرعة، أريد أن أدفع بالذراع إلى الأمام، لكن يدي تتراخى، وتتراخى معها الرجل، وأنا أصغي إلى ذلك النغم الهادر، أتشتت في البحث عن مصدر هذا الدويّ، من غير المعقول أن يكون ذلك دويّ المحرك. أغمض عينيّ، أنكفئ بوجهي على المقود، عندئذٍ أرى رمزية تقف لي بالباب؛ تمد لي لسانها، سخرية أو شماتة لاأدري. ترفض دخولي إلى البيت. وبلحظة نزقة أقرر أن أستخدم سلطتي كزوج شرقي؛ إذ ليس الأمر بيدها، يجب أن تذهب إلى الطبيب الساعة؛ ولو اضطررت إلى ضربها. عند هذا القرار أقلعت بسيارتي متجهاً إلى البيت.

نائمة وجدتها، عيناها تحت اللحاف تنسجان شتاء حاراً، وحين فتحتُ الباب تحركتْ حركة تشف عن وهن، رفعت اللحاف، كان العياء يلف وجهها، غيمة أمطرت كل مائها كانت، بدت دموعها مقنعة إلى حد كبير، رأيت فيهما فزعاً، وقرأت مأساة ما. ارتسم

أمامي ولد، عبر بسرعة فائقة، يتدحرج أمامي كعجلة نحو منحدر سحيق، لم أتمكن من اصطياده، فبندقيتي لم تكن مهيأة للإطلاق، لكني رأيت بين عينيه علامة؛ الختم نفسه الذي ذكرته الحاجة عائشة يوم زرتها في المنارة، هو نفسه الذي حوّل فهداً إلى سمكة، وغابت السمكة في ذلك الثبج الجم، لم اقوَ على سؤالها، ولم يخطر لي لحظة أنني زرعتُ في أحشائها وهماً، غيماً كاذباً وبرقاً خلباً، جاءت به رمزية لعلي أسكن إليها ريثما يقضي الله أمراً كان مفعولا.

* * *

طالما أرّقك ذلك الامتشاق الذي لا ينبئ بعناء، صفصافة وارفة كانت، لا يثقل أغصانها ثمر، وطالما تطلّعت إلى تبدّل مفرح في هيئتها... في تكوّر بطنها... في مساحة وجهها، لكنها أبداً كانت هي هي، لا كلف حمل على الوجنتين، لا إرهاق في المشي والقعود، لا ثقل في التحرك، غزالة رهيفة، ونسمة طرية، وقارورة مسك ليس غير.

غير أنك كنت تبصر في عينيها النديتين شغفاً بشيء ما، حسرة تطل برأسها على غفلة منها، تواريها بابتسامة زائغة، بانصراف إلى جادة أخرى؛ بعيدة عن الهم الحقيقي الذي يساكنها منذ زمن، ويلف الجسد الذي أعلن تمرداً على كل ما من شأنه أن يجعلها أماً كباقي النساء من خلق الله. وتراك مندفعاً لمساءلتها:

- في شي جوّا غير طبيعي.

- كيف يعني؟

- إنتِ مش إنتِ؛ قلق، خوف، شو في؟!.

- ما في شي.

- على هامان يا فرعون؟!. رمزية وأعرفك.

كانت ماهرة في إقصائك عن هذه الساحة من شعورها، تختلق لك مسرباً، تأخذك من معصمك إليه، فتجد نفسك أمامٍ حالة أخرى من حالاتك الخاسرة.

فاجأتك تلك الحالة التي كانت عليها رمزية يوم عودتك من المدرسة، كنت تنوي أن تدخلها في دائرة المشكلة التي نويت أن تتصدّى لها في المدرسة. فإذا أنت أمام مشكلة أخرى؛ هي مشكلتك أنت هذه المرة. وإذا كانت مبروكة قد وجدت فيك من يقف معها، ويساهم في حل مشكلتها، فمن تراه ذلك الذي سيندب نفسه ليقف معك؟ وهل بإمكان أحد أن يساهم في حل مشكلة هي ليست بيدك ولا بيد رمزية.

غلبتك دموعك التي انفجرت جدولاً، وأخذتَ تتشكل أمام رمزية بطريقة رخوة. قوي أنت في المدرسة أمام طالباتك، قوي في قاعة المدرسين أمام ذلك الجمع غير المتجانس، قويٍ في حجتك أمام الآخرين، لكنك ضعيف أمامها، هي المرأة إذاً.

- أتبكي يا سالم ؟!.

* * *

أردت أن أسألها لماذا كان الطريق قصيراً إلى هـذا الحـد؟ ارتددت إلى داخلي الخاوي، وأخذت أنتحـب بـصمت «ومـاذا ينقصني كي أصبح أباً مثل كل الرجال الذين يفرحون بأولادهم؟ يلعبون معهم، يضربونهم، يرسلونهم إلى السوق، يرسلونهم إلـى المدرسة» صغت سؤالي بطريقة عجيبة:

- **يعني ممكن؟!... مرة ثانية.**

قالت لي:

- **الشجرة إذا أثمرت مرة... تثمر عشرين مرة.**

* * *

في مضارب بني هلال

حين تجاوزت حافلة النقل العربي مدينـــة بنغـــازي باتجـــاه الشرق، انقطعت كل صلة لكما بالمجدل، لكأنكما في جنود طارق بن زياد بعد عبوره البحر. ظنت رمزية أنها غدت في عالم آخر، لا علاقة له من قريب ولا من بعيد بما عهدته فيما مـــضى مـــن حياتها، سماء جديدة تنتظرها في هذه الفلاة الـــشاسعة، ولا مـــن يجيب نداءها إذا ما زفرت، أو تنهدت، أو ضـــجرت. ملهوفـــة سألتك حينما أصبحتما على مشارف طبرق:

ـ في دروز بطبرق؟

عند ذلك أدركت أن رمزية قد تعسفت في قرارها ذاك، عنـــد إلحاحها لتنفيذ هذا النزوح الدامي، وما دامت رمزية قد ابتدرتك بهذا السؤال؛ فهي لا تزال تحمل المجدل بين دفتيها.

أجبتها أنهم ينزرعون في كل شبر من هذه البلاد؛ من زوارة حتى طبرق، ومن بنغازي حتى الكفرة وسبها.

كنت تعلم أن رمزية ستجد المجدل أمامها في طبـــرق؛ بكـــل توهجها وبرودها، وكل سخائها وشحها، وكل اندماجها وتفرقها.

فجأة برز أمامك وأنت في طريقك من أمانة التعليم، كنت تائهاً تسأل، جذبته لهجتك السورية الجبلية، فوقف أمامك. شجرة في صحراء كان، وأنت تنشد ظلالها، جرعة ماء في مفازة، وأنت تستنزف قطراتها قطرة قطرة، غيمة تستمطرها برداً وسلاماً:

- الأخ سوري؟

قالها بلهجتك الجبلية المحببة، لم تستخدم لسانك، ولا شفتيك، أجبت بهزة رأسك، وانفراج أساريرك، وهفوة قلبك.

- أخوك عابد مسعود الحمصي.

هكذا وجدته يقدم نفسه بتلك التلقائية، وهكذا وجدتك تتلقفه... تبادله تباريح الوجد... تأنس لهذه الأخوة الطارئة التي عقدت الغربة لواءها، تهتف عند ذكر حمص بشكوى ذلك المهجري: **يا حمص ! لولا طلاب العيش ما خطرت / بنا السفين ولا رفّت لنا شرع.**

تترحمان معاً على نسيب عريضة وأبي فضل الوليد والشاعر القروي وكل ذلك الطيف من المهاجرين الأبرار.

يدهشك أنه يتكلم بلهجتك الجبلية دون تمثيل، يلفظ القاف كما لو أنه جبلي من تلك الشعاف الشرقية. يلاحظ حيرتك واندهاشك:

- شو مستغرب؟!.

تهز رأسك مستفهماً. يتابع:

- من السويدا مش هيك؟.

عندئذٍ تقدم نفسك على طريقته:

- نعم ... سالم النصيرات.

- من وين؟.

- من السويدا.

- عارف... منين من السويدا؟

- من المجدل.

فجأة أقلع بكما بساط الريح إلى الشام، وحينما أصبحتما في سماء دمشق ضرب كل منكما بعصاه، فإذا أنتما في سوق الحميدية، والجامع الأموي، ترشحان بهاء، ترشان الحب لأسراب الحمام في باحة المسجد، تتقافزان في الردهات والأروقة، تختبئان خلف الأعمدة، طفلين كنتما في عبثكما ولهوكما. إلى أن ذهبت السكرة، عند ذاك نقلك عابد مسعود بلحظة واحدة إلى ظهر الجبل، تعبان من الهواء النظيف، وتشاركان الجبليين جني التفاح والكرز، فإذا الثمار أمامكما أكوام، وإذا كروم العنب تصير دناناً من النبيذ، فيما أنتما تغتسلان بعرق الريان وتبتردان بفيء تلك الأشجار المكتنزة .

أي قدر ساقه إليك في لحظة التشتت تلك ؟!. وأية مصادفة تلك التي طيرت طيرك باتجاه اليمين لتكون أمام عابد مسعود وجهاً لوجه .

أخذك من يدك، إلى سيارته، وانطلق بك إلى أمانة التعليم ،أخبرته أنك قدمت لهم أوراقك قبل قليل، لكنه أصر:

- ضروري، حتى يعرفوا من أنت. أنا أعرفهم جيداً.

ودخل كما لو أنه يدخل بيته. فاجأتك جرأته، إنهم يعرفونه، ينادونه عابد السوري، يحترمونه، وعندما أوصى بك أحد الموظفين بادركما ذلك الموظف:

- **أنتم يا السوريين هكّي**[1].

وأشار بيده كما السيف القاطع. فدارت برأسيكما نشوة، وأحسستما خدراً، وسوف لن يبقى هذا الليبي على رأيه حينما ستشارك بلدكما في التحالف الذي عقدته أمريكا؛ حينما أخذت تجيِّش الجيوش قبيل هبوب عاصفة الصحراء.

لم يتركك عابد مسعود تواجه قدرك منفرداً، لقد مسح على رأسك براحته، ووطأ لك ما كان عصياً، وعبّأ رؤوسهم بك، حتى غدوت مثقلاً بالامتيازات حيث تلقفك بريك الغرياني كما اللقمة في عام القحط.

* * *

ثم ماذا بعد ذلك؟. عاد بي إلى الفندق، فاقتلعنا أنا ورمزية، واستضافنا أسبوعاً في بيته ريثما أدبر أمري في سكن مستقل.

هكذا صار عابد مسعود نافذتي التي أرى من خلالها طبرق، ومن ثم الجماهيرية العظمى من النقاط الخمس حتى امساعد. لقد كان أول سوري يهزني من يميني في طبرق، ويتحمل معي مسؤولية اشتراك قوات بلدنا في التحالف الدولي ضد العراق. لم

---

(١) هكي: هكذا.

نكن على ثقة من جدية جيش التحالف الذي شكلته أمريكا، جيش مؤلف من عرب وترك وأمريكانٍ وأوروبيين؛ خليط من البشر لم يجتمعوا في يوم مثلما يجتمعون الآن لإنقاذ الكويت من فكي صدام حسين، كانوا يبكون على الكويت بكاء مفجوع على عزيز؛ وكل طرف من أطراف التحالف يغني على ليلاه. حشروه، وفتحوا له النافذة باتجاه الكويت ، استغلوا حمقه وأدخلوه عنوة في ذلك المسار، كي يتمكنوا من الدخول تحت غطاء الشرعية الدولية؛ التي اخترعوها خصيصاً لهذا النوع من النفاق. وكان لهم ما أرادوا، لكأن صدام بات ينفذ مخططهم بحذق وبراعة.

* * *

لم تستطع الخروج من جلدك فتتجاهل، والنار قد طالت أذيالك حين اقتراب ساعة الصفر. ها أنت تلازم المذياع، لقد كنت تحسبها بطريقتك الخاصة، إذ لا وقت للهموم الشخصية. لقد جعلتك عاصفة الصحراء التي بدأت في فجر الخميس السابع عشر من آي النار ١٩٩١في حالة من الدهشة والحيرة والارتباك. ما يحيرك أن عرباً وأمريكان وربما يهوداً يجتمعون على طبق واحد، ولهم هدف واحد، مثل هذا التناقض جعل عقلك يقفز من عليائه، ليستقر في كفك، ذلك عندما سمعت المذياع ينقل أن الطائرات الأمريكية والبريطانية والسعودية والكويتية قد قامت بهجوم مكثف على أهداف عسكرية في العراق.

يجافيك النوم وأنت تتنقل بين محطات الإرسال، تبحث عن إذاعة العراق، عن أي صوت يظهر، ردة فعل ما من أية جهة ما، فلا تفلح. الفرح يكاد يطغى على الكثير من المحطات العربية، والتجاهل المطلق ينتاب المحطات الأخرى. كأن عاصفة الصحراء زوبعة في فنجان. وكالات الأنباء تتحدث أن عدد الطلعات التي قامت بها قوات الحلفاء منذ مطلع العاصفة بلغت مئتي طلعة، وقد ألقت من المتفجرات ما يوازي حجم القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما في الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فبغداد في ذلك اليوم لم يبد فيها شيء غير عادي، الناس يشترون حوائجهم، وصدام حسين يسير في الشوارع. لقد رآه الصحفيون والمراسلون يتفقد الناس.

* * *

القلق ظل يأكل راسك، إذ كيف توازي بين ما تقوله الوكالات وهذا الدمار الذي تتحدث عنه الوكالات نفسها، مؤكدة أنه لم يبق أمام سقوط بغداد إلا ساعات قلائل، حينما تزحف القوات البرية باتجاه الكويت.

* * *

من عابد مسعود إلى سالم النصيرات...انعطاف

يطلقك عابد مسعود في دوامة الحسابات والظنون، يراك تحاول عبور ذلك الجسر... حل ذلك اللغز الذي وضعه أمامك، يختصر عليك الطريق، يفتح لك نافذة تستطيع من خلالها أن تقدر لهفته، يفضي لك:

- **جدي مات مقتول بالمجدل.**

يصدمك هذا الإعلان، فيما يتابع عابد مسعود تقاسيم وجهك ... انشداهك... جحوظ عينيك. يسرد لك الحكاية:

* * *

كانوا ثلاثة أخوة لأب قرواني، مات الأخ الأكبر بالجدري التي حصدت أكثر من عشرين ضحية بين رجل وامرأة وطفل، كان المرض ينتقل من حارة إلى حارة، ومن بيت إلى بيت، ولم تستطع أدوية أبي جبار العربية أن تفعل شيئاً في وجه ذلك الوباء في تلك السنة. وقبل أن تجف دموع الأم الثكلى قضى ابنها الثاني بالداء نفسه، هكذا بقي جدي مخول وحيداً لأب يدب نحو نهايته، وأم تنوح ليل نهار. احترق قلب الشيخ وجداً وهو يرى كبده

تتقطع قطعة بعد قطعة، أخذ يذوي كما تذوي شجرة في خريف أيامها، تمنى لو ترك ولداه أثراً وراءهما، لو كحل عينيه بحفيد منهما. قادته لهفته باتجاه جدي مخول، فغمره بكل ما يملك من حنانٍ، وأحاطه بأسوار من الخوف والحرص، وأخذ يكبّره شبراً شبراً، حتى إذا استوى عوده، وقدح زنده، فتش له عن المخلوقة التي ينبغي أن تملأ البيت بالأولاد. ولم يكن الأمر عصياً حينما يتعلق الأمر بجدي مخول، شاب جميل الطلعة له طول مارد وعينا صقر، وهو الوحيد لأبويه. لقد كان جدي مخول عملة نادرة بيد الشيخ الحاني؛ الذي أخذ يقلب أوراق الفتيات بين يديه كما لو كان ينتقي بطيخة أو رأس ملفوف. حتى إذا عثر على مريم بنت زعل اللطوف شيخ عائلة اللطايفة عقد اتفاقاً مع أبيها نيابة عن جدي مخول. لقد ناب عنه في خفق الفؤاد ونبض الروح، وغاب عن عقله أنه ربما استطاع أن يعقد لمخول على مريم لكنه أبداً لا يستطيع أن يعقد الخيط الذي يجمع هذين القلبين. لقد اختار الأب وتزوج جدي مخول ليلة واحدة، وبزواجه التأم جرح أبي مخول، والتحم القطبان المتنافران في الضيعة، وصار اللطايفة والنعايمة قطباً واحداً.

غير أن جدي مخول كانت له حساباته المختلفة، فقلبه في اتجاه آخر. فمن يستطيع أن يوقف تأجج العاطفة وجموح القلب ؟ ومن الذي يقنع جدي مخول أن التحام النعايمة واللطايفة أهم من التحامه بسعدى، سعدى التي فرشت لجدي مخول قلبها، ومهدت له ذراعيها ونحرها فتعلق القلب بالقلب، واشتبكت الأذرع بالأذرع، وغفت النحور على النحور.

توقف عابد مسعود لحظة، شفّ من قرعة المته، ثم تأمل وجهك:

- رجّعتك شي ستين سبعين سنة لورا.

- احكِ... شو في ورانا؟!

- دخل جدي مخول على ستي مريم ليلة واحدة.

- وبعدين؟

- لف سعدى وطفش... لا علم ولا خبر.

- يعني خطيفة؟

- نعم سيدي خطيفة.

* * *

حين أدرك عابد مسعود الصباح، سكت عن الكلام المباح، وذلك حينما فتحنا المذياع على بانوراما إذاعة مونتيكارلو في الساعة العاشرة من مساء العاصفة. نقلت الإذاعة صورة العراق البائسة، بعد ذلك القصف العنيف طوال اليوم، لم يبق ساعات حتى تسقط بغداد، فالقوات البرية بقيادة الولايات المتحدة تتجه الآن إلى الكويت. ما الذي يجعلهم يرهنون تحرير الكويت بسقوط بغداد ؟ !. سألني عابد مسعود، فأجبته ساخراً : هما كفتا ميزان. اهتزت أعصابنا ... اضطربنا، يحاول كل منا أن يضرب رأسه بالجدار، نهضت، غادرت عابد مسعود دون وداع ... انزلقت إلى جانب رمزية مثل بزاقة، دون أن يتحرك فيّ عرق، كأنما

غادرتني الشهوة منذ قرون... أخذت أتقلب في فراشي... نهضت... عدت إلى النوم من جديد. والمسكينة تحاول أن تطفئ النار بعظاتها:

- **كنا بهم، وصرنا بهم.**
- **هذا هم أكبر يا رمزية.**
- **وشو قادر تساوي يعني؟!.**
- **ولا شي... ولا شي.**
- **فإذن نام واتكل على الله... صاحب الرعية يدبر رعيته.**

نمت بعد جهد... مستسلماً للكوابيس... وصحوت في اليوم التالي على أنباء قصف تل أبيب بالصواريخ العراقية، أخذت أصرخ من أعماقي: يعيش صدام.

لم تكن بيني وبين صدام صلة قبل اليوم ، لقد كان بيني وبين كل طغاة العالم جبال من نار، وبحور من جليد. ما الذي جرى الآن ؟! تسألني رمزية مستنكرة:

- **الآن صار صدام صدام؟!.**
- **الأمر اختلف اليوم يا رمزية.**

لم أغادر البيت؛ فاليوم جمعة. ملتصقاً بالمذياع أمضيت وقتي؛ أمريكا تطلب من إسرائيل عدم الرد على الصواريخ العراقية، حفاظاً على تماسك تحالفها مع العرب البائدة والعرب المستعربة والعرب المستعملة والمستهلكة... لا ينبغي أن ينفرط عقد التحالف ضد العراق.

في المدرسة انتابني الانكسار جراء هذه التحالفات الطارئة التي أدخلت فيها على رغمي. غير أن تحالفاً جديداً ظهر في قاعة المدرسين، طوعياً هذه المرة، وبإرادتي الحرة؛ أنا وعبد العزيز عثمان والسنوسي الليبي والسوداني محمد الهاشمي والهادي بالقاسم التونسي في جانب، وعبد الجليل المصري ومصطفى برهو في جانب آخر. كنا نضطرم بتلك النار التي أججها جورج بوش في تلك الصحراء الخالية من الناس، العامرة بالنفط والأحلام الأمبراطورية . لا رأي لنا فيما اختار العرب لأنفسهم، غير أننا نملك الآن إمكانية التمرد ما بيننا وبين أنفسنا على الأقل. . من يصدّق في طبرق أنه ليس لسالم النصيرات، ولا لعابد مسعود الحمصي الذي انضم إلى تحالفنا يد في إرسال جنود عرب ليقاتلوا العراقيين؟!. علناً أخذنا نتلقى الإهانات والتعليقات والاتهامات في الشارع الليبي:

- **أنتم يالسوريين هكّي.**

ويصنعون من أكفهم سهاماً تزوغ ذات اليمين وذات الشمال. لقد كنا في بئر عميقة، نتلقى الضربات دون أن نمتلك إمكانية الرد. حتى الأولاد كانوا يشيرون إلينا بأيديهم وقد شدوا الإبهام نحو الأسفل، وما علينا إلا أن نسلم سيقاننا للريح.

ذهبت أبترد في بحر عابد مسعود. في كل لحظة تضيق بي طبرق ألجأ إلى ذلك الشاطئ. يستقبلني عابد مسعود مقترحاً عليّ فضاءات أوسع، يريد أن تتسع الحلقة لتضم عدداً من السوريين. قلت له:

- **ليس قبل أن أسمع باقي الحكاية.**

- **أي حكاية؟**

- **حكاية الرسدي.**

- **أي رسدي؟.**

- **التي خطفت جدك مخول.**

يضحك عابد مسعود ملء صدره.

* * *

رواية مريم

كنت قد حملت تلك الليلة، ووضعت ولداً أسموه مسعود. فعلى الرغم من اختفاء مخول مع سعدى؛ إلا أن عمي ظل مصراً على أن السعد لم يجانبه عندما جاءه حفيد، عوضه عن مخول، فأسماه مسعود، وتلقاه عمي مثلما يتلقى نسمة الهواء، وضمه إلى صدره وهو يقول: «يحيي الدار بأهلها».

انقطعت أخبار مخول خمس سنين، فجأة وصل خبر إلى الضيعة:

«قتل مخول ابن ليان النعيم، قتلوه الدروز بالسويدا».

كان الخبر بلا تفصيلات. ما الذي أوصل مخول إلى السويداء؟ ما سبب القتل؟ كل تلك الأخبار كانت في جعبة هاني اللطوف الذي جاء ينعى زميله وصديق عمره.

* * *

رواية هاني اللطوف القرواني

خطف مخول سعدى وتوجه إلى قرية المجدل في السويداء قادته قدماه إلى بيت أبي فواز أحد شيوخها، فدخل في حرمته. سأل أبو فواز دخيله:

- **تجوزتوا؟**

قال مخول:

- **لا... بعدها بنت.**

جمع أبو فواز أهل المجدل، استشارهم، فرأوا أن يعقدوا لمخول على سعدى، ما دامت قد صحبته برضائها من تلك البلاد، وقد حافظ مخول على عذريتها، وأقاموا لمخول عرساً، وغنوا له، وأولموا، وعدّه أبو فواز واحداً من الأسرة، فأفرد له بيتاً مستقلاً .

ولأن مخول لا يريد أن يعيش عالة على الأسرة التي آوته، فقداقترح أن يعمل في أرضهم مرابعاً. وأمضى مخول ثلاث

سنوات بمفرده في خدمة بيت أبي فواز، قبل أن آتي أنا لأصبح شريكه في العمل.

التقينا في السويداء مصادفة، فرح كل منا بصاحبه، وإذا كان مخول النعيم قد هرب بسعدى، فأنا قد هربت بفقري، جئت أحمل جوعي مثلما حمل مخول سعدى. هكذا التقينا نحن القروانيين في السويداء، وجدت مخول هدية من السماء، ولم يخطر ببالي أن أجد من يتلقاني، فاتحاً لي ذراعيه وقلبه وبيته. وهكذا اجتمعنا في بيت النعمة كما كان يسميه مخول.

قال مخول لعمه أبي فواز:

- **هذا قرواني من بلدي.**

فقال أبو فواز:

- **أنعم وأكرم.**

- **وراغب يقضب ربع.**

- **الأرض واسعة. والخير واجد... أهلا وسهلا فيك وفيه.**

وأبرم الاتفاق، ودخلت في خدمة الأرض، رأسمالي يداي، ومقدمي حذاء ومعطف وتنكة زيت كاز، ولحاف وفراش ألف بهما جسدي المقرور.

بعد عامين من عملنا المشترك حدث ما لم يكن بالحسبان، أخذ مخول يتأفف يبدي ضجراً وندماً على هذه المغامرة، كيف يترك بلده وأهله وأرضه وداره؛ ليعمل مرابعاً تحت أمـرة خلـق الله، وكثيراً ما قال لي بعيداً عن سعدى:

- وين كان عقلي.

- هلي صار صار، وهلي بدو سعدى لازم يدفع.

- سعدى؟!.

- أي سعدى.

هز رأسه بمرارة، عندها أدركت أن شيئاً ما في داخلـه لا يـودُّ البوح به. إلى أن كان يوم، نادى أبو فواز مخول في الصباح الباكر:

ـ ما دام اليوم ما في حراث، عمتك أم فواز بدها تخبز، وما في وقد.

أظهر مخول تبرماً وضجراً:

- يعني ما في راحة؟!.

وسمع أبـو فـواز بعـضاً مـن بربـرة مخـول: «**يلعـن الساعة....**»ناداه:

- مخول!.

توجه مخول نحوه، تابع :

- شو قصرنا معك يا مخول؟!.

- يعني بتركب على ظهري؟!.

قالها وانصرف دون أن يلتفت إلى الخلف، فصاح أبو فواز:

- بيفرجها الله فيك ياكلب.

اجتمع الناس على صوت أبي فواز في ذلك الصباح، وأصلحوا بينهما. وذهب مخول إلى الشيح، وعاد ببندك[1] شيح كبير.

في صباح اليوم التالي وجدت مخول مقتولاً في الباكية، لا أثر ضرب، لا دماء، ربما مات خنقاً، المهم أنه مات، خرجت أصرخ ملء صدري والزبد يملأ شدقي:

- يا أهل المجدل! مخول القرواني انقتل، قتله أبو فواز.

تراكض الناس، اجتمعوا بسرعة الذباب:

- انت شفته؟!.

ذكرتهم بموقف البارحة:

- مين إلو مصلحة بقتل مخول غير أبو فواز.

- يا رجال كيف؟أبو فواز رجال عاقل، بيقتل زلمي هيك.. لله بالله؟!.

---

(١) بندك: حمل حمار.

وظل أهل المجدل يدافعون عن أبي فواز، كذبوني، شتموني، نهروني:

- **يقطع لسانك، إنت واحد كذاب.**

حتى أقبل أبو فواز، ليعلن للجميع:

- **يا جماعة أنا ضربت والله قتل.**

وأقام أهل المجدل مأتماً لمخول كواحد منهم، ودفنوه، وأرسلوني كي أخبر أهله .

* * *

خاتمة رواية هاني اللطوف

أخبر هاني اللطوف أهل مخول، وحلت المسألة حلاً عشائرياً، فدفع أبو فواز دية مخول، وعقد أهله رايته، وكي لا تبقى سعدى بلا زوج، فقد زوجوها لهاني اللطوف الذي انتقل من خدمة أبي فواز إلى مكان آخر.

* * *

رواية سعدى

منذ أن جاء هاني اللطوف إلى المجدل ونظره لـم ينـصرف عني، يأكلني بعينيه، يتعقبني، يتابع حركاتي وسـكناتي، حتـى بحضور مخول، ربما لم يشعر مخول بذلك فهو الذي آوى هاني اللطوف، وتدبر أمره وتعهد استقراره، وربما لم يخطر له لحظة أن هاني اللطوف بدأ يهيئ الحفرة مذ رآني لأول مرة في بيتـه؛ عندما جاء به مخول من السويداء.

بداية لم ترحني نظرته، لكنني كنت مستعدة لأقـوم بواجـب الضيافة. همست لمخول قبل أن أراه:

- **مين؟**. وقلبت يدي مستفسرة.

بادلني الهمس:

- **اسّى بتعرفي.**

وحين دخل دخلتْ معه الضيعة بكل تفاصيلها؛ دورها، كرومها، طرقاتها، ناسها، أهلي الذين تركتهم تلوكهم ألسنة الناس.

كنت أعرف هاني اللطوف حق المعرفة، وكثيراً ما لاحقني من أجل كلمة. لكنني كنت مشغولة بمخول حتى آخر تكة من عقلي، تجنبته، وتجنبته، حتى وجدتني أقف في وجهه مرة:

- اسمع! كف عن ملاعيبك الخايسة وإلا...

- وإلا أيش؟.

- إنت تعرف.

هكذا تركت أمر تهديدي مفتوحاً لعدد من التخمينات.

لم أقل لمخول، خفت أن يتهمني به، فضلت أن أترك الأمر سراً، وأخذت أتحاشاه، حتى كان أمامي في المجدل وجهاً لوجه، كأنه يقول لي: لو طرتِ لآخر الدنيا فسوف أتبعك.

تعشى وذهب للنوم في مضافة أبي فواز، وحينما اشتغل شريكاً لمخول في أرض أبي فواز؛ اتخذ سكنه في الغرفة الملاصقة لغرفتنا، هل كان قدري ذلك ؟ لا أدري، كل الذي جرى أنه ترك الله وعبدني. إذا خرجت أنشر الغسيل على الحبل، إذا عبأت الطاسة من الخابية، إذا ذهبت لتنظيف الباكية من الزبل.

في بداية الأمر سددت كل المنافذ في وجهه:

- عندي مخول يسوى قبيلة رجال. ... والله لخلي مخول...

لكن هاني اللطوف لم ييئس ظل يرمي شباكه مرة بعد مرة، كان كلما سنحت الفرصة وذهب إلى السويداء اشترى لي منديلاً ... شالاً ... دملوجاً.

في البداية أبيت واستأبيت، ولعنت إبليس، لكنني قبلت المنديل مكرهة حينما جاءني يوماً مستغلاً غياب مخول:

- اشتريته على حسابك.. حره تلبسيه... حره تهديه.

ثم رماه وانصرف. وعندما وضعت المنديل على رأسي رأيته جميلاً.

وقبلت الشال حين حمله لي بعد مرة، غير أنني نبهته بحسم وقوة:

- هذي آخر هدية أقبلها منك... هه.

في المرة الثالثة حمل لي الدملوج، وأبى إلا أن يضعه بنفسه في معصمي، أخذ يدي، أدخلها عنوة في الدملوج، وضغط، فانزلق الدملوج إلى المعصم، وانزلقت يده الثانية تطوقني، دفعته بيدي بقوة، لكنه كان قد أحكم قبضته، ومتراخية حاولت التخلص، لكنني وجدت نفسي مطوقة بأنفاس هاني الحارة اللاهثة، فغبت معه في تلك الغفوة الدافئة، ولم نستفق إلا على خشخشة الريح معلنة قدوم المطر.

هكذا انفتحت الترعة التي أخذ يمر منها هاني اللطوف كلما سنحت له فرصة غياب مخول، متسللاً إلى فراشي، ليعلن لي أنه لا حياة له بدوني، ولا يستطيع أن يتصور كيف يمكنه أن يمضي ليلة واحدة دون أن يبحر في ذلك الجسد. ويوماً بعد يوم أخذ يقنعني أنه علينا أن نفتش عن حل يجعلني خالصة له من دون خلق الله جميعاً، وسوف يكون خلاف مخول مع أبي فواز فرصة نادرة ــ فيما لو تم ذلك ــ ففر قلبي من *الخوف «معقول يعملها هاني؟!.»*

كثرت محاولات هاني لإفساد ما بين مخول وأبي فواز، يذهب إلى أبي فواز في هيئة المشفق الملهوف على مصلحته:

- يا عمي بو فواز هذا لا يجوز! المعالف فاضية، والباكية مليانة زبل، وأنا لوحدي لا أقدر على كل شيء؟.

- ومخول وين؟!.

- مخول؟!. الله يعينا ويعينه؛ راسه وراس سعدى.

وحين يعلم أن قلب أبي فواز قد امتلأ يتوجه إلى مخول مستنكراً:

- خمس سنين يا مخول على هذي الحالة؟!

ينظر إليه مخول مستفسراً. يتابع استنكاره:

- كيف صابر؟!.

- بدنا نستر حالنا يا هاني.

- لكن هذا ظلم، شغل ليل نهار، صيف شتا؟!. مثل الحمير؟!.

ويصحو شيء ما في رأس مخول، ويأخذ بالتغير. يتلكأ في تلبية طلبات أبي فواز، يتأخر في النوم، يبدي ضجراً وقلقاً زائدين. وأبو فواز يغض النظر، يعتبرها حالة طارئة.

وحينما طلب منه ذلك اليوم الذهاب إلى الشيح ما كان يتصور أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه. كان هاني يترقب ما يجري بلهفة قط، وأخذ يردد بعد تهديد أبي فواز:

- عمي أبو فواز لا يعاند، ما قال شيئاً إلا وفعله. .

خرج مخول كعادته في آخر الليل ليضع آخر علفة للسوّامة، كان يستغرق عمله نصف ساعة، أكثر... أقل. هذه المرة تأخر، انتابني قلق، أوشكت أن ألحق به إلى الباكية عندما سمعت وقع أقدامه، فتحت الباب، وقف أمامي مصفراً، مرتجفاً، هتفت دون أن أتأكد أن صوتي قد غادرني:

- هاني؟!.

وقف أمامي كشبح، وبإشارة متصالبة من يديه أومأ إلـيّ أن كل شيء قد انتهى. ومجنونة أمسكته من ياقة معطفه وهززته:

- وين مخول؟!.

وضع يده على فمي، أغلق الباب، أفهمني أنه لم يبق أمامه إلا هذه الطريقة كي يخرج من القضية بريئاً مثل عصفور، قال أن المسألة الآن في رقبة أبي فواز، كل أهل المجدل شاهدوا ما حدث بالأمس، وكلهم سيشهدون أنه القاتل. أبكي قدر ما تستطيعين، وسوف أبكي معك، سنقنع أهل المجدل أننا نحن اللذان خسرنا مخول، ونحن أهله ومن يطالب بدمه.

أردت أن أصرخ في نهاية هذه المؤامرة، لكنه أخرج موسى لامعة، خطف بريقها بصري:

- لو نطقتِ بحرف، والله ما في حدا يحميكِ.

عند ذلك جمد لساني في فمي.

لم يمضِ شهر على قتل مخول حينما أرسل هاني يطلب يدي، لم يكن لي أهل ألوذ بهم، ولم أجرؤ على البوح بالسر، لقد هددني بالقتل ولو كنت تحت سبعة أقفال.

انتابني فزع قاتل، إلى من ألجأ؟ إلى أبي فواز الذي اتهمته ظلماً، وماذا سيقول الناس لو بحت بالحقيقة بعد أن سكت كل هذه المدة، أنا شريكة هاني فيما فعل شئت ذلك أم لم أشأ، ولن تغسلني من خطيئتي مياه أنهار العالم.

تزوجت هاني على رغمي، أبدى في بداية حياتنا شغفاً لا حدود لاصطخابه، يعود إلى البيت ملهوفاً، يضع أمتعة الحراثة ويغمرني... يشدني إليه مخافة أن أهرب من بين يديه... يلفني بين ذراعيه ويدور بي البيت الصغير، دورتين... ثلاثاً، ثم يرميني على الفراش مقتولة ويقف.

- **ما إنت تعبان؟!.**

لاهثاً يجيب:

- **لا... خلص... راح التعب.**

كل ذلك وهو في ثياب العمل. ثم يبدأ يخلع ثيابه. أحاول القيام كي أجهز له الماء ليغتسل:

- **لا... لا تكلفي حالك.**

- **معقول؟!. كل نهارك شغل!**

أضع له الماء... أهيّئ له المنشفة، أمد له السفرة؛ مجدرة وبصل، وأحياناً لبن شنينة، يأكل بنهم، ينام يجذبني إليه كما العاصفة، أتمدد بجانبه فتختفي رائحة البصل، ونذهب في رحلة جنونية طائشة، لا شواطئ لها.

بدأ يتغير، شيء ما أخذ يلعب برأسه، لم أستطع اكتشافه إلا عندما سألني مرة:

- إذا إجاك حدا وأني بالحراث شو بتعملي؟

- حدا مين يعني؟!

- يعني رجّال .

- بقلله هاني مش هون.

- وإذا إجا وجايبلك معه منديل، وقال لك: هذا هديّة، حره تلبسيه، حره تهديه؟

- هاني ! شو قصدك؟!.

- يعني ما بتقولي له عندي هاني يسوى قبيلة رجال.

وبدأ الفأر يلعب؛ رحلات كاذبة... حملات مداهمة... تحقيقات. يخرج إلى الحراثة، قبل الفجر، ثم لا يلبث أن يعود بعد ساعة، يفتح الباب فجأة، وحين يراني في الفراش وحيدة يدعي أنه نسي الزوادة، الشرعة... المقرعة... أي شيء.

يخرج في المساء، أظنه قد خرج يتعلل في إحدى المضافات، أفاجأ به واقفاً خلف الحائط؛ يراقب الباب.

حتى كان يوم جاء صديقه صابر يسأل عنه، يريد أن يخرجا معاً للتعليلة. دق الباب:

- وين هاني؟

- راح على التعليلة.

- نحنا اتفقنا...

يخرج له من خلف الجدار:

- على إيش اتفقت إنت والكلبة؟

يفاجأ صابر، يهمس له:

- وطّي صوتك... عيب.

يريد أن يذكره باتفاقهما على الذهاب معاً إلى السهرة.

- عيب عليّ، ولا عليك يا خايس؟.

ينصرف صابر وهو لا يدري ماذا يتصرف. وأخضع أنا إلى موجة جديدة من التحقيق: لماذا جاء؟ وما غرضه؟ وكم مرة جاء قبل اليوم؟ وعلامَ اتفقتما؟. و... و...

أجد نفسي أنفجر في وجهه، وأجده يتناولني بكلتا يديه، ويرميني أرضاً، ولا يخلصني منه إلا الجيران الذين اجتمعوا على صراخي. وما إن تركني حتى توجهت راكضة إلى أبي فواز:

- عمي أبو فواز؟ أني داخلة على الله وعليك.

- وصلتِ يا بنت، قولي، شو في؟!

- عندي سر وما عاد قادرة إحمله.

- سر؟!.

- دم مخول برقبتي.

- مخول؟!.

- أيوه... مخول.

- يعني انتِ... ؟!

- لا... هاني.

كيف صار؟ ... ماذا جرى؟ ... وحدثته، ورحت أدافع عن نفسي أمامه، كنت أخشى الفضيحة، وأخشى هاني الذي شحذ سكيناً من أجلي، ووضعها تحت وسادته.

- وكيف قبلت تاخذيه؟.

- غريبة... وما لي حدا.

* * *

رواية أبي الفوز

صعقتني المفاجأة، لم أغادر البيت تلك الليلة، ولم أشعر بما هـو غير عادي. حتى الكلب الذي كان يملأ الليل نباحاً لم أسمع له صوتاً تلك الليلة. كان الهواء يصفر، وكانت السماء تشتعل بـين الحـين والحين فتمحو عتمة الليل، ثم يدوي صوت الرعد فتهتـز الأرض، وترتجف نافذة المضافة، وأنا ملتف في فروتي، ملتصق بالبابور.

لم أكن أتصور أن أحداً يمكنه الخروج من بيته تلك الليلة، وحين سمعت الضجة في صباح اليوم التالي كان يبدو لي أن شيئاً ما قـد وقع، ولكن ليس في بيتنا. غير أن صابر الذي جاء مسرعاً غير كل حساباتي حينما نقل لي الخبر بصيغة سؤال اتهامي:

- **إنت قتلت مخول يا بو فواز؟!.**

لم أستوعب السؤال في بداية الأمر، غير أنـه مـضى فـي اتهامي فأكد الخبر بطريقة جديدة:

- **مخول مقتول بالباكية، والناس عمال تسأل.**

تذكرت ما جرى البارحة، وأدركت أن في الأمر لغـزاً لـن أستطيع كشفه بهذه السرعة. من سيحررني الآن من دم مخـول

وقد سمع الناس البارحة تهديدي؟!. هكذا اتخذت قراراً سريعاً، وتحملت دم الرجل أمام الناس، مع أنني كنت بريئاً أمام الله.

كنت متأكداً أنه سيأتي يوم وينكشف السر، وحين جاءت سعدى تعلن مسؤولية هاني لم أفاجأ، كنت أرى إلى هاني يلعب على أكثر من حبل، حتى زواجه من سعدى بهذه السرعة أثار قلقي.

لم يبق علي بعد ذلك إلا أن أبرّئ ساحتي. ذهبت بنفسي إلى أهل مخول، كان أبو مخول قد توفي، ومريم تعيش مع طفلها مسعود وحيدة، نفضت يدي من دم مخول، وأردت أن أكون وفياً للرجل الذي اعتبرته واحداً من أولادي، فحملت زوجته وولده ليعيشا في البيت الذي خدمه مخول مدة من الزمن.

كنت أشعر بالسعادة وأنا أرى مسعود يكبر يوماً بعد يوم، ولم أتصور أنني كنت قادراً على منحه الحب الذي منحته إياه، كان مسعود مطيعاً، وكان يناديني كما ينادي الابن أباه، آه ما أجمل طفولة مسعود! وما أجمل شبابه ! شاب وسيم، بهي، أنيس، فصيح، فيه شيء من مخول غير أن هواء السويداء ختمه بخاتم الجبل، وأعطاه هوية جبلية.

وحين أرادت مريم أن تنتقل به إلى السويداء لم أقف في وجهها، زودتها بما أستطيع كي تتمكن من العيش مع مسعود بعيداً عن الحاجة. لقد غدا الدكان الذي فتحته لمسعود مصدر عيش دائم، وظل مسعود وفياً للمجدل، وغدا لنا بيتان بيت في المجدل، وبيت في السويداء.

* * *

فضاءات أخرى

فضاؤك يتسع، فضاءات أخرى تمتد أمامك، وعابد مسعود الذي فتح لك الفضاء الأول لم يشأ أن يغلق عليك فضاءه. ومثلما اكتنفك عابد مسعود في رحلتك الأولى إلى أمانة التعليم فقد اكتنفك سلمان فياض في رحلتك الأولى إلى سوق القزاز.

* * *

كنتُ في رحلة اطلاعية حينما لمحته يتجه نحوي، ملامحي الجبلية هذه المرة هي التي قادته إليّ، حينما كنت أسوم اللحم والخضراوات، أريد أن أكسر العزلة، وأنخرط في مجتمعي الجديد، فآخذ فكرة عن السوق الذي وجدت نفسي واحداً من مستهلكيه.

- **من وين الأخ؟.**

هكذا قبل المرحبا والسلام، وفيما يبدو فقد وصلت رسالته بسرعة... تعارفنا وتعانقنا وهناك في حي المختار رأيت المجدل بتقاليدها... رجالاً حملوا معهم عباءاتهم، وربباتهم وعدة القهوة العربية، وحملوا معهم همومهم وأوجاعهم وأحلامهم وخطاياهم.

لقد كانوا في مجتمعهم الجديد شظايا وتحسبهم كتلة واحدة، لا يجمعهم إلا الموت؛ عند ذلك يتماسكون، ويتناصرون كأنهم عائلة، متناسين ما بينهم من ضغائن وأحقاد. ابتهجوا لوجودنا أنا ورمزية، وصاروا يتبارون في تكريمنا، ولو لم أكن قد قطعت تلك المسافات الشاسعة مع رمزية، وشكونا معاً ذلك البعد وذلك العناء، لما شككت لحظة في أنني لم أغادر المجدل خطوة واحدة.

مناسف تصبّر فوقها اللحم والكبة المقلية والأقراص على طريقة أهل الجبل، حتى أدوات المضافة الجبلية نقلوها معهم؛ الكبشة وسطل القفرة وعبارات **«تفضلوا ولا تواخذونا»** و **«بكرة الضيوف بيتغدوا عندنا»**.

كل تلك المجاملات التي كنت آلفها هناك حملوها معهم بدقائقها، هل جاء هؤلاء للعمل؟ أم جاؤوا يحملون وزر الغربة والعادات معاً؟!.

وحين أمعنت النظر في ذلك المجتمع المهاجر رأيتني أنفر من تلك الولاءات التي حملوها معهم في حقائبهم، ومعدات شغلهم، وتلك الأحقاد التي لازمتهم في حلهم وترحالهم، وتلك النزعات التي استولت على نفوسهم، وذلك الأسلوب الذي يتعاملون به في عملهم.

سلمان فياض الذي رآني غارقاً في محاولة فهم هذا الواقع الجديد انتشلني من المخاضة:

- الغربة ما غيرت فيهم شيئاً.

لم أعلق، اكتفيت بأن هززت رأسي موافقاً.

أضاف سلمان:

- والأكثر من ذلك أن الليبيين تعلموا منا... صاروا يشربون المتة... يستمعون إلى الربابة... يعملون طبيخ مليحية.

* * *

في داخلك يتوضح شيء من الصورة. لكنها سوف تكتمل حين تتوغل في طبرق، تسبر شوارعها... خدماتها. قادك سلمان في رحلة استكشاف، ربما تعمّد أن يفسر لك على طريقته سبب هذا التسيب الذي يعيشه مواطنوك.

حينما تجد الشارع نظيفاً تخجل أن ترمي على الأرض عقب سيكارة، وربما اقتضى الأمر أن تسير مسافة كي ترمي منديلك الورقي المستهلك، أو علبة الكولا الفارغة، في حاوية القمامة. هكذا تفرض نظافة الشارع نمطاً من التصرف الحضاري، لا قسراً وإنما طواعية واختياراً. أما حينما تجد أمامك شارعاً عريضاً قد عطلت النفايات حركة السير فيه؛ فماذا أنت فاعل؟ ربما تجد من يسخر منك حد المرارة حينما تحمل نفاياتك بيديك، باحثاً عن حاوية القمامة؛ في حين قد تحول الشارع كله إلى حاوية قمامة. سلمان فياض ربما أدرك هذه المسالة، هكذا وجدت نفسك وجهاً لوجه أمام هذا التل الذي نتأ في عرض الشارع. أوقف سيارته أمام تل النفايات، وترجلتما. أنتما مدعوان

لزيارة طارئة، عبر بك سلمان فياض تل القمامة، ثم انحرف يميناً، فإذا أنتما في مخاضة حقيقية لا ينقذكما منها إلا أن تشمرا وتهمّا باجتيازها. طلبت من سلمان معبراً آخر، لكنه أعلنها ممراً إجبارياً، فوق الصفائح وكسرات الطوب عبرتما، كان همك أن تكتشف مصدر هذا الفيض الأرضي الطارئ. وإذ انكشفت أمامك حقيقته صدمت، وأدركت سبب كل ما يجري أمامك؛ منذ أن وطئت قدماك هذه الأرض. سواقٍ من المياه العذبة تلتقي مع سواقٍ من المياه المالحة لتشكل جدولاً يصب في تلك البحيرة العالقة بين الأحياء، يأخذ مجراه بفوضى مدهشة، لا يترك للسائر حافة يضع قدمه عليها.

- **إلى أين أنت ذاهب بي؟!.**

تسأل سلمان فياض محتجاً. فيجيبك أنه يريدك أن ترى بعينيك أي أنموذج من العيش ذلك الذي يحياه مواطنوك الذين جاؤوا إلى طبرق يحلمون بالثروة والجاه. ويضيف:

- **والمستور أصعب.**

يقف بك سلمان فياض فجأة أمام باب الحوش:

- **هنا.**

ثم يقرع الجرس. تنتظران، ينفتح الباب عن كتلة بشرية، يقدمه لك:

- هذا خيي حسين.

أنت لا تفهم شيئاً، المفاجأة تعطل تفكيرك وأنت تنظــر إلــى هيئة لا تستطيع أن تقدر لها وزناً ولا عمراً ولا جنساً؛ عينــان غائرتان في تجويف لحمي، وأنف أخذ مساحة نــصف الوجــه، وغابة كثيفة من شاربين ولحية غير مشذبة. يتحرك ببطء شــديد كما لو أنه شد برجليه أثقالاً، أثقلته أرطال اللحم التــي تجمعــت على جانبيه، تنظر إلى سلمان فياض، لعلك تكشف لغزه، وسبب مزاحه. يدهشك أنه لا يمزح:

- خيي حسين... عشرين سنة.

لفظها كما لو أنه يتحدث عن سجين حكم عــشرين عامــاً... تتهيأ لسماع الحكاية.

* * *

حنين حسين فياض

مرغماً اتخذت قراري، أرى الناس يتجهون إلى تلك البلاد أفواجاً، وأنا أتلهف ، لم يبق لي في أم ليوان خبز ولاماء، هكذا تهيأ لي. كما لم يبقَ فيها غير النساء والأولاد.

قالت نهيلة لاتسافر، لن نموت من الجوع، وكيف لاأطيع نهيلة وفي داخلي ذلك القلب، ربطتني نهيلة بالأولاد، وأوثقتني بحبال قلبها، أشارت إليهما وهما نائمان، لكنهما ما لبثا أن استيقظا، كأنما أحسا بالحريق الذي أخذ يشتعل هناك في صدر نهيلة. فرخان صغيران لم تكتحل عيونهما بمدرسة، ولا انطبقت أناملهما على قلم، فرا من فراشهما كطيرين مذعورين، تعلقا بعنقي، كانا يسمعان أناشيد التوسل تنثها نهيلة فوق رأسي، وربما لم يدركا ما كان يدور بيننا، غير أنهما في كل نقاش حاد كانا ينحازان جهتها... يطوقاني بأذرعهما الناعمة، يشدان يديّ إلى خلف ظهري... ينزعان شالها، ويوثقاني به، عندئذٍ لا أمتلك نفسي من الضحك، فتنطلق الصيحات، ويمتلئ البيت صخباً.

هذه المرة كان الأمر مختلفاً، لم يقوما بتلك الحركات الشيطانية، اكتفيا بالصمت كأنما لجمتهما المأساة القادمة. هل كانا يدركان حجم الكارثة التي كانت تنتظرهما. شيء من التوسل قرأته في عيونهما الصغيرة، شيء آخر من الذعر، غير أنني أغضيت. ونهيلة أطلقت لعينيها السبيل، كأنها على موعد مع نهوض الصغيرين. من القادر على إسكاتها في تلك اللحظة، ومن القادر على منع الصغيرين من مؤازرتها؟!.

هكذا وجدتني غارقاً في ذلك الصمت الصاخب، أكابر كيلا أظهر جزعي فأبدو ضعيفاً أمامهم، لا أريد أن تتكسر شوكتي بهذه السهولة، لجأت إلى نهيلة أولاً، أسكتّها بقبلة على مرأى ومسمع من الأولاد، ثم احتضنتهما، فيما لم يجد النوم طريقاً إلى أجفاننا.

شيئان كانا يشدان بي إلى الوراء: أم ليوان والعش الذي عبثت بقشه رياح الكوانين، وأخذت حبات المطر سبيلها إليه. أما المبلغ المتوجب اصطحابه؛ لأتمكن من دخول الجماهيرية العظمى؛ فهو خمسمائة دولار؛ تحتاج إلى خمسمئة ركعة صلاة، وخمسمئة سؤال لأجمعها، وما من سبيل.

لم تكن نهيلة تلك المرأة القاسية، ولم يفصّل لها الله قلباً من حجر، ولو كانت؛ لمنعت هذه المهزلة بعنادها وقسوتها، لقد رأت لوباني فنادتني ذات صباح:

- يعني خلص... نويت؟.

- غضبٍ عني يا نهيلة!.

- ومين غاصبك؟!.

- ما ظل حدا. كلهن سافروا.

- يعني إن خوثوا بتخوث معهن؟!.

- لا بــد من الخــوث يا نهيلـــة... العقــل ما كان يطعـــمنا ولا يسقينا.

- وكيف بدك تدبّر حالك؟.

- الله...

ورفعت سبابتين باتجاه الله.

لم يخطر لي أن نهيلة ستنهزم أمامي بهذه الـسهولة، وأنهـا ستفتح أمامي باباً، ما حاولت أن أطرقه يوماً. امتدت يدها إلــى عنقها، فكت العقد الذي كان يزينه، ودفعته نحوي:

- خوذ بيعه.

ذهلت، المفاجأة ربطت لساني، أتتخلّى نهيلة عن عقدها مــن أجل مشروع ما انفكت تعذلني على المضي فيه؟! .

- شو يعني؟!.

قلت ذلك، ويدها مازالت ممدودة، نحوي، والعقد المــشنوق بين أصبعيها ما زال يلوح في فضائهما.

- حتى ما تقول إني واقفة بطريقك.

- مستحيل... العقد؟!. لا.

- اللي جاب العقد بيجيب غيره.

ورمته في حضني، ومضت إلى شأنها.

هل كانت ردة فعل طائشة؟. لحقت بها، حاولت أن أعيد العقد إلى المكان الذي كان يستقرّ فيه... إلى عنقها الذي تعطل من كل زينة. لكني لم أتمكن منها، نفرت الغزالة، وأقسمت...

لم أستطع وداعهم، غادرت وهم نائمون، وخلفت ورائي أم ليوان وقلوباً سيأكلها الحزن، ولم أستطع الالتفات إلى الوراء.

مجموعة من العمال السوريين كنا على متن الطائرة الليبية، يحمل كل واحد خشبة على كتفه، ويتجه إلى المجهول. . وفي مطار بنّينا ببنغازي؛ تكومت وزرات من الجلد وشواكيش وقداديم ومناشير ومسطرينات وموازين زئبق ومقصات بورسلان وملازم حديد، وكل ما يخطر على البال من عدد أعمال البناء. قامت القيامة في المطار، وثارت عاصفة من الاستهجان، إلى أين تزحف هذه الجموع الجائعة ؟ هل جاءت تعمّر الجماهيرية؟ أم تراها جاءت تعمر بطونها الخاوية؟!.

توجهت مجموعتنا إلى جدابيا، وأُغلقت الأبواب دوننا ولم يبق أمامنا إلا المجالدة. كان أول مشروع أفكر فيه هو استعادة العقد، عقد نهيلة الذي لم تمنحه عن طيب خاطر. لقد كانت تضن بي لا بالعقد، وكنت أعرف ذلك وهذا ما أحرق مهجتي.

عشرون صيفاً وأنا أحاول جمع ثمن العقد ولم أفلح، وكلما تجمّع ثمنه في جيبي صار إلى بدد. لم أترك عملاً لم أزاوله، اشتغلت نجاراً وحداداً ولياساً وبلاطاً ودهاناً، لكن أياً من هذه

المهن لم تسعفني في استرداد ثمن العقد. إلى أن نبت أمامي كالمصيبة، كأنما كان يترصدني منذ بداية الخلق، بلسان من المطاط، وأعصاب من الكاوتشوك. كان فوزي الداهوك مصيبة بكل المقاييس.، دفعه القدر باتجاهي وجعله يمسك بي من رقبتي كما تقاد شاة إلى ذبح، بدا لي ذلك الطريق يسيراً حينما أقنعني أنني أستطيع أن أجمع ثمن عشرين عقداً بسنة واحدة، وفوق ذلك أقدم خدمة لأولئك السوريين الذين تقطعت بهم السبل، يكدحون الليل والنهار، يموتون مئة مرة؛ قبل حصولهم على الدينار، ليجدوا ألف يد ويداً تمتد إلى جيوبهم، تفتش ثيابهم، أحذيتهم، مؤخراتهم، أمتعتهم قطعة قطعة، وربما خلعوا أغلفة الحقائب، ونعال الأحذية بحثاً عما يمكن أن يخفيه أحدهم من نقود، فلا يجوز أن يخرج دينار واحد خارج الجماهيرية. تلك كانت سياسة الدولة، ولا سبيل لاحتجاج.

لجؤوا إلى السفارة في طرابلس؛ مرجعيتهم الوحيدة في هذه البلاد، لكن السفارة كانت مشغولة بهم آخر. لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا أكثر من ذلك، حينما صاروا يبتاعون الليرات الذهبية فيبتلعونها، حتى إذا اجتازوا خطر التفتيش راحوا يبحثون عنها في دورات المياه.

جاء مشروع فوزي الداهوك إنقاذاً لهؤلاء البائسين، أخذت أجمع له الدنانير الليبية ديناراً بعد دينار، وهو بدوره يعطي مقابلها من رصيده في سورية. لقد أراني رصيده هناك، قرأت الرقم المذهل وسررت وأخذت الإرساليات تصل إلى أصحابها في وقتها تماماً.

ذات صباح جاءني مسرعاً مهووساً، قال إنه يحتاج خمسين ألف دينار، ينبغي أن يكون المبلغ جاهزاً خلال أسبوع، لديه صفقة في بنغازي، ولا ينبغي أن تذهب من يديه.

لقد امتدت بيننا وبين العمال السوريين جسور من الثقة، جعلت تأمين هذا المبلغ أمراً يسيراً، وبخاصة أننا أصبحنا رمزاً للنزاهة والأمانة. جمعته بأقل من أسبوع، ودفعته له. ودعني متجهاً إلى بنغازي.

لم أكن قد تذوقت طعم الخديعة قبل ذلك اليوم، ولا خطر لي أن فوزي الداهوك سيبيعني بذلك الرخص. لم أكتشف سذاجتي إلا حينما عادت الرسائل من سورية. أخذت أبحث عنه، لقد ذاب الملح في تلك البحار. متأخراً اكتشفت أنه في مالطا، وأن رصيده في سورية قد سبقه إلى هناك. من سيقنعهم أنني لست متواطئاً معه، أو أنني لست شريكه في الاحتيال؟!.

صارت مشكلتي أكبر من ثمن العقد، بعد أن تهدم الجسر الذي أقمته معهم، بل صار عليّ أن أبحث من جديد لأوقع معهم عقداً آخر؛ عقداً فيه من الثقة بقدرِ ما فيه من الشفافية والصراحة.

بين يوم وليلة صرت ملاحقاً، عيونهم، ألسنَتهم، أيديهم. أعلنت مسؤوليتي كاملة، وتعهدت أن أكون وفياً. وما زلت معلقاً من عرقوبي منذ عشرين عاماً أبحث عمن يفكني فلا أجد، أحترق كل يوم مئة مرة، يجمعني الليل بنهيلة والأولاد، ويفرقني النهار. كلما مرّ عام أحمل أملاً بعام أفضل، وبعودة أوفر، لكن الحظ الذي رحل برحيل فوزي الداهوك ما زال يدفعني باتجاه اليأس والقنوط.

كلما مضى عام حمل معه هماً أكبر، كنت أقرأ رسائل الأولاد، فيعتصرني الألم، حتى غدوت غير قادر على قراءة حرف من توهجهم وشوقهم، كبروا ولكن ليس على يدي، واستووا ولكن ليس على غصني، وأثمروا ولكن ليس في كرمي. هزمني حنينهم وشوقهم، وقصّر قامتي، قزّمني. غيرت مكان إقامتي أكثر من مرة، وفي كل مرة كانت تلاحقني رسائلهم، كيف يتيسر لهم اكتشاف مخبئي؟ لاأدري. يطلبون إليّ أن أعود حافياً، حاسر الرأس، ممزق الثياب، فهم لايريدون مالاً، يريدون أباً كغيرهم من الأبناء الذين ينعمون بوجود آبائهم. لكنني ما كنت قادراً على أن أتنازل عن كبريائي، لست أدري أهو كبرياء، أم عناد فارغ؟!.

يقولون إنهم صاروا شباباً، أخاف ألا استطيع التعرف إليهم إذا ما صادفت أحدهم في طريق.

هل كانت نهيلة على حق يوم عذلتني، هل كانت على صواب يوم دفعت إليّ بعقدها؟ وهل كنت قادراً على الالتزام بما قطعت من وعد؟.

في ساعة حلم يبني المرء قصوراً من المرمر، ويرتفع بها إلى أعالي السماء، وربما قارب النجوم. وحينما يصحو ويجد نفسه على قطعة من حصير، يدرك إلى أي حد كان مشغولاً بالأوهام.

* * *

دوامة سلمان فياض

صغاراً كنا في ذلك الحين، يوم أوغلت أمي في المرض. ما زلت أذكر كيف كانت تتلوى أمامنا، تطلب الموت، وكانت الكلمة تخيفني، وأشعر بانقباض شديد؛ كيف يتمنى إنسان ما الموت؟ وبأية همة يقابله؟!. لكن أمي ماتت... ماتت دون أن تخاف... عبرت إلى ذلك الجانب المظلم، وعيوننا تنظر. مشينا أنا وأخي حسين مع المشيعين، وكنا نبكي، وحينما كبرنا كبر بكاؤنا معنا، وصار يحاصرنا كلما انفردنا بأنفسنا.

يقولون إن الحزن يولد كبيراً ثم يصغر، لكن حزن الصغار يختلف. حينما بكيناها أطفالاً بكيناها دون حزن، رأيناهم يبكون فبكينا، وحينما صارت حياتنا تتعقد أخذنا ندرك صعوبة أن تواجه كل تلك الأعباء معطلاً، بلا أم تزرع في قلبك شيئاً من الأمل، والجرأة، والإقدام، وتمسح دموعك بكل ما لديها من جلد. لقد أخذ الحزن يلاحقنا لأننا نجابه منفردين.

احتواني حسين الذي يكبرني بسنتين. وغدت علاقتي به علاقة روحية، تشدني إليه أكثر من رباط الأخوة، ربما صهرنا ذلك

الحزن في بوتقة واحدة، فجعلنا ننام معاً، وننهض معاً، ونأكل ونشرب معاً، ونقرأ معاً ونحفظ معاً. حتى صرت أحفظ ما يحفظ، رغم أنه يسبقني بصفين.

لم يستطع حسين أن يتابع دراسته الثانوية؛ كان عبئاً على والدي أن يرسله إلى السويداء ليتعلم. ترك المدرسة مرغماً ومضى إلى دمشق، وكدت أطير معه، غير أن محسناً كريماً قص جناحي، فأسعفني على البقاء دون طيران فأنجزت.

رحيل حسين قصم ظهري؛ أنا الصغير الذي كنت أتكئ عليه بكل شيء، أداري به خجلي، أواجه به مشاكلي، أضعه متراساً في كثير من الأزمات، وكان سعيداً بهذا الدور الذي يقوم به مختاراً.

اشتعل قلبي لهيباً موجعاً، كنت بين الحين والحين ألحق به إلى دمشق، أبحث عنه في المطاعم... في المقاهي، في الأفران. حتى أجده بعد جهد في حالة مزرية، أشده إلى قلبي، أشده إلى أم ليوان، فيفلت من يدي؛ كأنما كان مغمساً بالصابون، وتتعثر محاولاتي جميعها. لقد أحس أنه ظلم، وقد ترك هذا الشعور لديه نفوراً من الناس، وبدأ يكرهنا، لا يطيق ملاحقاتنا، ما إن يدرك أنني جئت في طلبه حتى يختفي بين دقيقة وأختها.

لكن حسين كان يتطلع إلى شيء آخر يريد من خلاله أن يعوض ما فاته في المدرسة. كان يمتلك صوتاً جميلاً، وأداء رائعاً، وأخذ يفتش عن نافذة يدخل منها إلى ذلك العالم المدهش. عالم الفن الذي تلبسه حتى الجنون. من يصدق أن صبي فران

يستطيع أن يلج ذلك العالم المسحور؟! غير أنه وصل، وسمعنا صوته في الإذاعة. أنا طرت من الفرح، أصبحت أرى الدنيا من خلال حسين، وأشعر أن حسين قد كبر كثيراً. غير أن والدي كانت حساباته مختلفة، فالعالم الذي دخله حسين بالنسبة له عالم شيطاني؛ فمن الذي يمنع حسين من أن يتزوج من مغنية، رقاصة؟!. ومن غير ملته؟! .. لذلك بادر إلى ذلك القرار الجائر، حينما باع جزءاً من الأرض، وخطب لحسين دون علمه. ذهب إلى دمشق بنفسه، واقتاده إلى أم ليوان موجوداً، ليجد العرس قائماً.

منذ تلك الليلة انقطعت علاقة حسين بالشام وعالم الفن، صار أمامه أفواه مفتوحة، وأذرع ممهدة، ومهمات جديدة، بعد أن استضاف ولدين يتلو أحدهما الآخر.

حين قرر حسين التوجه إلى الجماهيرية لم يقف أبي في طريقه ولا أنا، كنا مأخوذين بالأنباء التي كانت تصل من هناك؛ تتحدث عن عيش رغيد، ورزق وفير، وكنا نعتقد أنه لن يطول به المقام حتى يستقدم عياله كما يفعل الآخرون. كانت الإرساليات التي تصل عن طريقه إلى أصحابها دافعنا لذلك الاطمئنان. وحين بدأت أزمته، ظننا أنها أزمة عارضة، لم نستطع تقدير حجم العبء الذي كان يتحمله، ولا حجم المبلغ الذي تورط فيه.

أخذت أراسل معارفه هناك، لكن أحداً لم يضعني في الصورة الصحيحة. فكرنا ببيع كل ما نملك في سبيل فك الأزمة، غير أن الاتصال كان قد انقطع حينما قرر حسين أن يعالج المسألة بطريقته الخاصة. لم نستطع الوقوف له على أثر، فيما أخذ الأولاد يكبرون، وكلما كبروا ازدادت أسئلتهم دقة وازدادت حرجاً ووجعاً؛ ما الذي يمنعه من العودة؟!. وحين وضعناهما في الصورة بدا لهما أن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد، وما دام الأب راغباً في رؤية أبنائه فلا يمكن لعائق ما أن يحول دون إرادته. وعندما قرر أحدهما ترك الدراسة ليسافر إلى الجماهيرية بحثاً عن أبيه ردعته، ورأيت أن الأمر يتطلب التدخل، فتعهدت أنا هذه المهمة.

منذ عام وأنا أبحث عنه، لم أترك جهة من الجهات التي يتواجد فيها السوريون إلا وتوجهت إليها، اتجهت إلى طرابلس، إلى زوارة والجميل، إلى غريان في الجبل الغربي، إلى بنغازي والجبل الأخضر. وكنت كلما اتجهت إلى ناحية رأيت أنه غادرها إلى ناحية أخرى، كأنما كان يرصد حركاتي في تعقبه وملاحقته، إلى أن وصلت إلى طبرق وكان على وشك أن يغادرها.

إن جولتي في مدن الجماهيرية جعلتني أرى حسين في كل مدينة، منسوخاً عشرات النسخ، نسخاته مطروحة في الأحواش بلا نفع، ولا فعالية، عملات باطلة، منهم من فقدوا جوازات سفرهم، وكل ما من شأنه إثبات شخصياتهم، ففقدوا إمكانية

العودة. ومنهم من لا يستطيعون العودة لأنهم متخلفون عن تأدية الخدمة الإلزامية، وآخرون لازمهم المرض، دون أن يترك لهم حيلة، وباتوا لا يملكون ثمن تذكرة العودة. والأكثر من ذلك فالسفارة لا تيسر أمر من يودون العودة، فهم مطالبون بدفع رسم الاغتراب المترتب عليهم ليتمكنوا من الحصول على جواز سفر يعيدهم إلى بلادهم.

لم أكن أتصور حجم هذه الكارثة قبل الآن. فمن الذي عليه أن يدفع رسم الاغتراب؟!. العامل الذي لم يجد في بلده قوت يومه، ففر يطلبه في بلاد الله، ناجياً بنفسه، ومخففاً وطأة الحمل عن بلده؟. أم البلد الذي طوق أبناءه بالحاجة؛ فباتوا يُقتلون شوقاً لأبنائهم وزوجاتهم؟ .

هكذا وجدت نفسي في المأزق، أعيش المأساة بحذافيرها، لقد أصبح هؤلاء كلهم حسيناً بنظري، أنظر إليهم كما أنظر إلى حسين تماماً، وما من سبيل لفعل أي شيء.

* * *

ضفاف الحياة

لم يكن لديّ خيار آخر حينما دعوني لذلك الاجتماع. الشرط الوحيد الذي استطعت أن أضعه قبل موافقتي أن يرافقني عابد مسعود. عندئذ قال لي سلمان فياض: ستجد عابد مسعود أمامك. وحينما وصلنا وجدناهم يملؤون المربوعة، وعابد مسعود يملأ المكان بحضوره. تمنيت لو نستطيع عقد مثل هذا الاجتماع هناك دون مساءلة، تحدثنا كثيراً، وشرقت الآراء وغربت، واشترك في الحديث من يعرف ومن لا يعرف، وأنا مبتهج لذلك المناخ المشبع بالحرية، اختلفنا، وتشاددنا، لكن ما من أحد استطاع أن يصادر رأي الآخر. أسسنا في ذلك الاجتماع لما أصبح يسمى بالبيت السوري. دافعت عن فكرتي ببسالة؛ لا ينبغي أن تنفردوا بمشروعكم دون باقي السوريين ، كنت أرد بذلك على أولئك الذين رفعوا رايات محلية ضيقة، وأرادوا أن يغلقوا الباب أمام الآخرين من أبناء الوطن، الذين يقاسمونهم المشقة والعناء، والشوق واللهفة، إلى نسيم يأتي من ناحية الشام. هل كنت متعصباً لسوريتي إلى هذا الحد؟!. وطالما أنشدت بحماسة «**بلاد**

العرب أوطاني». ربما! فمن أراد أن يرى سورية بالعين التي رأيت وأنا هناك؛ فليحتقب وطنه وليودع أحباءه وليتكل على الله، عندئذٍ يدرك أن المرء يمكن له أن يستأجر سيارة أو طيارة، وربما مركبة فضائية، كي يصل إلى حبيبته، لكنه أبداً لا يستطيع أن يستأجر فماً ليقبلها.

كاد الاجتماع أن ينتهي بلا اتفاق، وجرى أخذ ورد، وجرى تهديد بالانسحاب، وتهديد بالمقاطعة، غير أن اللهيب الذي كان يستعر في تلك الصحراء جعلنا نخرج من الاجتماع بموقف موحد.

كانت وكالات الأنباء تبث خبر الصواريخ العراقية التي كانت تنهال على وزارة الدفاع الإسرائيلية للمرة الثانية والثالثة، ولأول مرة في التاريخ العربي المعاصر، وإسرائيل للمرة الأولى أيضاً معتصمة بحبل الصمت. بيد أن الأنباء تتحدث عن دخول خمسمئة طائرة إسرائيلية إلى ساحة المعركة مع قوات التحالف. ومحطة مونتيكارلو التي كنا نتابعها بلهفة، اعتبرت أن فعل الصواريخ العراقية السياسي أكبر بكثير من أطنان البارود التي ألقاها الحلفاء على بغداد.

في اليوم التالي كان عليّ أن أخرج مع مدرسي المعهد وطلابه للمشاركة في تظاهرة شعبية استنكاراً للعدوان الأمريكي على العراق، وذلك ضمن حملة المظاهرات التي عمت مدن الجماهيرية كافة. أفواجنا الغاضبة سارت جنباً إلى جنب مع مظاهرة العمال الأتراك الذين يعملون في طبرق، لقد خرجوا

ينددون بحكومة توربات أوزال التي جعلت من الأراضي التركية معبراً لطائرات أمريكية؛ ما فتئت تنقض على العراق. لقد أدهشتني حماسة أولئك العمال وهم يهتفون بالتركية تارة وبالعربية تارة أخرى، ويرفعون اللافتات ، يطالبون توربات أوزال أن يُغلق أجواء تركيا في وجه الطيران الأمريكي .

* * *

مرهقاً عدت إلى البيت، لتجد رمزية في أشد حالاتها توهجاً، لكأنها عادت إليك من البحر، رمزية جديدة لها طزاجتها الأولى، ونكهتها الأولى، وإشراقتها الأولى. ما الذي تغير؟!. تسأل نفسك، تشك أن يكون ذلك شيئاً من التمثيل، تريد رمزية من ورائه أمراً ما. لكنك تقرأ في عينيها ذلك الصفاء الذي كنت تراه أيام زمان، شيئاً بعيداً عن التمثيل. نشيداً فيه من الصدق بقدر ما فيه من اللوعة، وفيه من الرجاء بقدر ما فيه من الحزن:

- **سالم!.**

تتنبه... تستفيق، تستيقظ كل جوارحك... قلبك... أحاسيسك. تنظر إليها مستفهماً بعينيك، فيما قد جمد كل شيء... كل شيء.

- **بتحبني؟!.**

تزداد دهشة، يتولد في داخلك شعور غير متجانس، مزيج من القلق والفرح والخوف والطمأنينة، لا تستطيع أن تحدده.

تجيبها:

- رمزية؟! شو في؟!. قولي! .

ورمزية تعلقك في سفود... تقلبك على جمر ترددها... تولف الجملة التي ستبدأ بها:

- أنا كذبت عليك.

لم تستوعب، لم يبقَ ثمة تواصل بينكما. كأنها تحدثك بلغة أخرى.

- كذبتِ؟!.

هزت برأسها، وغضت من طرفها، وحدثتك عن حملها الكاذب؛ لم يكن هناك حمل... كانت محاولة سخيفة كي تضعك في دائرة الاطمئنان، محاولة فاشلة لزرع الطمأنينة في نفسك وإعادة الثقة لك، لكنها كانت محاولة سخيفة على كل حال. تواجهك بالحقيقة عارية، مكشوفة، تتوسل إليك أن تغفر لها حمقها وخطيئتها. لم يبقَ أمامها إلا طريق واحد بعد أن تقطعت السبل في رحلتها الهوجاء إلى الحاجة عايشة. تتابعها باهتمام أكثر، يثيرك هذا الانقلاب المفاجئ، تنظر إليها مستفهماً. تفصح لك:

- مرت عابد مسعود ظلت عشر سنين.

رفعت عشر أصابع أمام عينيك، وتابعت:

- وبعدين الله طعمها. .

- عن طريق الحاجة عايشة؟!.

تنظر إليك متوسلة مستجدية:

- سالم! الموجوع بيتعلق بالهوا... كانت غلطة.

تحافظ على صمتك وهدوئك. تفتح يديك علامة استعدادك لسماع اقتراحها.

- راحت على الإسكندرية.

- أيضاً هناك في حاجة عايشة.

- سالم أنا بحكي جد.

- وأنا سامع .

- والله النافع؛ انتفعت.

لم يبقَ أمامك إلا أن تعانقها، هذه الساعة أنت تنتظرها، طالما رجوتها، وابتهلت لها، وصليت في محرابها.

أخذتها بيديك، تأملتها... رمزية طازجة من أيام شارع الشعراني في السويداء. نزفت دمعتين، والتصقت بك أكثر، مسحت دموعها بيديك، وضممتها، وخلعت عليها قبلة حارة. هاأنتما تعودان الآن عروسين، تعيشان طقساً صاخباً، اختفى كل ذلك النكد، وغابت كل تلك الانفعالات، وبقي الحبل الذي يشدكما مضفوراً.

* * *

معذى محمود... انكشاف

ذلك الرجل يشبه معذى محمود، يخلق من الشبه أربعين، رأسه المتطاول، قامته المديدة، مشيته التي تشبه مشية الجمل النجدي. اقتربت أكثر... الشبه يزداد لدرجة التطابق... أكثر... إنه هو؛ بشحمه ولحمه ونوسانه.

- معذى؟! لا.

التفت، كأنك انتشلته من قاع بئر عميقة. اشرأب، فتح عينيه، لم يصدق:

- أستاذ سالم؟!.

وانكب عليّ يلتهمني، فيما تعطلت أدواته على حدود اسمي. أدهشتني تلك اللهفة، أدهشني ذلك الانسياح، مثلما أدهشني حضوره المفاجئ.

- منذ متى؟! .

وفتلت أصابعي أمام عينيه.

نظر إليي، حاول أن يتماسك، رفع إصبعيه السبابة والوسطى، ورقصهما بفتور، دون أن يتكلم. لم أستطع إدراك المدة التي نهضت أمامي، كم مضى على وجوده في هذه البلاد ؟! أهما يومان؟ ... أسبوعان؟... شهران؟. غير أنه لم يتركني في ذلك البرزخ حينما تماسك أكثر:

- **يومين وأنا إسأل عنك.**

- **عني؟!.**

يرتد معذى محمود إلى الداخل:

* * *

«من يقنعه أني لست متواطئاً معهما؟ جعلوا من ثيابي فزاعة حينما نثروني هناك في بيت رمزية. لم أستطع مواجهته لأغسل نفسي أمامه، وأنفض يدي من لعبة كنت بيدقاً فيها. كنت أراه فأبتعد، أنحرف إلى طريق آخر، وربما عدت من حيث جئت حينما يكون الممر به إجبارياً. أراه من بعيد، أشم رائحة العطب الذي أحدثته ريوف ونعايم .

تلك الليلة كانت الريح تسخر من قامات الأشجار الشامخة، شقّ أذني صوت، كانت ريوف، وكان صوتها يحمل رائحة الهلع. خرجت، وخرجت مهيبة زوجتي:

ـ ريوف ؟!.

كانت ريوف تحمل قامتها المتهدلة، ولسانها يلوب في زاوية فمها. مذعورة نطقت:

- **شي صار يخبط على الباب.**

- شي؟!. **شو يعني؟!.**

- **زلمي؟! .. غير زلمي؟! .. ما بعرف.**

انطلقت مذهولاً، فتشت المكان... الحوش... الباكية، الحاكورة، خلف الدار، ومهيبة تتبعني.

لا شيء... لا شيء على الإطلاق غير الريح، أقنعت نفسي أنه الليل... وأنها الوحدة:

- **ما في شي يا ريوف.**

- **معقول؟!.**

- **إنت خايفة.**

أثارت نعايم كثيراً من الشك حينما برزت لي، من أين خلقت هذه الآفة؟. ما الذي جعلها تتداح في هذه الليلة الممسوسة؟!. هل وصل صوت ريوف إلى هناك؟. غير معقول. غير أني بدأت أقنع نفسي إنها جاءت تؤنس أختها الوحيدة.

كل شيء كان واضحاً في الصباح، حينما هبت العاصفة. جاءتا تحملان ثيابي، وتحملان لي سيلاً من الشتائم وأنني كلب عقر سيده. وأنني خنت الملح، «**ومن أمنك لا تخونه ولو كنت خوان**».

وصدقت مهيبة الكذبة، مع أنها تعلم أني لم أغادر فراشها تلك الليلة، وخاضت مع نعايم وريوف في حديث الإفك. وصار اسمي بين الناس « أبو الليل ».

وحده عمي أبو سالم اعتنق براءتي، وقطع ألسنة النـــاس، يــوم رجاني أن أبقى، غير أني كنت قد قررت أن أترك ربعي وأمشي.

منذ ذلك التاريخ لم أواجهه، غير أنه صار لزاماً عليّ الآن أن أفضي بكل شيء».

* * *

وجدت نفسك تنجذب إليه، لم يكن بينكما ما يدعو إلى ضغينة، ولم تكن تعتقد أنه قد تواطأ معهما عليك. اليوم ستنكشف الأوراق كلها، سيكشف لك عن أشياء مذهلة، وسوف يسوق لـــك معـــذى محمود ما يجعلك تعود إلى رمزية نازفاً جرحاً قديماً.

* * *

آه يا رمزية!. لو تعرفين من التقيت اليوم. رأيت معذى الذي أرادوا أن يصنعوا منه بوابة عبور إلى كرامتك وسمعتك. معذى الآن في طبرق، حينما رآني بدأ يعزيني بك؛ وقف أمامي، واتخذ هيئة رسمية وقال لي:

- **العواض بسلامتك.**

قفز قلبي إلى فوق، ظننت أن والدي قد راح، وأن رئيفة قد أماتته صبراً. وحينما رسم وجهي علامة فزع شديد استدرك قائلاً:

- من جهة المرحومة رمزية.

عند هذه النقطة وقفت، وبدأت من أول السطر، ظننت أن الرجل قد ترك عقله في المجدل حينما جاء إلى طبرق صفر الرأس:

- أي رمزية يا ولد ؟!.إنت بعقلك؟!.

استدرك الرجل، كأنما أفاق من كابوس:

- يعني رمزية بعدها...

وسرد لي حكاية وادي السيسبان، والذي «**راح يجيب للغالي رمان**» قال إن الخبر وصل إلى المجدل يزغرد، رسالة من طبرق حملتها الزوابع والتوابع إلى رئيفة، ورئيفة بدورها دفعتها باتجاه والدك:

- خوذ... قرا.

وحينما فتح والدك الرسالة انتشر الخبر. من الذي حمل الرسالة من طبرق؟ لم يسأل أحد. أخذت رئيفة تستقرئ الرسالة كلما أتى إلى البيت من يحسن القراءة. وترحموا على رمزية، وأقاموا لها مأتماً، وختم الحكاية بقوله:

- أجر رمزية ما صار، كان مثل أجر الزلم .»

* * *

حملك معذى على بساط من الريح وطار بك إلى هناك؛ آه كم كنت محترقاً شوقاً!. وكم هي بعيدة المجدل الآن!. كلما هب نسيم من تلك الجهات حمل معه ذلك الغبار. وتبقى المجدل مساحة من حزن أبدي، ومساحة من حلم عشقي.

ماذا تريد رئيفة أكثر؟!. تركت لها المجدل بقامتها الممـــدودة على سفح ذلك التل. لم تكن المجدل مجرد بيوت تتثاءب علـــى هضبة، لكنها ذكريات طفولة تربعت فوق ذاكرتك، هي سُـــهول مزدانة بآثار الأقدام؛ أقدامك وأقدام أترابك ممن عشقوا المجدل، وناموا في جفنيها؛ لا مقرورين ولا محرورين. هي على شفتيك ومبسمك يوم كنتم تحملون أشـــياءكم الـــصغيرة ومـــشاغباتكم؛ تقطفون «البراقطة وقطّاش الجاج» وتصنعون منها قلائد تزينون بها صدور أمهاتكم. صخور أوديتها مرشوقة بأسمائكم المحفورة حتى الهلاك، لتبقى على مدى الزمن تحكي حكاية أولاد أشقياء.

هل تستطيع رئيفة أن تلغي المجدل من ذاكرتك بهذه البساطة؟.

قالت لك رمزية حينما دفعت إليها بالخبر إنها فرحانة الآن، وكي تسوّغ لك ذلك الفرح أحالتك إلى وريدة في تعاملها مع الأحلام:

- **وريدة بتقول : إنه هلّي بيموت بالمنام بيطول عمره.**
- **لكنك متّ باليقظة.**
- **بدك أبشع من هالمنام؟!. هذا كابوس مش منام بس.**

وأصرت رمزية على رؤية معذى، تريد أن تسمع تفاصـــيل حكاية وادي السيسبان. لكن معذى أبى أن يتحدث. قال:

- **ما بيصح عند ربك غير الصحيح.**

* * *

حمزة كنج... إيغال

تلك الظهيرة كانت ريح كارثية، من تلك التي تحمل أطناناً من رمال الصحراء الكبرى لتلقي بها في جنون وعبثية، فوق البيوت والشوارع والساحات، وعلى الأرصفة. غدت طبرق غبراء برتقالية، كل شيء فيها يحيلك إلى عماء، وأنت تختنق... تعجز أن تلتقط أنفاسك، تقتصد في التنفس كي تحمي رئتيك من أقل قدر ممكن من الأجسام الدقيقة، التي تلعب فوقك وتحتك، وعن يمينك وشمالك، وحول منخريك.

تدخل الحوش، توصد الأبواب، تحكم إغلاق النوافذ، بيد أن تلك الذرات الدقيقة تأبى إلا أن تتسرب من أي ثقب... من أي شق، لتشرفك في بيتك، تتصبر فوق المقاعد والطاولات وكل أثاث البيت، تتربع فوق فراشك، فتصبح أنت جزءاً من الأثاث المغبر، تتلمس بأصابعك جبينك، وجنتيك، جفنيك، فتحتي أنفك، فإذا أنت غارق في ذلك الهباب الرملي، تسبح فيه من أخمصك إلى قبة الرأس.

تعيسة تلك المدينة التي تفجؤها العواصف بين الحين والحين، فتغدو قطعة من ليل طيني، تلعب الريح بأشيائها المهملة، وبأكداس نفاياتها المتحفزة للانطلاق، لعبة القط والفأر.

فجأة سكنت الريح كأنما غرقت في بحر طبرق، وأخذت المدينة تستقبل طقساً آخر؛ بدأ أولاً بقطرات خفيفة تنهمر باتزان مشوب بالخجل، تجمع ما علق في الجو من عوالق، وتسقطها على الأشياء فتزيد من ترابيتها وتعاستها، وتمنحها وجهاً لا يمت إلى أبجديتها بأية قرابة.

ثم أخذت القطرات تتتابع متسارعة... صارت وابلاً... صارت حبالاً مطرية تصل ما بين طبرق والسماء، تغسل البيوت والنوافذ والسيارات. ابتهجت أنت، وابتهجت رمزية معك حين كانت تعالج دفق الماء الذي أخذ يتسرب من جهة الريح. وقفتما تتأملان تلك الرايات التي تعتنق الفضاء، أعادتكما تلك الرايات إلى مجد المجدل، ونوئه الصاخب، غير أن نوء المجدل له شأن آخر حين تكتسي الأرض ببياض الثلج.

* * *

«أتذكرين يا رمزية تلك العاصفة؟! يوم نهضنا فإذا فتحة الباب مصكوكة بالثلج، وظلفتا الباب تتركان على الجدار الثلجي بصماتهما الخشنتين. يومذاك شق علينا أن نجد أنفسنا محبوسين، لكن قدرا كبيراً من السرور كان يداخلنا، كيف لا نفرح يا رمزية والعيون قد اغتسلت بنور الثلج الذي لم نره طوال العام الفائت.

كان نصيبنا من الثلج تلك السنة أضعاف ما أصبناه في أربعة أعوام ماضية. قدر ذلك سليم يوم هرع إلينا برفشه، وفتح ثغرة، عبرنا منها إلى الدنيا البيضاء، فضاقت أحداقنا، وغامت الرؤية للحظات، ثم انفتحت على الفضاء الطارئ بعد ذلك، لتمتد أبصارنا إلى أمداء لا نهاية لها من النور.»

* * *

جذبتك رمزية إلى منبع الماء في المربوعة الذي أخذ ينسكب من النافذة المطلة على الشرفة الجنوبية فإذا أنتما في مواجهة سيول أخذت تتجمع في الخارج قطرة قطرة، فتملأ الرحاب حولكما، وتجعل الشوارع والساحات بركاً سائحة لا نهاية لها، تزدخر مياهها البرتقالية ولا تجد لها منفذاً باتجاه البحر.

اشتهيت الخروج في هذا الصخب المطري، أخذت رمزية تعذلك ... ثم ما لبثت أن تشبثت بك، كأنما أنت ذاهب إلى حرب الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود:

- **وين رايح؟!.**

لا شيء يقنعها أنك مجرد مجنون تعتزم الاغتسال، تريد معانقة النوء الطارئ. حاولتَ المقاربة بين جنونك ولهفتها:

- **من زمان يا رمزية...**

- **مشتهي تغرق؟!.**

- **لا، بس مشتهي إتفرج... إفرحْ... بلكي...**

واندفعتَ تلملم رجاءها، وتتلقى فيوض السماء بصدرك، ورأسك المكشوف، وقدميك اللتين تنتعلان حذاءً لا مطرياً. عبرت الجبيلة الحمراء إلى الجسر، أطللت على الجنسية، بعينيك رأيت السيارات قد تحولت إلى زوارق، بيد أنها لا تملك إمكانية الحركة. لم تخلق طبرق أبداً لمثل هذا الاحتقان؛ فالسيل المتجه نحو البحر جنوباً لم يفلح كثيراً في تخفيف منسوب الماء الذي أخذ يعلو ويعلو. رأيتهم يغادرون سياراتهم بعد أن وصل الماء إلى محركاتها، ولم تعد قادرة على الاشتعال.

ومن شارع إلى شارع ، ما كان يمكنك العبور دون أن تخوض إلى ما فوق ركبتيك. «ما الذي دفعني إلى هذه المغامرة المجنونة؟! » كنت تسأل نفسك وأنت تقطع السيل العرم. تذكرت سؤال رمزية: **«وين رايح ؟»**

* * *

آه يارمزية لو تبصرين سالم النصيرات الآن وهو يمارس جنونه، يخوض غمار الماء، يستبسل كي يجد منفذاً يقل فيه ارتفاع الماء عن حبله السري. والعودة إلى الحوش غدت مستحيلة في هذه الظروف، تقوده قدماه إلى حوش أولاد قميرة. طالما كان شغوفاً بزيارة هؤلاء القوم، ولكن بغير هذه الهيئة. يريد أن يسدي لهم نصيحة ما فتئ يرددها كلما جالس أحدهم؛ أبداً ينحرف الحديث باتجاه سورية؛ لا تنسوا أرضكم هناك،

أهلكم...نساءكم... نسائم بلادكم، باختصار كانت نظريته تقوم على الافتراضات؛ لو اشتغل هؤلاء بالوتيرة نفسها كما يعملون هنا لتغير وجه الأرض. وربما اتجه الحديث إلى السياسة:

«تصوروا معي؛ لو تجمعتم هناك، أكثر من مليوني لاجئ، يتوزعون في أقطاب الأرض من النقاط الخمس في أقصى الغرب من الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى إلى الهفوف في أقصى الشرق من المملكة السعودية مع حفظ الألقاب، ما الذي سيحصل؟ ستتغير الموازين، ويحسبون لكم ألف حساب، وسوف يصبح بالإمكان أن تروا الإجاص قد أثقل أشجار الصفصاف.»

* * *

كنت في وضع يثير الدهشة، فغرت أفواههم دفعة واحدة حينما رأوك تعبر الحوش بهذه الهيئة المطرية. لم تبح لهم بدوافع مغامرتك الخرقاء تلك، كل حججك كانت تختصر في أنك خرجت من المدرسة لتستقبل هذا الوابل المشاكس، فانحرفت بك طريق الجبيلة الحمراء إلى سوق العجاج حيث تتجمع أكثر من عشر عائلات سورية في أحواش متقاربة، تفصلها مساحات من الرمل، خالية من الأبنية والطرقات والخدمات.

تلقاك أولاد القميرة بلهفتهم المعهودة، كأنك وإياهم على موعد. هتف مثقال الحلبي: ها قد جاء الأستاذ سالم بنفسه، دون أن يكلفنا عناء الذهاب إليه. احتفى بك مثقال حين قدم لك كرسياً

لتأخذ مكاناً في المربوعة، فتصلح ما أفسده طريقك الوعر. أخذت تتفقد وجوههم وجهاً وجهاً، ثمة وجوه لا تعرفها. بادر مثقال إلى قطع حبل الصمت الذي استجد فترة دخولك :

ـ حمزة كنج من بنغازي.

هكذا صاروا ينتسبون إلى أماكن عملهم واستقرارهم، دون أن يكونوا معنيين بتلك البلاد التي عجنتهم وخبزتهم، وأودعتهم سرها، ونفثت في أجسادهم أرواحاً، وقذفتهم بعد أن قالت لهم سيروا في مناكبها.

أحالك الاسم إلى هناك، إلى حزمة من الضوء تشتعل في سرّة الجبل، ولجتها، يوم عقدت العزم على أن تجعل من رمزية خشبة تحملها على ظهرك وتدور. يومها دخلت سهوة الحدادين وحواشيها من الزمرد، أدهشك ذلك التناغم القائم بين مفردات تلك الطبيعة، صخور تشمخ بقمة جبل، تتعانق مع أشجار البطم والسنديان، هذه تمنحها البهاء والنضارة والحياة، وتلك تكللها بالجلال والأبهة والفخامة. سحرتك تلك الطبيعة الشموس، وتلك الطريق المتعرجة، وأنت تقطعها بالسيارة، وأيقنت أن طبيعة بهذا الجنون لن تخلق أناساً كسائر البشر، إذ لا بد أن تكسبهم هذه الطبيعة الساحرة شيئاً من جنونها، ذلك الجنون الذي يجعل صاحبه مختلفاً؛ في حبه وكرهه، في سحنته وطراز تفكيره، في أريحيته وأنانيته، في شهامته ونذالته.

* * *

عند نزولي من السيارة اعترضني بيت، كنت أسأل عن أهل رمزية، فقد جئت أحمل قامتي إليهم، أقدم نفسي بلا أوسمة. قال لي الرجل الذي استقبلني أمام باب البيت :

- **أنت خطيب رمزية ؟ ! .**

هزّني السؤال... ساءني أن يختصر اسمي بخطيب. قبل أن أكون خطيباً لرمزية فأنا سالم النصيرات بالطول والعرض، علم منَ أعلام المُجدل، معرف بالعلمية لا بالإضافة. شكل لي الرجل صدمة، لكنني لم أشأ أن أدخل في جدال معه. وحين هززت برأسي علامة الإيجاب قال:

- **تشرفنا.**

خرجت هكذا حيادية، بلا أبعاد، كأنما يخاطب نفسه. بيد أنه استدرك:

- **أهلاً وسهلاً... صرت محسوب علينا.**

صار الرجل أكثر أنساً، ودعاني بحرارة، وحينما اعتذرت ودعني قائلاً:

- **خطيبتك بنت حلال... بتستاهلها.**

لم أشأ أن أمضي قبل أن أتعرف على اسمه، تبادلنا الأسماء، ومضيت.

* * *

عفيف كنج... ظل اسمه في ذاكرتي، لا أدري لماذا، ربما لأنني كدت أظلمه حينما فاجأني بسؤاله الأول، ثم ما لبث أن استقر الاسم في الذاكرة، مثلما تحتضن طيراً أوشك على الفرار. أيكون حمزة كنج من هناك؟! .

* * *

أطلقت لذاكرتك العقال. صورة ذلك الرجل، صوته، طريقة حديثه، ثم وجدتك تسأله:

- **كنج سهوة الحدادين؟ أو...**

- **لا، سهوة الحدادين.**

وبدأ حمزة كنج يقدم نفسه على طريقته وكما يشاء، في محاولة لكسر الحواجز.

* * *

لم تكن طبرق في حسابي أبداً، كنت أبحث عن معهد تكوين كي ينتسب إليه سامي ــ وأشار بيده إلى شاب وسيم يجالسه ــ سامي أنهى مرحلة التعليم الأساسي، ولا يريد المتابعة في الثانوية العامة، يعشق الميكانيك كأنما خلق لهذه المهنة. لم يقبل في بنغازي، ولا في البيضاء لم يبق إلا معهد التكوين في طبرق.

أنا أعمل في التجارة، ويمكن أن أنقل عملي إلى طبرق، إذا وجدت الظروف ملائمة، لدي علاقات متشعبة في جدابيا والبيضا والمرج، ولي عملاء خارج الجماهيرية؛ في مالطا ومصر

وتونس... لو احتجت بضاعة بمئة ألف دينار لا يحتاج مني الأمر إلا أن أرفع سماعة الهاتف؛ بعد يومين أو ثلاثة أيام تكون البضاعة جاهزة للاستلام. الصدق في التعامل مسالة أساسية جداً، تكسبك ثقة الآخرين واحترامهم. أنت تستطيع أن تصنع نفسك بنفسك... سمعتك بيدك.

أنا لست جديداً على هذه المهنة، في سورية كنت أزاول التجارة، أطلب الطلبية من الشام أو من حلب، فتصلني إلى محلي في سهوة الحدادين، بعد يوم أو يومين على الأكثر، عملائي يثقون بي... هذه الثقة لا تأتْي إلا بعد تجربة.

* * *

أنت تسمع، يأخذك حديثه إلى تلك الأمكنة التي أتى على ذكرها. لكنك تنتظر النهاية... خلاصة الكلام. ماذا يريد الرجل من هذا الإسهاب؟!. هكذا مجرد كلام؟. الرجل يوطّئ لشيء ما... ربما. حركاته... تقاسيم وجهه... أسلوبه في السرد.

كنت مستعداً أن تسمع هذا الهذر حتى نهايته، دون تعليق. رأسك فقط يهزّ لدى الانتهاء من كل مفصل من مفاصل حديثه، لست معنياً كثيراً بهذا السيل من الكلام، لكن الذي شغلك هو قولهم: «محتاجون إليك»، هكذا هتف متقال لدى استقبالك، حتى الآن لم تبرز هذه الحاجة.

كان المطر قد انقطع في الخارج، والمياه تأخذ طريقها إلى البحر ببطء وتكاسل.، غير أنه لم يبق من أثر للغبار الذي خلفته العاصفة. أردت أن تنهض، استوقفك مثقال:

- **الأخ حمزة محتاجك.**

- **محتاجني؟!.**

- **نعم يا أستاذ سالم.. قاصدك من بنغازي.**

- **تفضل... على الذي أقدر عليه.**

- **تعرف أحداً بأمانة التكوين؟**

- **أنا علاقاتي بأمانة التعليم.**

- **عارف... لكن أريد سامي بمعهد الميكانيك.**

خطر لك صديقك عبد المجيد... عبد المجيد يمثل شبكة من العلاقات قد تصل إلى الأخ العقيد، نعم... عبد المجيد. وعدت إلى البيت تحمل أمل لقائك بعبد المجيد كي يسعفك في حل مشكلة حمزة كنج.

ظل اسم حمزة كنج يجلس القرفصاء على رأس لسانك حتى وصلت.

* * *

- **التقيت اليوم يا رمزية بواحد من سهوة الحدادين.**

هبت رمزية واقفة كما لو لسعها تيار:

- **مين؟!.**

- حمزة كنج، ابن بلدك، صح؟.

وتحولت رمزية إلى لبؤة.

* * *

« آه يا سالم لو تعرف من هو حمزة كنج؟!. حمزة كنج هـذا أوصلني إلى القبر، وحين أعياه دفني التفت إلى... »

لأول مرة بعد زواجها من سالم تتذكر المرحوم زوجها، وتلتهب على درب الحكاية، برز ذلك فجأة منذ أن فتحت رمزية عينيها إلى أقصى بياضهما.

* * *

أكملي يا رمزية ! ماذا تخبئين عني؟ ما الذي تحتفظين به في سريرتك كل هذه السنين؟!. أم تظنين أن أوشال الماضي قد تغرقنا بأوحالها؟.

* * *

كانت قد مضت مدة على خطوبتنا حينما فاجأني بقامته :

- رمزية!. وراكِ والزمن طويل.

- شو إلك عندي؟!. حل عني؛ لو تنقطع الزلم عليّ ما....

- والله! لو أرتكب جريمة ما راح تصيري له امرأة.

سكتت رمزية فجأة كمن يهيئ نفسه لمعركة. تنهدت تنهدة انشق لها صدرها:

« لم أقدر على السكوت بلّغت علي، ما حكيت لك عن علي من قبل، ما صاقب الحديث، الآن صار عليّ أن أحكي رغماً عني، كأنه يقف قدامي بشحمه وبلحمه، قامة طويلة مثل الرمح، عيون مثل عيون الصقر، يداه مليئتان مثل خفي جمل، لا تزعل يا سالم!. أنا إحكي عن رجل ميت، مات علي يا سالم وترك لك رمزية. لا حاجة لأن تغار، هل هنالك من يغار من ميت ؟!. كان رجلاً لا شبيه له؛ لا بسهوة الحدادين ولا بغيرها. إذا وقف وقفت له السلاطين، وإذا قعد قعدت الملوك حواليه عن يمينه وشماله، سبحان الله... الله المسخر ».

أنهت رمزية نشيدها بدمعتين.

* * *

- عم تبكي عليه يا رمزية؟!. ولاّ على حالك؟.

- لا يا سالم... على موتّه اللي بلا ثمن.

* * *

كانوا في كانون الكبير، يومها كان كل شيء أبيض، ما عدا قلب حمزة كنج، المزاريب تصنع أعمدة تتصل بالأرض، والمناهل تكسوها طبقة من الجليد لا سبيل إلى كسرها إلاّ بالمعاول والمهدات، ولا سبيل لأخذ الماء إلا بكسر طبقة الجليد، جليد سميك استخدموا المهدة عندما فتحوا ثغرة لتعبّئ النساء جرارهن.

حمزة كنج كان صاحب الاقتراح بعد أن فتحوا الثغرة، قال للشباب: هل جربتم اللعب على الجليد؟!. لم يحتج لغير هذه العبارة، اندفعوا فوق الجليد كالجمال، أخذوا يتعاركون، لعبوا «السبرّكة»، كثيرون الذين زلت أقدامهم وانساحوا فوق الجليد. وحين كانوا ينوون الاعتدال كانت أقدامهم تسحلهم إلى مسافات أبعد. ملؤوا السهوة بصياحهم، اجتمع الرجال ... أهل السهوة صغاراً وكباراً، كأنهم في عرس، اصطفوا حول البركة، وأخذوا يشجعون الشباب، ما عدا العقلاء منهم الذين أدركوا خطورة اللعبة.

لكن صوت العقل كان قد غاب في تلك اللحظة؛ حينما أعلن حمزة كنج تحديه القاتل. كان حمزة يدرك أن رجلاً غير علي الشهدا لا يقبل هذا التحدي، من الذي يجرؤ على خلع ملابسه والنزول في الماء المثلج من الثغرة التي فتحها الرجال بمعاولهم؟!. غير أن لقب شيخ شباب السهوة كان مغرياً. هكذا صاغ حمزة كنج اقتراحه.

حينما بدأ علي يخلع ملابسه صاح الرجال:

ـ مجنـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ون.

غير أن أحداً لم يتمكن من الوقوف في وجه طموحه، ومن جدير بلقب شيخ شباب السهوة غير علي الشهدا؟!. وقف عارياً إلا من سرواله الداخلي واندلق في الثغرة. صيحة مكتومة ندّت، سمعها من كان قريباً من الثغرة، لم يرتفع صوته بعدها أبداً.

وغاب تحت السقف الجليدي السميك. كانت البركة قد أصبحت مثل بئر، وهذه الثغرة هي باب البئر، ويوسف داخـــل البئـــر. وســـوف تمضي سبع ليالٍ وسبعة أيام كي تمر القافلة لتنتشل يوسف من بين قطع الجليد المتشققة التي كانت تعوم حوله فوق الماء.

حينما حملوا ثيابه إلى رمزية لم يكن ثمة دماء. لأن الذئب قد أغراه بخلع ثيابه قبل افتراسه.

* * *

شاهدني حمزة بعد اسبوع؛ جاء يعزيني:

- **العواض بسلامتك... عز علينا.**

- **الله لا يسلمك، ولا يسلّم من تعز... انقبر من هون.**

- **قلنا بنعزّيكِ.**

- **ماتت المعزى، وقام البعر يجتر.**

وكان آخر عهدي به ذلك اليوم.

* * *

الإسكندرية... ألق

أخيراً قادها الأمل إلى هناك، لا أمل يرجــى لــدى الحاجــة عايشة، فلتكن الإسكندرية أكثر جدوى. قالت لك وأنتما تعبــران الحدود باتجاه السلوم:

- خلينا نكمل.

- لوين؟!.

وأشارت بيدها إلى البعيد:

- على سورية.

- معقول؟!... بعد كل الذي صار؟!.

وخلعتْ أربع سنين من عمريكما، وضعتها على مائدة البولمــان الصغيرة أمامكما، ونثرتْ أوراقها ورقة ورقة، وأنــت تتــصفح، تقرأ خيباتك ونجاحاتك، أملك ويأسك. فجأة وجدتك تسألها:

- منذ متى كل هذا الـــ ....

- من زمـــ ـــ ـــ ـــ ـــان

هل كــنت تدري ذلك؟. أخذتْ تعود بك إلـــى مفــردات سهوة الحدادين:

- هل تغضب؟.

يفاجئك السؤال، يضعك على مدى رجفة من القلب. تتحــرك باتجاه سؤال موارب:

- من ماذا؟.

من جديد تفتح لك سيرة علي:

- تذكرني فيه.

تتجاهل، تتقاوى، هل تستطيع؟!

- بمن؟

- كان يحب سهوة الحدادين مثلما انت تحب المجدل.

- لكن أنا لا أحب المجدل.

* * *

معقول؟!. هل كنت صادقاً أم تحرك شيء في الرأس؟. أنــت تكذب على نفسك وعليها. تحرك في داخلك ما كنت تخشاه. تبادر إلى خطفك باتجاه المجدل:

- ومطخ العادلي؟!. والنوفرة ؟!

- اسكتي.

- ودرب العسكر، وبركة المالحة و ....

- اسكتي اسكتي.

هل نطقتها، أم تراها لم تخرج من الصدر. إنها حبات عقد تشفق عليها أن تتناثر بين امساعد والسلوم، فأمسكتَ وأمسكتْ.

يا للقلبين المفجوعين في هذه الفلوات القاتلة بصهدها وتماديها في الاتساع.

ويا لك من طريح شرفة في المجدل؛ أمامك مطخ العادلي تحتضنه تلك الأحجار السوداء، تمنع السابلة أن تقتحمه، ويأبى إلا أن يطرح صورها على صفحة مائه. وخلفك النوفرة التي أنشأها الكابتين بارون وجر لها الماء من عين ليوان، لا ليشرب أهل المجدل، بل ليشرب عسكره الذين تمركزوا عند بركة المالحة، وبنوا لأنفسهم قاووشاً يتسع لمئة عسكري سنغالي مع بغالهم. يفترشون الطريق من القاووش إلى النوفرة مثل الجراد، فيستأثرون بمائها النظيف الذي كانت أمك تشبهه بزلال العين، ويتركون لكم مطخ العادلي والبركة المالحة، تشارككم فيهما الضفادع والسوائم.

* * *

نسيتما ما أنتما فيه من رجاء، أن يشفع لكما أحد أولياء الله؛ السيد أحمد البدوي مثلاً، القطاب، ومجيب الأسارى من بلاد النصارى، تجلسان على بساطه فيتسع لكما رغم ضيقه، ويقرأ عليكما من أوراده، فينشرح صدركما وتفوزان بدعائه. كنت ستذكرها به، وستسرد لها مسيرته من فاس إلى طنطا. ما الذي جعلك تنسى ذلك وأنت متجه في الطريق ذاتها التي توصلك إليه.

غير أنك نسيته مثلما نسيت أولئك القابعين في رؤوس التلال المحيطة بالمجدل، ترى شفاعاتهم لمن أخلص لهم النية، وآمن أن الحياة الدنيا محض زوال.

اتجهت ببصرك إلى هناك تهطل شوقاً، ثلجاً يملأ وجه الحافلة التي كانت تأكل الرمال المتوهجة، متدحرجة من السلوم باتجاه مطروح فالإسكندرية.

قلت لها بعد أن مسحت على شعرها:

- **خلينا في المهم... أنتِ جادة ؟**

نظرت إليك مستفسرة، سؤالك الموارب فاجأها، أية إجابة ستختار لك كي يطمئن قلبك؟. أدركت حيرتها وترددها:

- **يعني نتكل على الله.**

ودفعت يدك إلى أمام. .

- **الآن؟!.**

- **لا، بعد ما نرى السيد أحمد البدوي.**

تنتفض كديك مذبوح:

- **أي أحمد البدوي؟!.**

تدرك أنك أخذتها على مباغتة، تنحرف باتجاه إرضائها:

- **أريد أن أعرف فقط كم انتِ صادقة.**

* * *

ما كان يخطر لك أن رمزية ستقبل الفكرة بهذه السهولة، بلا جدال، ولا عناد، ولا انحراف مزاج. بل كانت أكثر منك اتقاداً قبل أن يؤكد لكما الطبيب المعالج أن الحالة ليست مستعصية، وإنما تحتاج إلى علاج، وربما عمل جراحي بسيط. وأن رمزية هي المعنية بالعلاج لا أنت. كان يمكنك أن تفاخر برجولتك التي تذبذبت بين الجبيلة الحمراء، والمنارة وبخور الحاجة عايشة؛ الذي ملأ رئتيك.

أنت الآن بكامل أهليتك إذاَ، الأهلية التي ستجعل منك أباً في القريب العاجل؛ بحسب الطبيب المعالج في الإسكندرية ، تماماً مثل كل الذين تشاهدهم في طبرق مع أولادهم.

* * *

ورمزية أيضاً ستصير أماً وستحتضن حلمك الذي تراه الآن يسير على قدميه، بالرغم من عنائك ومكابدتك، لكنها ليست مختارة، وسوف تتقبل فكرة العمل الجراحي الذي تعهد الطبيب بإجرائه.

عادت إليك رمزية إذاً؛ كما كانت في شارع الشعراني في السويداء ذات أصيل، يانعة مثل تفاحة، ريّا مثل دالية، قشيبة مثل روض زاهر.

. عشرون يوماً مر، وأنتما في الإسكندرية تقرأان تاريخ مولد عروسين... طيرين بدأا من جديد ببناء عشهما قشة من هنا وقشة من هناك. عشرين شمساً شاهدتما خلف منارة الإسكندرية، تملأ الدنيا ضياء حولكما كل صباح. وحين عزمتما على العودة كانت

طبرق تلوح لكما محطة عابرة، هي هي على ذلك الشاطئ الصخري، مشفوعة بعجائبيتها وتفردها، تنتظر من يعيد لها أمن الأمس، يوم كان التاجر يعارض باب دكانه بخشبة، ويذهب إلى الصلاة، دون أن يفكر في إغلاقه. هكذا حدثك الحاج مراجع متحسراً على الأمس، فما أوجع أن يتحسر المرء على يوم فات؛ عند ذلك تدرك أية أوحال يغوص فيها هذا الحاضر.

* * *

لن تعيش مأساتك مرتين. قال لك الطبيب بعد أن أنهى العلاج: لم يبق ثمة ما يعيق سوى خوفك وترددك وإرادتك.

وحين عدتما إلى طبرق عادت إليكما الحياة بتفاصيل أخرى. لم تخبئا فرحكما، لقد ظهر بتعامل رمزيه مع الحياة، مع مصيونة وإنجي.

كما أدرك الحاج مراجع ذلك منذ أن رآك في الجامع أول يوم بعد عودتك من الإسكندرية؛ يملأ الفرح قلبك، ويغتسل وجهك بالندى، بعد أن فارقه ذلك التجهم الذي لازمك مدة وجودك بينهم:

- **كنّك[١] يا أستاذ سالم؟! نبّيك ديمة هكّي[٢]** .

وأنت لا تملك إلاّ أن تضحك ضحكة مجلجلة .

* * *

---

(١) كنك: ما بك ؟، ما وراءك؟

(٢) بنيك ديمه هكي: نريدك دائماً هكذا.

الحاج مراجع... استدراك

يسألك الحج مراجع عن حمزة السوري، لا يخطر لك حمزة كنج على بال، تتأمل الحاج مراجع، تفكر في سؤاله، هل أنت وصي على السوريين الذين في طبرق؟!. ربما خطر للحاج مراجع أنك أوسعهم معرفة، وأكثرهم قدرة على التحرك. تسأله بلهجته التي قلما تستخدمها:

- **كنّه حمزة السوري يا حاج؟ .**

يبادرك:

- **لا، لا، نبّو نعرفوك بيه**(١).

ثم لا يترك لك فرصة للتردد، يأخذك من يدك إلى المربوعة. تجد نفسك أمامه أنفاً بأنف. هو الذي التقيته ذات مطر، تتفتح سيرته أمامك من جديد؛ كما رسمتها رمزية. ينطفئ لدى رؤيتك، غير أنه يجالد. تحاول أن تتجاهله، لكنه يبادرك بالسلام ،باسمك وصفتك:

- **كيفك أستاذ سالم؟...**

(١) نبو نعرفوك بيه: نريد أن نعرفك عليه .

يذكرك بذلك اللقاء، يخبرك أن ابنه سامي لم يعد راغباً في أي معهد، وقد جعله وكيلاً لأعماله في بنغازي.

* * *

« والولد والحمد لله يا أستاذ سالم صافي الذهن، لكنه تعلق بالتجارة. والتجارة بدمنا يا أستاذ سالم، الولد حسبها مضبوط، وجد أن طريقه طويل إذا تابع دراسته، ثم ماذا بعد ذلك؟!. وظيفة؟! هذا إذا وجدها. كيف تقنعه بأهمية التعليم وهو يرى والده يلعب بالفلوس، وبلا شهادة ولا ما يحزنون. الحمد لله؛ أمورنا ماشية تمام التمام، نحتاج إلى ثلاثة أو أربعة لمتابعة أعمالنا في بنغازي والمرج والبيضا وجدابيا وطرابلس. أنا ما تعديت عليه، هو اختار ذلك، وأنا بيني وبينك وجدتها فرصة كي يتحمل الولد المسؤولية . أنا أيضاً من حقي أن أرتاح. لكن كيف تريدني أن أرتاح وليس هناك من يتولى العمل بجدارة بعدي .هكذا نحن ! الكبير يسلّم الراية للصغير بعد أن يثق أنه صار على قدر المسؤولية. لا أدري يا أستاذ سالم إذا كنت على حق أم لا؟. أنا بنيت سمعة في هذا البلد ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فشلت مرة ومرتين وثلاثاً، لكنني تعلمت من غلطي والحمد لله، ونجحت، والثقة هي أساس النجاح. الحمد لله رصيدنا في هذا البلد كبير،إن كان على المستوى المادي، أم المعنوي. لو احتجت إلى مليون دينار أستطيع تدبيرها باتصال هاتفي » .

* * *

تتذكر قبل يومين، قال لك عابد مسعود : إن رجلاً يعمل في بنغازي اسمه حمزة كنج، قد استدان منه خمسين ديناراً، طلب مبلغاً أكبر، لكن عابد خشي أن يعطيه أكثر دون معرفة سابقة. هي خمسون ديناراً إن عادت لا بأس، وإن لم تعد فليست بذات أهمية.

ينظر إليك الحاج مراجع، يريد أن يقرأ حمزة كنج في عينيك، في تقاسيم وجهك... في ردة فعلك على سيرته الذاتية التي طرحها أمامك هكذا بلا مقدمات. وأنت لا تسمع، لا ترى.

تراه في سهوة الحدادين يعذلك، يصوّر لك رمزية بضاعة من النوع الرخيص، المطروح للتداول بلا إقبال. يراودك ذلك الخاطر الذي طالما أرقك:

« لماذا لا يكون حمزة كنج وراء خبر موت رمزية المزيف؟». تقرر من ساعتك التوجه إلى معذى ومساءلته، غيرأن الحاج مراجع يقطع عليك تلك الرحلة، يستشيرك في أمر حمزة كنج. ترفع بصرك نحوه مستفسراً، يضعك بصورة العرض الذي يقدمه حمزة كنج:

«تجارتك يا حاج مراجع محدودة في طبرق، ومهما كان، فطبرق مدينة صغيرة إذا ما قارنتها ببنغازي، هناك تستطيع أن تمتد، إلى مصراتة، إلى زليطن، إلى طرابلس، وربما وصلنا إلى تونس، إذا توفر المال، فالخبرة موجودة، ولن تستطيع تقدير حجم

النجاح الذي سيحالفنا. وأنت يا حاج مراجع رجل مؤمن، والتجارة مباركة، وقد حللها الله. أنت ارمِ الهم على أخيك حمزة، واتكل على الله .لا أريد منك إلا المباركة والدعاء بالتوفيق ».

* * *

تستطيع الآن أن ترد الجميل للحاج مراجع، أن تثبت له أن السوريين « **هكّي** » كما يصفونهم، وتستطيع أن تمد يدك كالسهم كما يفعلون. كل ذلك إذا استطعت أن تحول دون أن يقع الحاج مراجع بين أنياب حمزة؛ الذي لا يمت بصلة لصنف البشر. ستكون وفياً بكل تأكيد، أنت لم تنس فضل الحاج مراجع وحميميته، أنموذج واضح من الليبيين الطيبين يتكرر في كثير من البيوت بجدارة. فتح الرجل لك بيته، وأدخلك على حرمه، ومنحك من الحب ما لم تجده حتى في المجدل، وأهّلك لتعيش في الجماهيرية كواحد من أولئك الذين لا يعرفون المكر ولا المكائد.

تتذكر أنه أمسك بيدك وأدخلك على الحاجة:

- **اسمعي يا حاجة : راهو[١] الاستاذ سالم واحد مننا، كيفُه كيف[٢] مرزوق، ورمزية كيفَه كيف إنجي، باهي[٣]؟».**

* * *

---

(١) راهو: تُراه

(٢) كيف: مثل

(٣) باهي ؟: حسناً ؟ . والتقدير: هل استوعبت هذا الكلام ؟

تلتفت إلى حمزة كنج، تريد أن تبصق بوجهه، تؤجل ذلك حتى يتضح الأمر للحاج مراجع:

«عابد مسعود أيضاً ينتظر، يقول إنك ستؤسس معه تشاركية، صحيح؟. لكن لماذا استدنت منه خمسين ديناراً من يومين ؟ قال إنك طلبت أكثر من ذلك. أنا من جهتي لم أصدق، من يصدق أن حمزة كنج صاحب المشاريع والتجارة الرائجة حتى طرابلس، والسمعة العطرة التي سبقته إلى طبرق؛ يضطر لاستدانة خمسين ديناراً؟! لو وصلت هذه المعلومة إلى بنغازي لزحف أهل بنغازي إلى طبرق؛ كبيرهم مع صغيرهم، يريدون أن يمحوا ما لحق بحمزة كنج من إهانة. أنا متأكد أن الخبر غير صحيح، هم فقط أرادوا أن ينالوا من سمعتك، هكذا...حسد، نحن السوريين لا نسمح لأحدنا بالنبوغ، كأن نبوغه على حسابنا. على كل حال عابد مسعود يتحدث في كل مكان، اذهب واقطع لسانه، أو رد له الخمسين ديناراً، والبركة بالحاج مراجع؛ يعطيك بدل الخمسين ديناراً خمسين ألفاً، لأنه قد عثر على كنز، وأمواله لا تأكلها النيران، كل الفلوس التي تراها الآن في طبرق هي من كنز الحاج مراجع، ألا تصدق؟ إذاً اسأل أولاد سهوة الحدادين، لقد وصل خيره إلى هناك أيضاً. في سهوة الحدادين نصب تذكاري شيده المغتربون في طبرق وبنغازي من كنز الحاج مراجع. ألم تشاهده ؟.

صحيح أنت لا تستطيع الذهاب إلى هناك، لم تعد إلى سهوة الحدادين منذ أن انتشر الخبر، فاش مثل بقعة الزيت على وجه الماء. في سهوة الحدادين أيضاً ألسنة طويلة، اتهموك أنك كنت وراء مقتل أخيك حمد، وقد وضعت يدك على كل شيء حتى على زوجته جميلة، هل هذا صحيح؟! .

قالوا إن جميلة هي التي تحدثت، خاضت بهذه التفاصيل يوم طلقتها، ربما كانت موتورة، لماذا لم تفشِ السر يوم تزوجتها؟ أم أنها كانت تحلم أن تعيشا معاً بثبات ونبات، وتخلفا البنين والبنات؟. يقولون إنكما تواطأتما معاً، ومعاً نسجتما الخيوط، وحبكتما الحبكة.

أنا من جهتي لم أصدق ما قيل، فرجل مثل حمزة كنج له كل هذه النجاحات، وهذه السمعة لا يمكن أن يرتكب كل هذه الحماقات. لماذا نهضت ؟ اجلس، لم نكمل الحكاية بعد، هناك الكثير من التفاصيل التي يلوكها الناس هنا».

* * *

لم يكن حمزة كنج يتوقع منك ذلك، من أين لك كل هذه المعلومات؟ أم أنك فتحت له ملفاً كتلك الملفات التي يفتحونها هناك لكل عابر سبيل؟.

لكن هذا الملف مختلف، ملف فيه حقائق لا أكاذيب، فيه دلائل لا وشايات مغرضة. ولو كان حمزة كنج بريئاً لأنشب أظافره في وجهك كما يفعل دائماً. بيد أنه أدرك أن مصادرك موثوقة، هي

ممن وقعوا بحبائله وتشظوا بريحه. نهض حمزة كنج وخلف وراءه دهشة الحاج مراجع الذي تشبث بك:

- **نه ما نعرفش كيف نشكرك.**

وأصر أن يسمع الحكاية.

- **المهم يا حاج أنك خلصت من هذا الوباء في الوقت المناسب.**

- **لا، لا، نبو نسمع سالفة البلعوط(١) هذياهي(٢).**

* * *

هل كانت رمزية محايدة في شهادتها؟. ربما لا، لكنها كانت صادقة بكل تأكيد. أنت تحفظها عن ظهر قلب. وشهادتها شهادة من رأى لا من سمع. كانت في سهوة الحدادين حينما انتشر خبر حمد كنج ومرهج عبود. اللقى الأثرية كانت ليرات ذهب عصملي، اقتسماها مناصفة، وحمزة الذي اكتشف أمرهما أصر أن يقاسمهما، حاولا إرضاءه واشتريا سكوته، وظننا أنه سيقفل فمه إلى الأبد. غير أن شهيته كانت قد انفتحت إلى آخر مدى. وما عاد بالإمكان أن يسد جوعه بما حصل عليه. أدرك أن المفتاح عند جميلة، زوجة حمد، التي لا يهدأ لسانها في فمها لحظة واحدة .، تلتقط الخبر من هنا، وتبثه على الموجات كافة.، فقط وضع في أذنها خبراً، صاغه على شكل سؤال موارب:

---

(١) البلعوط: النصاب.

(٢) هذياهي: هذا.

- صحيح يا جميلة رجع حمد حفر ولاقى؟!.

فتحت جميلة أذنيها وفمها معاً، واستوضحت بلهفة:

- شو لاقى؟!.

- قالوا: لاقى تماثيل ذهب؛ تمثال الملك وتمثال الملكة. وأكيد أكيد بعد خزينة المملكة تحت.

كان حمزة متأكداً أن الخبر سيصل إلى مرهج في اليوم التالي، كيف ؟ هذا من شأن جميلة وحدها.

- كمان إنت ما عرفت يا مسكينة؟!.

وتنظر زوجة مرهج بدهشة:

- خير؟!.

- تماثيل الملك والملكة.

- أي ملك، وأي ملكة؟! ؟

- الملك مرهج، والملكة حضرتك.

وعادت جميلة إلى البيت. وبعد يومين غاب حمد. لم تكن من عادته، قلقت جميلة، وتوجهت إلى أخيه حمزة:

- حمد يا حمزة.

ويلتفت حمزة بوجهه الصدئ وشروده:

- شمع الخيط؟.

- شو قصدك؟

- **اسألي مرهج.**

وتزحف لاهثة إلى مرهج، تدلق لهفتها أمامه:

- **وين حمد يا مرهج؟!.**

قابل مرهج لهفتها بحياد وثلجية:

- **راح يبيع التماثيل.**

- **شو بتقصد؟ .**

- **لا تخافي عليه، عمر الشقي بقي.**

بعد أيام وجدوا حمد معلقاً من رقبته في خان الروم، قادتهم إليه رائحته التي ملأت المكان.

أقسم حمزة أنه سينتقم، وسوف يفعل مثلما فعل الزيرسالم أبو ليلى المهلهل. لكنه لم يمض شهر حتى قص شعره، وتطيب، وذهب إلى جميلة :

«لا يجوز يا جميلة أن تظلي هكذا، الناس لا ترحم، ألسنتهم أطول من الحبال، يقولون أرملة، وحدها، وبيتها مفتوح، وأنا كما تعلمين مشغول بأمر حمد الذي أنهكني، أنت أيضاً تفكرين مثلي، ماذا لو وضعت كفك بكفي؟ وقرأنا الفاتحة على خيرة الله؟. عندها نستطيع أن نفكر معاً بالطريقة التي تجعل مرهج يقع دون أن نفتح العيون على ما كان بينهما. لو علم أحد بما تم لضاع من يدنا كل شيء، أريدك فقط أن تربطي لسانك قليلاً، فالناس اليوم آذان مفتوحة، تلتقط أي خبر، وتزينه بالشراشيب».

وضعت جميلة يدها بيد حمزة، وامتلك حصة حمد من اللقى التي عثر عليها.

« اسمعي يا جميلة ! لا مصلحة لنا باتهام مرهج، سيستنطقونه، ويضربونه حتى يعترف، وسين وجيم ويصلون إلى كل شيء، ونكون قد خسرنا مرتين؛ خسرنا حمد الذي لا نبدله بمال الدنيا، وخسرنا ما دفع حمد حياته ثمناً له».

* * *

الخلاصة يا حاج استلم الأمن القضية، وثبت لديهم بالدليل القاطع أن حمزة دفع للفاعلين المعلوم، وحين وجد نفسه أنه سيقع ألصق التهمة بمرهج عبود. وستمر ثلاث سنوات والمسكين يتلظى في السجن، قبل أن يكتشفوا الحقيقة ويقبضوا على الفاعلين، عند ذلك كان حمزة قد وصل إلى بنغازي.

* * *

محمد رجب... شهادة

من الجبيلة الحمراء حيث كانت المدرسة تتربع على ذلك المرتفع الترابي المطل على شارع معطل، تطل أنت على ذلك الفضاء الواسع، الذي عليك أن تعبره باتجاه الجسر. كميات من الرمال كانت تذروها الرياح، تحملها بخفة ورشاقة، لتلقي بها هناك، في تلك الوهدة التي ارتفعت فيها ثلاث نخلات شاحبات، بلا بلح، يبدو عليها البؤس والعجز والفاقة. طريقك المعتاد ينحدر بك إلى ذلك الفضاء الشاسع المترامي، ثم يتجه بك جنوبا إلى طلعة الجسر، فإما أن توغل شرقاً باتجاه السوق، أو غرباً على متن الجسر، لتمتع بصرك بما يطل عليك من البحر الذي يشكل حول طبرق ما يشبه حذوة الحصان، عليك أن تغمض عينيك عما يؤذي البصر من نفايات وأجسام لا مكان لها في هذه الإطلالة، كما عليك ألا تهتم لما يلقى على الشاطئ من شوائب، عندئذ تذهب المتعة، تغيب بين أكداس من بقايا الردميات التي كانت بالأمس أبنية، يشهد لها بقايا الأعمدة والاستنادات

الإسمنتية، لن تعجب، ولن ترى شيئاً غير مألوف، ففي هذه المدينة العديد من الأمكنة التي كانت بالأمس أبنية فهدمت دون أن يعاد بناؤها، والكثير من الأبنية التي أعيد بناؤها ثم تركت دون إكمال.

تقف على متن الجسر تنتظر السرفيس الذي يتجه غرباً حتى بوابة طبرق، ثم ينحرف شمالاً، دائراً حول حي المختار، فمتجهاً شرقاً إلى باب درنة، فالمنارة في أقصى الشرق، ليكمل دورته حول المدينة العتيدة.

هذه المرة اخترت طريقاً آخر، لا تدري ما الذي لعب برأسك، أهو حب اختصار المسافات؟!. أم حب اكتشاف المواقع؟!. هي ربع دينار وتكون هناك، هذه هي الأجرة التي يتقاضاها السرفيس، حتى لو رغبت أن تذهب إلى نهاية الشوط. فلم هذا العناء ؟ أم أنك هاوي مغامرات؟. طريقك المختصر يمر بحي متناثر، من تلك الأحياء التي تشكلت بشكل عشوائي حول طبرق، نبتت كالأعشاب المتطفلة على الزروع، يتداخل فيها البناء الجديد مع بقايا الحويزات التي يرتفع فيها النخيل والبرتقال، وتحيط بها أسلاك عرشت على جنباتها بقايا عنب ينتمي إلى عهد غابر.

تقطع الحويزة، تنعطف يميناً، تحس همهمة، وشيئاً ما يلاحق خطواتك... يدانيك، وأنفاس تتلاحق... تطوقك. تلتفت؛ فتجده خلفك حذو النعل بالنعل.

تهم بالتقاط حجر، أي شيء تذود به عن نفسك، فتعييك الأرض الخالية، والطريق التي لا شيء فيها سوى الرمال غير المتماسكة. لحظة من لحظات الحاجة لاتخاذ القرار السريع، واتخاذ القرار البديل في حالة الإخفاق.

هو أيضاً يباغت بحركة رجلك السريعة اللاإرادية، التي اتجهت إلى فمه المفتوح، بأنيابه الحادة، وخطمه الطويل. تحاول ضربه على رأسه، فيسابقك إلى التقاط ساقك، تصرخ صراخاً فيه من هرٍّ الضاري بقدر ما فيه من الهلع. حيوان يرتفع عن الأرض ما يعادل ارتفاع سرتك، اتخذ من الرمال لوناً، مع إطلالة سوداء في الوجه.

«*يلاحقوننا إلى هنا؟!. كلاب في كل مكان... حتى لو صعدت إلى المريخ*» تحادث نفسك.

تنفض رجلك لتخلصها من أنياب الضاري، ترى الدم ينبثق من الساق، متخذاً طريقه إلى أسفل القدم.، وبنطالك الذي ثقبته أنياب الحيوان قد تلوث هو الآخر.

يبتعد الضاري منتصراً. لقد انتصر عليك، أفزعك، وأدماك، وأقنعك أن طريقك ليست سالكة، ولا آمنة. الكلاب أيضاً لها محميات، ما إن يقترب منها أحد حتى تثور، تذود عن أماكن خلائها، لا تود أن يزعجها إنسان بثقل دمه، وثقل وطأته.

تعالج ساقك المثقوبة وعزيمتك التي ثقبت هي الأخرى، تضغط على الجرح، تتقاوى محاولاً الوصول إلى المستوصف القريب، يخرج لك من أحد الأحواش متجهاً نحوك بلهفة، لا تكاد تميزها من الألم والهلع.

- سلامات أستاذ سالم.

من؟. مرة أخرى معذى محمود؟!. هذه المرة أنت بحاجة إليه، بحاجة إلى من يلم أجزاءك التي بعثرها الضاري اللعين. لم تكن تدري أنه يسكن في هذه الناحية، وهذا الحوش بالتحديد. يحاول إدخالك الحوش لتضميد الجرح، يصر على ذلك، لكنك تصر أنت على أن تصل المستوصف، ربما كان الكلب مسعوراً.

فريق من الملائكة البيض يصطففن حولك، يتحلقن في حالة فزع، يبدين الكثير من القلق، ثم يقدنك إلى الطبيب المناوب. وسؤال وجواب؛ أين وكيف ؟ شكل الحيوان؟ هيئته؟ هل يسيل اللعاب من شدقيه ؟ مدى شراسته؟. وأنت لا تدري. لم تر منه إلا ذلك السواد الذي كان يحزم خطمه.

يأخذ الطبيب شيئاً من الدم النازف لفحصه، يعقم الجرح، يضمده، يخرج ورقة، يكتب عليها مواعيد الجرعات التي ينبغي أن تحقن بها على مدى خمسة عشر يوماً، يحقنك بالجرعة الأولى، وتتصرفان أنت ومعذى محمود إلى حوشه القريب.

* * *

المصادفات تصنع المعجزات أحياناً، تصنع ما لا تصنعه المواعيد والإجراءات الموقوتة. هل ارتكبت هذه الحماقة عن عمد كي تتفتح لي المغاليق ؟ ويكشف لي ما وراء الحجب؟. هل سلكت هذه الطريق حتى ألتقي محمد رجب ؟ لا أعلم أنه جاء من بنغازي منذ ثلاثة أيام؟ لكأنه جاء خصيصاً لإبلاغي ما يشفي غليلي. يحمل لي ما كنت أرغب أن أسعى للوصول إليه بأي ثمن. أية مصادفة تلك التي حملتني على اختراق حي الحويزات، وحملتني عبء هذا العقر؟. لألتقي الرجل الذي سيفك لي اللغز الذي مضى عليه أربع سنوات خلت.

لم يستطع محمد رجب أن يخفي فرحه بلقائي. على الرغم مما ينتابني من قلق وتشتت. لقاء حار يجمع بين اثنين من المجدل، وأين؟!. في طبرق.

الغربة هي أحد العوامل الهامة التي توحد القلوب، ربما لم نسلّم بهذه الحميمية من قبل. وربما لم نتعانق لو كان اللقاء على تراب مطخ العادلي، أو أمام الحاووز، حيث كنا نجتمع كل مساء لأيام خلت. الآن نحن مشتركان في شوق إلى جُهة واحدة، المجدل تشدنا معاً إليها بأمراس، تلفنا في دوامة الغربة، تنقلنا إلى ساحتها التي يرتفع فيها ذلك العمود البازلتي الذي ينتمي إلى التاريخ. يغرقنا الحنين إلى تلك الفترة التي كنا فيها تلاميذ في المدرسة، نتسابق على علامة أو نصف علامة، والأستاذ أبو زيد يذكي ذلك التناحر، فيرخي العنان تارة، ويشده تارة أخرى.

تذاكرنا أيام المدرسة، ليالي الطرنيب والليخة، أمسيات الحاووز،. لم ينس أن يسألني عن رمزية، نعم رمزية، وأن يعلن عن فرحه بأن رمزية ما زالت حية ترزق، رغماً عن حمزة كنج.

* * *

"نقل لنا حمزة كنج الخبر، كان عندكم في طبرق، جاءنا ذات يوم لأمر آخر لا علاقة له بموت رمزية. جاء الخبر على الهامش. قال :

- هل عرفتم من مات بطبرق اليوم؟

انتفضنا، جميع من كان في المربوعة استعد للخبر.

- لا، لا حاجة للخوف، ماتت رمزية زوجة سالم النصيرات. أظن أنها من بلدكم؟. وقبروها بطبرق.

وأضاف في نقل الخبر أنهم لم ينقلوا جثمانها إلى سورية، قالوا إنها ماتت بالسكتة. وهذا النوع من الموت يأتي إثر صدمة عصبية، ربما كان السبب أنها عاقر، وسالم النصيرات فرّ بها من المجدل إلى طبرق عله يجد لها مخرجاً من أزمتها. الظاهر أن الرجل يئس من حالها، فأخذ يريها أخضر وأحمر حتى طقت من القهر.

نحن صدقنا خبر الموت، فليس غريباً أن يموت الإنسان، لأي سبب كان. غير أن فلسفة حمزة كنج لم تقنع أحداً. اعتبروها شطحة من الشطحات التي اعتادوا أن يسمعوها منه.

لم يكتف حمزة كنج بذلك، بل عمد إلى إرسال برقية تعزية لأبي سالم.

لم يكن حمزة يزورنا إلا نادراً، جاء يسأل عن صديق لـــه، وقد حمل معه رسالة، قال إنها من سالم. كان ذلك ليلـــة ســفر سعيد، وقد كلفه بحملها إلى أبي سالم.

- **شو في بينك وبين حمزة كنج ؟!.**

صاغها محمد رجب على شكل تحقيق استخباراتـي استفزازي . لكننـي لم أبال بطريقة طرح السؤال، بقدر اهتمامي بالإجابــة. هل أكذب؟. صحيح أنا لا أعرفه قبل يوم العاصفة المطرية، لكنه يعرفنـي... يلاحق خطواتـي مثل ظل لا تغيبه الشمس. أأقول لهم ؟ فأفتح بذلك صفحات لا جدوى من فتحها من جديد.

- **أبداً... من مدة قريبة تعرفت عليه بطبرق.**

يأبى محمد رجب إلا أن يمنحه شهادة سوء سلوك؛ **جمـــيعهم في بنغازي لا يودون رؤيته، يأتي إلى حيث يجتمعون، فيتفرقون** *بدداً كأنما حل بهم الطاعون. تسألهم لماذا تتحاشـــون الرجـل ؟ يجيبونك : هذا غير نظيف ؟ والنظافـــة عنـــدهم هـــي نظافـــة الداخل، يشمشم، يجمع أخباراً، الخلاصة الزلمة مرتبط، ونحـــن هنا جئنا لنعيش، تركنا السياسة لأصحابها هناك، ســامحنا بكـــل شيء، وهربنا نبحث عن لقمة الخبز المغمسة بالشحار.*

تخيفني الكلمة، مرتبط. أدرك الآن ما الذي جعله ينتقل مـــن بنغازي إلى طبرق.

* * *

الوهج

الحوش الذي يطل على الساحة الخالية بات يوحشكما. مساحة من الأرض شاسعة تحيط به، ينبت فيها بين الحين والحين حوش، لا يفعل أكثر من أن يزيد هذا الركام الإسمنتي المتناثر.

مجلس العزاء الذي أقيم في الساحة زاد من إحساس رمزية بالخوف، الوحشة، القلق، التعلق بك أكثر. فجأة انتصبت الخيمة، خيمة للنساء، وبدأت النائحات يمارسن طقوسهن؛ يتصارخن، ينتفن شعورهن، يسففن على وجوههن التراب. ثم يهدأ كل شيء. كان يمكنكما معرفة قدوم أي وفد نسائي من حملة البكاء التي ترافق مجيء كل وفد.

من النافذة المطلة على الساحة رأت رمزية ثلاث نساء، قبل وصولهن بقليل بدأن يعولن، ويتصارخن، موجة أخرى من العويل والصراخ انطلقت من الخيمة، وتلاقى الجمعان، وشكلن ما يشبه الحلقة، وبدأن الرقص والبكاء. ظنت رمزية أن الوفد من قريبات المتوفى، غير أنها ما لبثت أن اكتشفت أنها طقوس، لا بد

من ممارستها في كل عزاء لدى قدوم أي وفد معز جديد. تـسأل رمزية الحاجة عن المتوفى، فتعلم أنه شـاب جـامعي اغتالتـه سيارته الجديدة.

يدعوك الحاج مراجع لمرافقته إلى مجلس عزاء الرجال، لقد أقاموه في منتصف الشارع الرئيس، خيمة تمتد عشرين متراً أو أكثر، أخذت عرض الشارع.

يتقدمك الحاج مراجع، تدخلان خيمة العزاء، الرجال يجلسون في جوانبها ولا يتحركون، لا تعرف من هم أصـحاب العـزاء. أخذ الحاج مراجع يسلم على الرجال وهم جالـسون، اسـتهجنت ذلك، تذكرت الطقوس التي تمارس في المجدل حينما يـصطف المعزون صفاً أمام أهل العزاء، ويبدؤون تأبين المتـوفى. كـان الرجال في الخيمة يتسامرون، لا علاقة لهم بأي شكل من أشكال الحزن. وربما مد الحاج مراجع يده للسلام على أحـدهم فيجـده مشغولاً بالحديث مع جاره، فيأخذ يده عنوة قائلاً

- **يدّك وخوذها ياراجل**(١).

ليست المرة الأولى التي تحضر فيها مجلس عزاء، لكنك هذه المرة لا ترغب بالمكوث كثيراً، تتذكر رمزية والعويل المحـيط بها قرب النافذة.

* * *

---

(١) يدك وخوذها: اعطني يدك ثم خذها بعد السلام.

أنت ورمزية والليل ثالثكما، والتلفاز رابعكم. رمزية تتابع المسلسل المصري رأفت الهجان، وأنت ! ماذا تفعل ؟ تتابعه أيضاً؟. ماذا ترى فيه؟. هل ترى إمكانية الاختراق التي حققها بطل المسلسل، وبالتالي الاستخبارات المصرية ؟. أم تراك ترى ضعف الاستخبارات الإسرائيلية التي عجزت عن كشفه في الوقت المناسب؟. هل ستعزز هذه القضية الشعور لديك بالثقة والطمأنينة تجاه القضية الأم؟.

* * *

أنت ورمزية والصمت ثالثكما، يجتث صمتكما مراسلو وكالات الأنباء، «تنديد بعض المحطات العربية بالصواريخ العراقية التي استهدفت تل أبيب».

هل هي لعبة بهلوانية كما يقولون؟ القصد منها جر العرب إلى معركة لم يتأهبوا لها، يفرض زمانها ومكانها فرضاً على العرب؟

« في طرابلس قاد العقيد معمر القذافي مظاهرة استنكار، فأخذ المتظاهرون يهتفون:

« من مراكش للبحرين قايدنا صدام حسين »

فترك القذافي المظاهرة، وانسحب دون ضجة».

تتذكر الهتاف المماثل في أيام الوحدة السورية المصرية:

«من المحيط الهادر...إلى الخليج الثائر... لبيك عبد الناصر»

ماذا فعلت تلك الشعارات؟. هل خلصت العرب من مـــأزقهم الدائم في حروبهم الخاسرة؟!.» مظاهرات استنكار في العواصم العربية. والعواصم الأوروبية، وقد أحـــرق المتظـــاهرون فـــي باريس صور الرئيس الأمريكي جورج بوش.

لا تجد غير رمزية أمامك الآن، تدخلها في عـــالم الـــسياسة قسراً، ربما كنت تسأل نفسك حين سألتها عن زمرة الـــدم التـــي تجري في عروق قومك الذين يرون أن من حق إسرائيل أن ترد على الاعتداء العراقي بالمثل.

- **اسمعي بربك! ترد على الاعتداء العراقي. يعني العراق تعتدي على إسرائيل. بربك هؤلاء عرب أم ماذا؟! .**

تعلق رمزية رداً على زفراتك:

- **مين أحسن من مين؟!. كله مثل كله.**

لا تطيق سماع المزيد، تغلق التلفاز، وتتمدد إلى جانب رمزيـــة. لا تشعر بأية رغبة لديك. تناديك رمزية بلا فائدة «**وقد أســـمعت لـــو ناديت حيا**». وحين تجدك لا نفع منك تستسلم إلى أحلامها.

غيم كثيف يلفك، غشاوة ما أمام عينيك، تحاول أن تطبق جفنيك بلا فائدة، أن تفتحهما وتعلّقهما في نقطة في السقف، أن تفكـــر فـــي رحلة الإسكندرية والعزم والإرادة. لم يمض أسبوع على عودتكما، وأنت ولا أنت هنا، حتى الآن لم تنجز مهمتك، لا تدري لمَ غادرتك الرغبة منذ أن عبرت الحدود من السلوم إلى امساعد.

فجأة تنسل من جانب رمزية. إلى أين؟ لا تدري، لا تنوي، لا تقرر. تتجه إلى سيارتك، تفتحها، تدير المحرك، وأنت لا تقرر، تسير، إلى أين لا يهم ، تتذكر ذلك المعلم الذي رموه في قرية نائية، لا تصلها السيارة إلاّ مصادفة. وكلما رأى سيارة تؤم القرية ركب فيها. يقول له السائق إلى أين ؟ فيجيبه : إلى حيث تذهب أنت.

تقرر أخيراً أن تقوم بعمل ما، أن تتعب، فتعود إلى الفراش منهوكاً علك تستطيع النوم. تقودك السيارة إلى رأس طبيرق. هكذا تجد نفسك هناك. أهي السيارة التي اختارت المكان أم أنت؟. هل جئت بإرادتك ترتاد هذا الشاطئ الصخري العنيف؟.

الليل ساج، والبحر ساكن سكون الأموات، لا نسمة هواء، لا رجفة على سطح الماء، لا شيء غير سواد يشبه القطران، يبعث على الرهبة والرغبة في التراجع.

تتقدم باتجاه الماء، تجابهك تلك الصخور الحادة، تنشب أظفارها في الماء، وتتجه نحوك بعدائية. كتل من الصخور الضخمة، تحرس الشاطئ، وتحذرك من الاقتراب. ما الذي أتى بك إلى هذا المكان؟!. وفي الليل؟!. بحر وليل وصخور شرسة تزحف نحو الماء بشكل استفزازي.

تبحث عن أشد تلك الآفات الحجرية شراسة، تتسلقها، ومن فوقها تمد قامتك إلى الأمام، محاولاً أن ترى تلك النهاية التي تصل الماء بتلك النتوءات الحادة.

تلعب برأسك فكرة مجنونة. لا تلبث أن تستقر في مركز الإرادة، تشعر حيناً بتفاهة هذا المشروع الطارئ، تتردد، لكنك تجد نفسك تتعرى... تتعرى، تتخلص من كل ثيابك بسرعة مذهلة، وجنونية، كأنما أنت تساق إلى سباق.

لم يبق غير السروال الداخلي، تنزعه أيضاً، ربي كما خلقتني، يلفحك هواء البحر الرطب، تتغلغل الرطوبة بين فخذيك فترتعش، تتوجه إلى الماء، تنزلق من فوق الصخور إلى تلك النهايات الحادة، تغطس قدميك، تصل صقوعة الماء إلى مفاصلك. تصعد الصقوعة إلى الأعلى، تخطو خطوة، تتحسس بقدميك امتداد الصخور، تأخذ بالتوغل، ما تزال صفائح الصخور قادرة أن تمنحك المزيد من التقدم، وما تزال تشعر بالبرودة، برودة أخذت تخف قليلاً، يصل الماء إلى بطنك، تشهق قليلاً، يصل إلى ما فوق الصدر، تشهق مرة أخرى، يصل إلى العنق، لم يبق فوق الماء سوى الرأس. تغطس ثم ترتفع. تلوح برأسك بضع لوحات سريعة، تبعد عن عينيك وفمك قطرات الماء المالحة. تنشب إلى الأعلى وتمد جذعك على صفحة الماء، وتتجه إلى الداخل. تبتعد دون أن تقدر المسافة التي تفصلك عن ملابسك وسيارتك وصخور الشاطئ القاسية .

أنت مجنون ولا شك، ما الذي يجعلك تقدم على هذه المغامرة الخرقاء؟. إلى أين أنت ذاهب؟. إلى سورية سباحة؟!.

تأخذك الرغبة بالتوغل أكثر، غير أن تعباً ما في ذراعيك وقوائمك يجبرك على التراجع. تصل إلى ملابسك ، ترتديها، ترتجف من البرد تتجه إلى السيارة مقروراً، وتندس داخلها، فيعاودك الدفء شيئاً فشيئاً، وقبل أن تذبل عيناك تدير المحرك وتتجه إلى البيت.

* * *

رمزية ما تزال في أحلامها، تنزلق بجانبها، ببحرك وبملحك، وإرهاقك. تغمض عينيك قليلاً، تستذكر رحلتك المجنونة. وتسافر إلى المجدل.

* * *

أجد نفسي أمام رئيفة التي قادتني إلى نوفة ابنتها. فاحت رائحة عطر ملأت المكان، محلب وقرنفل وجوزة الطيب، أحس بخدر لذيذ، تتبدل الصورة أمامي، هي ليست نوفة تلك التي أمامي، إنها رمزية بكل فتنتها السابقة، وبهائها الكلي الذي كان، يوم رأيتها ذات أصيل في شارع الشعراني.

تأخذني رمزية وتطير بي، فأطير خلفها مثل ولد شقي ، تدخلني البيت، توقفني أمامها، تمد يديها إلى ثيابي، تنتزعها قطعة قطعة. وحينما برزت أمامها بكل أهليتي واستعدادي للحرث اختفت، ذابت مثل غيمة بددتها الشمس.

فجأة وجدت نفسي أمام الحاجة عايشة، فتحت عينيها، أظهرت الدهشة، لكنني لجأت لإطفاء دهشتها بخبث :

- قولي لي يا حاجة عايشة كيف يكون الحرث النافع؟ .

هتف صوت من خلف الحاجة عايشة:

« إن أنسب وقت للحرث قبيل الفجر؛ في ذلك الوقت تكون العروق جميعها مفتوحة، والقنوات جميعها مستعدة لاستيعاب ما يجري فيها من ماء، والبرك جميعها جاهزة لاحتواء الماء.

في ذلك الوقت تكون حواء في أشد حالاتها انتظاراً لآدم، وآدم في حالة من التوهج لا نظير لها. .

والأهم من كل ذلك فإنه في ذلك الوقت من الليل يكون قد تحرك الدم الحار في جميع الاتجاهات، وانزرعت الحياة في النفوس الساكنة بعد قلق طويل.

أما العرش فيكون قد فتح كل بواباته لاستقبال أي ابتهال. »

* * *

وأخذت تبتهل:

« يا رب سالم أهد سالماً إلى أصول الحرث، وأهّله كي يكون أبا مثل باقي الرجال.

يا رب رمزية اشفق على رمزية؛ وأفسح لها في أحشائها مكاناً لولد اسمه فهد، مرة واحدة لو أردت، كي تصير أماً مثل باقي النساء.»

* * *

امتدت يدك إلى رمزية، فاستيقظت مذعورة، قرأت عليها الخطاب العلوي، الذي وصلك للتو، قابلتك رمزية بتثاؤبة طويلة، ظلت يدك تعبث بالأتون المتقد، فيما طفحت كل عروقك بالنشوة. تتذكر أن الخطاب العلوي قد هداك إلى المفتاح؛ لا بد من إشعال الوهج في الأرض كي تكون جاهزة لاستقبال سكة المحراث. تسأل نفسك هل حسمت سكتك بشكل يؤهلها كي تتغرز في الأرض؟.

امتدت أصابعك تستحث ذلك الجسد العامر، كي تثير فيه الحياة، شيئاً فشيئاً أخذ النوم يتطاير من عيني رمزية، ها قد استنفرتَ بحركاتك كل ذرة تراب فيها. صارت وتيرة عملك أسرع، صرت تتحرك بانفعال لم تألفه من قبل. بدأ قلبك يخفق، وصار كل نبض فيك يرقص. وحيثما باشرت بضمها إليك التهمتك هي الأخرى. كأنها تلقاك للمرة الأولى.

أذهلتك رمزية، لماذا خبّأت عنك هذه الحميمية كل هذه السنين؟ لقد أيقنت الآن أنها لم تنم معك ليلة بهذه الكيفية التي كانت فيها، ولا بهذا القدر من الاندفاع والالتحام. كانت فيما مضى تستسلم لك بحياد مطلق، تريد لك أن تنهي مهمتك بأسرع وقت ممكن، ربما أحست بشيء مما تحسه المرأة في حالاتها تلك، لكنه ليس الإحساس الذي يقطع الشك والتردد والخوف.

* * *

رمزية الآن مطمئنة، متوفزة، جاهزة كي تلبي ذلك النداء الأبدي الذي أرقها، وكاد يلغي كيانها.

* * *

شعرتُ أن كل ذرة تراب تستجيب لـــي، وتــضج بالرغبـــة، وتضخ خصوبة، وصلني ذلك الوجيــب الــذي أرســله قلبهــا. والحركة النملية في كل جسدها. عندئذ أولجت حسام السكة فـــي عمق الأرض حتى غاص إلى أعماق الأعماق. و...استمر يهطل دهراً، هكذا تراءى لي، وهكذا بدت تلك اللحظة النادرة.

بعد ذلك نمنا، سبحنا في عرق العافية، وبحر الأحلام الدافئة، كل يحلم بطريقته. وحينما نهضنا في الضحى، حكيت لها عــن حلمي، وحكت لي عن حلمها، فإذا هما خارج دائــرة الانــشغال الذي أكل جسدينا كل هذه الأعوام.

عاد لرمزية كل بهائها الذي كان، ارتدّت النصاعة إلى تلــك الوجنة البلورية، وانزرع اللون من جديد في العينين الطــافحتين بالبشر، وأخذت تنتظر من جديد جنازة القمر.

* * *

لم تقل شيئاً، وحين سألتها أنكرت، لكن إنكارها الخفــي زرع في قلبك رجاء، ونما رجاؤك أكثر حينما صارت تغتسل بالنــدى حين يلف رأسها دوار ما، وتتلفع بالصبر إذا لعبت في أحــشائها حاجة الإقياء.

هل تتذكر ذلك الخشوع الذي ألم بك في تلك التجربـــة، لقــد باحت لك أنها كانت مناورة. أما الآن...

* * *

الحاج مراجع... سلامات

الكلب الذي نهشك نال من الحاج مراجع بالطريقة نفسها والمكان نفسه. جاءتك الحاجة ملهوفة، ليس بينكم وبين الحاجة مسافات، هم هكذا دائماً طيبون، حينما يحل أحد بينهم يصبح واحداً منهم.، يرفعون الكلفة، يرفعون كل الحواجز، ويتعاملون بثقة مطلقة، أنت واحد من أولاد الحاج مراجع كما أعلن مراراً، ورمزية هي الأخرى مثل إنجي، والحاجة والدة للجميع، تناديك دائماً: يا وليدي. .

جاءتك اليوم بالنداء نفسه:

ـ يا وليدي ...

في عينيها دموع وتوسل وفزع. لم تعهد الحاجة بهذا الضعف، تعرفها قوية لا تعرف الجزع، كثيرة هي المواقف التي رأيتها فيها وليدة هذه البيئة القاسية والطبيعة الصلبة، غير أنها لم تفقد رقة المرأة ولينها في يوم ما.

الكلب الذي نهشك نال من الحاج مراجع أيضاً بالطريقة نفسها، والمكان نفسه. نقل لك عابد مسعود الخبر بلا مقدمات.

في طبرق كلاب كثيرة، ما الذي جعله يؤكد أنه الكلب ذاته الذي تناولني في تلك الرحلة العشوائية، ذات مرور في حي الحويزات؟!.

كان عابد مسعود يعمل في حوش من تلك الأحواش التي تنهض في غفلة من الزمن، في تلك الأمداء الفسيحة، والتي كانت فيما مضى مسرحاً لقطعان الكلاب، تتكاثر بشكل جنوني، وتشكل ما يشبه الكارثة. ترك ما بيده، وقفز عن السقالة:

«المكان نفسه، والكلب نفسه، بخطمه الأسود الطويل، ولونه الترابي، وهيئته الضبعية؛ تماماً كما وصفته لي. برز فجأة من الحويزة المجاورة، وهسهس خلف الحاج مراجع. وتناوله من ساقه.

كنت على موعد معه، جاء ليرى العمل على الطبيعة، ربما نتفق أو لا نتفق، كان هذا شرطي أولا:

تعال يا حاج! وانظر العمل، إذا أعجبك نتفق، وإذا لم يعجبك فبين العامل وصاحب العمل يفتح الله. أنا لن أتعامل معك إلا على نور، كل شيء يجب أن يكون واضحاً منذ البداية، ولا حاجة للغبن والمواربة.»

ارتاح لهذا النمط من التعامل، وربما شجعه ذلك ليرى على الطبيعة طريقة عملي، وكيفية الإنجاز.

أوقف سيارته قريباً من الحوش، وعبر ذلك الممـر .، ومـا إن وصل إلى الزاوية التي سينفذ منها إلى الحوش حتى تناوله الضاري من الخلف، وتمكن منه هذه المرة، ولم يتركه دون أن يحدث فـي ربلة ساقه جرحاً عميقاً. ولم أر بداً من نقله إلى المشفى» .

* * *

لم أشأ أن أخبر الحاجة مباشرة ، هرعت إلى المشفى، وجدته في حالة حسنة، إذاً لا حاجة للخوف والقلق، لكنهم لم يـسمحوا بتخرجه قبل التأكد من سلامة الضاري.

لأول مرة أرى مثل هذا الاهتمام؛ اتصلوا بالشرطة، طلبـوا دورية، وقصدوا المكان، دخلوا الحـويزة القريبـة مـن ذلـك المنعطف، وفتشوا عن الضاري، وحين لاح لهم في ظل أكمـة صغيرة أطلقوا عليه النار، وحملوا جثته إلى المشفى للتحليل .

انتظرت نتيجة التحليل بقلق، ما زلت أتناول الجرعات، التي أوصى بها الطبيب، أنا معني بالمسألة إذاً كما الحـاج مراجـع تماماً، وأنتظر نتيجة التحليل بالقلق نفسه الـذي يعيـشه الحـاج مراجع، مع أني لم أخف قلقي عليه أيضاً.

لم أغادر المشفى، بل لم أغادر باب المختبر حتـى خـرج المخبري يعلمني أن النتيجة سلبية، والضاري ليس مسعورا.

* * *

أنت من أسست لهذه العلاقة بين الحاج مراجع وعابد مسعود، ومن ثم سلمان فياض لاحقاً، وأنت فرحٍ ولا شك بهـذه العلاقـة التي توثقت، ربما لأنك ترى فيها نوعاً من الرد على تلك العلاقة المشوهة التي كانت ستتم بين حمزة كنج والحاج مراجع. كنت ترى أن حمزة كنج سينال منكم جميعاً لو تم مثل ذلـك الأمـر، فالمذنب في الغربة لا يؤخذ بذنبه منفرداً، وإنما يساق بجريرتـه كل من ينتمي إلى بلده بصلة.

توثقت الصلة ما بين عابد مسعود والحاج مراجـع منـذ أن انكشفت أوراق حمزة كنج.

* * *

« جاءني برفقة امرأتين متشابهتين، كل الدلائل تـشير إلـى أنهما أختان، إحداهما زوجته ولا شك. ظهر ذلك مـن تعاملـه معها، وطريقة خطابه لها. أما الثانية فقد كانت تمتـاز بطولهـا الفارع، من أية نخلة خلقت وأنتجت هذه القامة السامقة؟ ومن أي غصن أهيف كونت هذا القد الممشوق ؟ هذا ما أدهشنـي.

خرجت غزالة لاستقبالهما، فيما احتفيـت بالرجـل وابنـه، وأدخلتهما المربوعة. قدم نفسه كمقدمة لحديث طويل:

« حمزة كنج من بنغازي ـ وضرب يده على صدره إشارة إلـى أنه هو حمزة كنج لا غيره. وكل ظنه أن اسمه معـروف فـي كـل الأصقاع الليبية ـ وهذا ابني سامي، ومن فـي الـداخل زوجتـي وأختها، القصيرة زوجتي، والطويلة أختها، قد تفاجـأ مـن نزولنـا

ضيوفاً عليك دون معرفة، من حقك أن تسأل، أنا أيضاً أحار الحيرة نفسها حينما يتلبسني ضيف دون سابق معرفة، وأبقى في حيرة من أمري حتى يكشف لي مغاليق الأمور .

حينما نويت القدوم إلى طبرق سألت محمد رجب عمن يمكن أن يستوعبني ليومين أو ثلاثة، فرشحك أنت لهذه المهمة:

«عابد مسعود!. لن تجد صدراً أرحب، ولا بيتاً أوسع، ولا أقدر منه على احتوائك ».

المخلوقة التي معنا طلقها زوجها، هكذا، ادعى أنها متعلقة برجل غيره، كذب وافتراء المرأة شريفة، كل ما هنالك أنه رجل خامل، وعاطل عن العمل، لا يقوم بأود بيته، لولانا لمات من الجوع مع زوجته وابنه. وفقدنا كرامتنا أمام الليبيين. صدقني أنا لا أبالغ ،والمسكينة أين ستذهب ؟ ليس لها إلا أختها، في كل مرة تأتي وتشتكي، نقول لها اصبري لعله يتحسن،. تصور أنه يتركها مع ابنها ثلاثة أيام بلا طعام ، وربما أربعة، لا يأتي إلى البيت، ينام هنا وهناك، والمخلوقة ماذا تفعل، هل تذهب للخدمة في بيوت الليبيين كي تطعم ابنها ؟!. أشفق عليها الرجل، أحزنه أن يرى امرأة وولدها من بلدياته بهذا العوز، صار يمد لهما يده من حين لآخر. جاء الأفندي يوماً فوجد الرجل يحمل لهما طعاماً، شيئاً ما يقتاتان به، فثارت ثائرته. أما كان من الواجب أن يشكره ؟. لا يرحم، ولا يدع أحداً يرحم، ولا يسمح لرحمة الله أن تنزل. هجم على الرجل، وهم أن يضربه، ثم طرده من بيته وقال لها : «الدرب الذي جئت منه ارجعي عليه».

شغلني الأمر، لا أدري لمَ لم آخذه على محمل الجد؟ كان الرجل يتكلم وينظر إلى ابنه بين الحين والحين.

أنت ترى الرجل، فيتكون لديك انطباع ما في أول اللقاء، فإذا ما تحدث الرجل كنت أمام أمرين: إما أن يترسخ ذلك الانطباع الأول، أو يأخذ بالتحول شيئاً فشيئاً، وربما انقلب انطباعك مئة وثمانين درجة. هكذا وجدتني مع حمزة كنج.

كان الشاب يتململ، يريد أن يأخذ المبادرة للتعليق، غير أن نظرات الأب وحركات شفتيه كانت تقمعه. شيء ما غير طبيعي، يبدو لي من حركاتهم جميعاً. خرجت زوجته، نادته، فخرجا معاً خارج الحوش. نظر الولد إليّ، ورسم في الهواء إشارة ضرب. وحين فتلت أصابعي الخمس مستفهماً قال:

- أكّس، هناك كلام لا يقال.

* * *

في بيتك التقيا، تعارفا، تحادثا، الحاج مراجع من ليبيي أيام زمان، أيام كان الرجل إذا فتح فمه بكلمة قيدت هذه الكلمة يديه ورجليه. يثق بالسوريين ثقة مطلقة، بسوريي أيام زمان أيضاً. سألك قبل أن يعقد.

- **شنّو رايك[1] بالراجل ؟.**

من جانبك أردت أن تكون الأمور واضحة، ستكون مسؤولاً أمام الرجل مسؤولية كاملة، أنت تعرف عابد مسعود جيداً، إن أربع السنوات التي مضت جعلتك تكتشف دواخله، قدرته على العمل، أمانته، إخلاصه، والثقة التي نالها من خلال تعامله. والحاج مراجع استشارك، ومن استشارك دخل في ذمتك .

« اسمع يا حاج مراجع !. من جهة العمل الرجل معلم، والأحواش التي أنجزها في طبرق تشهد بذلك، بإمكانك أن تراها واحداً واحداً. أما من حيث التعامل، الإنجاز، الدقة في المواعيد، الأسعار؛ فهذه المسائل يمكن أن تعالجها معه».

* * *

(١) شنو رايك ؟: ما رأيك ؟

الحصار

لم يستطع سلمان فياض أن ينهي مهمته، أخوه حسين دخل الجماهيرية بالبطاقة الشخصية يوم كان السفر بين دمشق وطرابلس وبنغازي بالطائرة. واليوم يا حبيبي انتهى الموعد الذي حدده مجلس الأمن لبدء الحصار الجوي على الجماهيرية، أو تسليم الليبيين المتهمين بإسقاط الطائرة " بان أمريكان " فوق بلدة لوكربي بإسكتلندة. وسوف يصدر قرار محكمة العدل الدولية، التي سوف تبرّئ ساحة ليبيا، أو ترد الدعوى الليبية التي كانت الجماهيرية قد تقدمت بها.

كان سلمان فياض عندي حينما أخذنا نتابع الأخبار، في الساعة السابعة. جاء إعلان المحكمة الدولية برد الدعوى الليبية وإدانة ليبيا، واتهامها بمحاولة خلق فجوة بين المحكمة ومجلس الأمن.

حاولتما أن تتابعا ردود الأفعال، العربية، ففاجأكما هذا الالتزام العربي المطلق بالشرعية الدولية. بلدكما فقط هي من حاولت التمرد على القرار دون فائدة، أقلعت الطائرة السورية من مطار دمشق لكن أجواء القاهرة لم تكن من الرحابة التي تجعلها تسمح

لها بالعبور. من ساعته قرر سلمان أن يتوجه إلى السفارة في طرابلس ليتدبر أمر جواز السفر لأخيه حسين. لم يبق إلا الطريق البري عبر مصر فالأردن.

* * *

من سلمان فياض ـ حصار

سبق السيف، لقد بتنا محاصرين.

حين حوصرت بيروت قبل عشر سنوات امتد الحصار إلى المجدل جغرافياً، لكنه يمتد تاريخياً حتى هذه اللحظة. وربما استمر في الامتداد حتى يظهر صلاح الدين من جديد حاملاً سيفاً عربياً، معلناً عداءه للعرب هذه المرة، ومصرحاً أن الطريق إلى القدس لا بد أن يمر بكل العواصم العربية.

حين حوصرت بيروت حوصرت الكرامة العربية، وحين سقطت بيروت سقط كل شيء. يومها أراد خليل حاوي أن يكتب قصيدة، فتحول القلم في يده إلى مسدس، وصارت العبارة طلقة، واستطاع خليل حاوي أن يصوغ في تلك اللحظة أروع قصائد ديوانه. أفلا ترى معي يا أستاذ سالم أن هذا النوع من الشعر أخذ يفرض نفسه في زمن مات فيه الشعر بموت شعور الانتماء إلى الذات؟!.

أي صمت مرهق ذلك الذي يمزق سكون النفس؟!. وأي عذاب داخلي يمارسه علينا الوجدان؟!. وأية قدرة سحرية تستطيع إخراجنا من بؤرة الذل ودائرة الهوان، لنعيد كل شيء إلى ما كان عليه؟!.

ألا ليت شعري لقد اختلطت الأشياء، وتداخل الخاص بالعام، فإذا العار الذي يلحق الأمة يلاحق كل فرد فيها، وإذا السواد الذي تتشح به قامة الوطن الكبير يصبغ وجوه الرجال. وإذا الخيول التي تدك الحصون بسنابكها تبول في كل بيت.

ألا إني أرى رايات ريتشارد قلب الأسد تتجه نحونا، وأكاد أبصر الأمير العربي يحاول أن يخفي سواد وجهه خلف شاشة بيضاء، فلا يكاد يفلح، فهل تحول الوطن بهذه السرعة إلى سجن؟!. وهل ستتحول الساحات والميادين العامة إلى مرابط لخيول الإفرنج من جديد؟!.

لقد بتنا يا صديقي نحلم بسيف عربي وجواد عربي؛ سيف عربي صقيل، وجواد عربي أصيل. ولقد سبقنا أسلافنا إلى هذا الحلم دون أن يتحقق حلمهم ؛ لقد حلموا به يوم سقوط غرناطة، وحلموا به يوم سقوط بغداد، وحلموا به يوم سقوط سيناء والجولان، وحلموا به يوم حصار بيروت، وها نحن نحلم به اليوم؛ يوم حصار طرابلس. فمن لهذه الطرابلسية إذا نادت وامعتصماه؟!. وقد تشاغل عنها كل المعتصمين بحبال النظام العالمي الجديد، والشرعية الدولية التي لا تستيقظ إلا حين يتحرك واحدنا ولو إلى بيت الخلاء. على حين يحلو للشرعية الدولية أن تنام على أنات الملايين المنهوكين في هذا العالم، الذي تحول إلى فصل من فصول الدراسة الابتدائية الأولى، يديره معلم لا يتقن إلا استخدام العصا.

لقد تحول الأمير العربي بقدرة قادر إلى مدمن شرعية دولية، يمارس على ضوئها الأحمر المتوهج طقوس العـــادة القبيحـــة، ويخفي وراءها عجزه وقصوره، فهل سينبلج الـــصبح ؟ وهـــل سيعود لهذا الوطن بهاؤه، ونقاؤه الذي كان؟!.

سلمان فياض، طرابلس

* * *

خذلتهم السفارة، طالبتهم بضريبة اغتراب عن عشرين عامـــاً قضاها حسين في الجماهيرية، يتعشى النوم ويصبح على خواء. والضريبة مقدرة بالدولار؛ مئة وخمسون دولاراً عن كل عـــام، يعني سيدفع حسين ثلاثة آلاف دولار كي يحصل علـــى جـــواز سفر يمكنه من العبور إلى سورية عبر مصر والأردن، ليـــرى أولاده الذين صاروا شباباً في غفلة منه.

قال لهم سلمان : من الذي سيدفع؟ أنتم أم هو؟!. لـــم يتـــرك أولاده عن طيب خاطر، قرصه الجوع فولى هارباً. الرجل الآن منكوب، عاطل عن العمل كل هذه المدة، ولو تجمع لديه ما يمكنه من العودة إلى سورية لما بقي حتى الآن.

استذكر حكايات عشرات العمال الذين صادفهم في طرابلس، في مصراتة، في بنغازي، في الخمس وجدابيا، والكثير من المدن الليبية التي زارها في رحلة بحثه المحموم عن حسين. أحدهم لم

ير بداً من النزول إلى السفارة، عسكر فيها، قال لهم : أنا هنا حتى تحلوا مشكلتي، السفارة قطعة من سورية، وأنا هنا مقيم في بلدي. حاولوا إقناعه أن الدوام الرسمي قد انتهى، والسفارة ستغلق أبوابها، قال لهم اذهبوا، أنا باق هنا، سأنام في البهو، في ساحة السفارة. لكنني لن أغادرها إلا إلى سورية. عند ذلك اضطروا أن يمنحوه جواز سفر مؤقت، يمكنه من العودة إلى أهله.

هل يفعل حسين هكذا؟ التعليمات مشددة، والقانون واضح، هكذا أجاب أحد الموظفين ممن أبدى تعاطفاً مع سلمان. أضاف الموظف: يمكنك أن تصالح على المبلغ.

- **كيف يعني؟**

- **تدفع نصف المبلغ.**

- **يعني؟.**

- **ألف وخمسمائة.**

- ليرة سوري؟

- **لا، دولار.**

- **دولار؟!.**

- **طبعاً.**

وأخذ سلمان يترجمها إلى دنانير ليبية على سعر الصرف بعد الحصار؛ عليه أن يضرب الرقم بثلاثة، أي انه سيحتاج إلى أربعة آلاف وخمسمائة دينار ليبي عداً ونقداً. من القادر على جمع هذا المبلغ في ظل الحصار، وضيق ذات اليد ؟.

رفض سلمان إعانة البيت السوري. حاولوا إقناعه أن البيت السوري أسس أصلاً لمثل هذه الحالات، لكنه أصر أن يعمل هو وحسين لتأمين المبلغ ونفقات السفر، عندئذٍ لم يجد عابد مسعود أمامه إلا أن يفتح لهما باب ورشته.

* * *

لا بد من العبور نحو الشرق ... لا بد.

وطبرق هي المعبر الآن، جميعهم سيعبرون من هنا في ظل هذا الحصار اللعين. جابر سيعبر هو الآخر، ربما اكتفى بدفع زوجته إلى العبور، وربما كانت مقدمة لعبوره. جاءك صحبة مثقال الحلبي، سلم سلام من عايشك زمناً. منذ متى كانت تلك المعرفة ؟. تلبستك الحيرة، غير أنك لم تستطع أن تبدي ارتياباً، وبخاصة أمام مثقال، أحس مثقال بما أنت فيه، وحين خرجت من المربوعة تبعك:

« قرع الباب منذ يومين. كنا نوشك أن ننام، من هذا الزائر في مثل هذا الوقت من الليل؟!. لا بد أنه من مكان بعيد، لقد تعودنا على مثل هذه المفاجآت في أيام الحصار. فتحت الباب، كان أمامي كما تراه برائحة سفره وهذيانه:

- ***هذا حوش اولاد قميرة ؟ .***
- ***وصلت ! تفضل !.***
- ***أنا جابر سعيد من زوارة.***

أفسحت له، رحب به الشباب، سألوه عن أحوال الشباب في زوارة بعد الحصار.

« كل الناس مثلك مثلك » .

هكذا أوجز الحال، غير أن الرجل مشغول، مشتت، ذلك بدا من تصرفاته، نظراته. لم نشأ أن نقتحم همومه، غير أنه لم يتركنا في دوامة أفكارنا:

- صرتوا بطبرق محطة للرايح والجاي.

- أهلا وسهلا؛ نحنا لبعضنا.

- شو أخبار حمزة كنج بطبرق ؟

عندئذٍ أمسكنا رأس الخيط، فربما كان واحداً من ضحايا حمزة كنج .على كل حال الرجل سأل عنك، يقول إنه من معارفك، اسمه جابر سعيد، هل تذكره؟. حكايته حكاية، سيوضح لك كل شيء، أردت أن أقدم لك الرجل بثوبه الحقيقي فقط. »

تعود إلى المربوعة، تحاول أن تتذكر الوجه، ربما كان صغيرا، والآن هو رجل، الاسم جابرسعيد، ليس من قميرة، تعرفهم جميعهم. من أين إذاً؟.

قال لك إن أقرباءه في قميرة، وكان يراك هناك، ربما لا تذكره أنت لكنه يعرفك، أنت المعلم الذي أصبت بالنكاف جراء عدوى التلاميذ.

ما الذي أتى به من زوارة إلى طبرق؟! تسأل نفسك.

يقول إنه جاء يبحث عن زوجته التي سرقها عديله حمزة كنج

* * *

« يا أستاذ! والله سرقة. قالت لي إنها ستزور أختها في بنغازي، تركت شغلي وأوصلتها بيدي، وعدت إلى طرابلس في اليوم نفسه، ولما رجعت لأخذها قالوا لي سافرت إلى طبرق، من يومين وأنا أحاول معها لإقناعها بالعودة معي، لكنها أبت، تقول إني أتركها بلا طعام، قسماً بالله يا أستاذ أستلم من هنا وأسلمها من هنا. لا أترك معي حتى مصروف الجيب، ماذا جرى للمخلوقة؟ لا أعرف. »

* * *

يعاودك وصف عابد مسعود: « الثانية كانت تمتاز بطولها الفارع، من أية نخلة خلقت وأنتجت هذه القامة السامقة؟ ». وتنظر إليه؛ قصير القامة، هزيل، صغير الرأس، معوج الساقين. من حقها أن...

« أن ماذا؟!. لماذا رضيتْ به منذ البداية؟ أم أن عينيها كانتا في ظهرها!. الآن؟!... وفي الغربة؟!. على كل حال هذا ليس من شأنك.

لكنك ماذا لو علمت أن رجلاً جاء منذ يومين من زوارة مع ابنه الشاب؛ نزل حيث ينزل حمزة كنج، ادعى انه جاء مصادفة، وحينما رأى المرأة، وعلم بمشكلتها رق قلبه، وأبدى استعداده للزواج منها، وتطليق زوجته أم أولاده » .

أنت تسمع فيقفز عقلك إلى الكف. هل تصدق؟ أم أنها واحدة من تفليكات الشباب في طبرق، وقد شغلوا أنفسهم بهذه المسألة حتى العطالة؟.

حين نقل لك معذى محمود الخبر ظننته يشطح، الآن صار الخبر مؤكداً.

* * *

« تصور يا أستاذ! يريد حمزة كنج أن يزوجها؛ وهي على عصمتي، معقول؟!. والعريس جاهز سنكة طق، رجل سايب في شوارع زوارة، يعرفه كل السوريين هناك، يتحاشون الحديث معه أو التعامل، حمزة كنج وحده الذي كان ينقذه من العزلة حينما يذهب إلى هناك. لا أدري ماذا بينهما، الناس تتحدث شرقي وغربي، يمضي حمزة كنج عنده عدة أيام، لا أحد يعرف ماذا يفعلان، كل ما نعرفه أنه ينتعش بمجيء حمزة كنج، تظهر النعمة فجأة عليه، يجخ، يصرف»

* * *

تسأله بعد هذا الإسهاب عما يريد، سؤالك جاء مشوباً بالاستعداد للمساعدة، والتهيؤ للقيام بشيء ما ينقذ الموقف :

- انت طلقت؟.

- أبداً! من قال؟!.

- طيب والخلاصة ؟.

- أريد زوجتي. إبعثها إلى سورية وإبعث وراءها الطلاق.

« لا أطيق رؤية حمزة كنج ثانية، لا أرغب، لا أود »، هـذا شأنك، لكن الرجل دخل في ذمتك، وأنت فتحـت لـه صـدرك، واستمعت إلى مشكلته حتى ظن أنه رفع هذا الهم عـن كاهلـه وطوق به عنقك. هل تتخلى؟ هل يجوز؟!.

رمزية سمعت جانباً من الحديث، وأحاطت بالمشكلة تقريبـاً. أخذت تدفعك للتدخل. لإنقاذ المخلوقة من أنيـاب حمـزة كـنج ومخالبه. هي تخبر هذه الآفة جيداً، وشهادتها بحمزة شهادة مـن رأى واكتوى، لا من سمع وروى. وبغضّ النظر عـن سـلوك المرأة، فهي في دائرة حمزة كـنج مظلومـة. هكـذا اعتبـرت رمزية، ومن هذا المنظار تدفعك للتدخل.

لم يقتصر موقف رمزية على حثك، سلمتك المفتاح؛ المـرأة معها ولد، لمَ لا يذهب الرجل ويأتي بالولد ؟ أبنه، وله الحق في ذلك. هكذا أنقذت رمزية الموقف.

* * *

أنت لا تتمالك نفسك أمام الأطفال، وكذلك رمزية.

صبي في الخامسة، هكذا قدرت، يشع من عينيه بريق خاص. يجذبك بكل ما فيه من صفاء لون، وخضرة عيون، وشقار شعر. أخذته رمزية بين ذراعيها، غمرته مثلما يغمر النـدى زهـرة ،اختصرت بذلك كل أبجدية الشوق، اختصرت كل لهفتها لطفـل مثله، انشغلتما أنت ورمزية بالطفل الجميل. لم يكن بإمكانـك أن تكون حيادياً، شيء ما جعلك تتأمل، تـديم النظـر فـي العينـين

الخضراوين، والشعر الأشقر، والأنف الذي كان نسخة مصدقة عن أنفك. لم يعد يثقل على رمزية لهفة كهذه، لقد صارت على مشارف الأمومة. وها هي تتملاه، ألم يقولوا: «**عين الوحمانة تنقل؟!**».

* * *

بعد قليل جاءت. جذبتها الأمومة؟ ربمـــا... وربمـــا هنـــاك مركزجذب آخر، هل أنت متأكد؟

من أية نخلة بسقت؟! صدق عابد مسعود، يا إلهي ! كيــف يضيع مثل هذا البهاء في متاهات الجماهيرية، وكيف يتدبر جابر سعيد أمر هذا الكائن؟!. عيناك أوشكتا أن تفضح ما اشتعل فـــي الداخل. نقلتك المخلوقة إلى هناك، ما اقصر الطريق إلى قميـــرة عبر هذه الهيئة السحرية! بل ما أسرع أن تحضر قميـــرة إلـــى طبرق! هكذا شخصت أمامك باستقامتها، واستدارة وجهها، حتى تلك الغمازة على صفحة الخد، معقول؟ هذا الشبه أذهلك، ألهـــاك عن التكاثر... عن مشروعك الذي عصف بك كل هذه الـــسنين. ذلك الوجه المستدير، والعنق المشرئب، والقامة الرمح؛ هـــي... هي. تلك الجنية التي أضعتها ذات حلم، وكل حلم.

إنها التي برزت لك ذات صباح على وجه المـــصادفة، بـــل على وجه القصد غير الواعي، حينما زحفت إليك بكليّتها فالتقيتها بكل ما فيك من انتظار وشوق، دون أن تدري أنك ذاهـــب إلـــى منفاك، تماماً كما سحر المغربي البنت التي كانت تمشط شعرها، في حكاية أمك التي رددتها على مسامعك وأنت صغير.

لم ينقذك من متاهة المرأة إلا صوت رمزية:

- **الولد، ينظر إليك.**

تنظر إليه، يبتسم لك. يفصح ثغره عن لآلئ تـضيء تخـوم الوجه، تأخذه من ذراعه، وتجلسه بالقرب منك، ثم في حـضنك، ثم تخلع عليه قبلة.

من أين جـاءتك هذه العاطفة؟. أم أنه امتـداد لحـلم مـضى عليـه أعـوام؟. تتوجـه نحوهـا، تـسألها عـن اسـمه، وتسبح عيناك في ذلك الفضاء السماوي، متجاهلاً لهفتها ومفاجاتهـا وارتباكها. تختلج شفتاها، فيصطبغ وجهها بلون الغروب:

- **سالم.**

لفظت الاسم كما تلفظ البندقية مظروفاً فارغاً، وكان عليك أن تتجلد... أن تتجاهل... أن تضع على الوجه مسحة من غباء. بين نارين أنت؛ نار من أمامك، ونار خلفك، فعلى أي الجانبين ترقد.

* * *

« إذاً فقد كنتُ حاضراً معكِ كل ذلك الوقـت، سـاكناً فـي عينيكِ. وأنتِ من الذي غيّبكِ؟!. وإلى أين؟. سألتُ وسألتُ، كنت أدفن لهفتي في سؤال مواربٍ؛ أسأل عن الصغير، لمَ غاب؟ وأين اختفى؟. وفي طيات السؤال كنتِ تختبئين. غيبتك بيروت في ذلك

الرحيل الجماعي المفاجئ ولم يبق لي إلا بقايا صورة أخفق في إعادة ترتيبها، مثلما أخفق في استعادتها ولو في حلم. ربما أعدّوا لذلك الرحيل وأنا لا أدري، غافلاً كنت، غبياً، ساذجاً، لأدري.

الآن... الآن تظهرين مثل غيمة صيف، لماذا؟!. لتنكئي جرحاً التأم منذ أعوام ؟. »

* * *

إذاً فقد انقشع الضباب، وعانق الغمام المرج. وصار بإمكانكَ أن تفسر لمَ كان الإصرار على أن تتدخل في موضوع الخلاف:

«لا يحل المشكلة إلا الأستاذ سالم » .

لماذا ؟ ومن ذا الذي رشحك إلى هذه المهمة؟ أنت تسأل نفسك الآن، وهل كانت تتعقبك كل هذه السنين؟. هل كان اسم ولدها حيادياً ؟. كل ذلك سيتضح، ولقد « **خُلق الإنسانُ من عَجَلٍ، سأوريكمُ آياتي فلا تستعجلون** »

* * *

هل تستطيع أن تخفي لهفتك؟! هل تستطيع أن تقاوم الرغبة في الإمساك بها من كتفيها، وهزها: « أين كنتِ كل هذا الوقت؟! وفي أي البحار غصتِ؟ أي المراكب حملتكِ إلي؟ » .

عيناكَ، شفتاك، تقاسيم وجهك. ورمزية تنظر إليك، تقرأ شيئاً ما غير طبيعي، أنف المرأة لا يخطئ، أيمكن أن تحدث لك رؤية المخلوقة كل هذا الاحتفاء الصامت؟. تسألك بعد أن تلمس منك هذا التحفز غير الطبيعي:

- **تعرفها؟**

لا تسمع، لا تعي، تتغافل. ولكن إلى متى؟. تنظر إليها بعد أن تعود من رحلتك في عيني المخلوقة:

- **لا... لا**

- **لكنك...**

- **تشبهها... مخلقاً منطقاً.**

- **تشبه من؟**

تلح عليك الحاجة كعادتك، تخرج، أنت تعرف رمزية، إنها تمارس التحقيق بحرفية، ستلاحقك، ستواصل تحقيقها، تحاول أن تتدبر أمرك، تلفق لها حكاية ما، قريبة من الواقع:

« فتاة من القميرة، كانت صغيرة حين ساكنتهم أيام التدريس هناك، طفلة كانت، تتردد عليّ، تملأ الخابية، تقضي بعض الحاجات، الملامح ذاتها سبحان الله»

مشكلتك هي ارتباكك في مثل هذه المواقف، لسانك يفضحك، والعرق الذي تضخه عروقك فينز من جبينك، الصقوعة التي تنتابك فجأة. أنت لا قبل لك بأي نوع من أنواع التحقيق؛ من

يخضع للتحقيق يحتج إلى قدرة على المناورة، وربما على الكذب والمراوغة، واللف والدوران. أما أنت فلا، لا تتقن هذه اللعبة، فلا بد أن تقع في نهاية الطريق.

* * *

أخذتني رمزية على قدر عقلي، غير أنها أخذت تراقبني؛ كثيراً ما ضبطتني متلبساً بوهجي، أسوق أمامي قطيعاً من الغزلان، غزالة واحدة كانت ترهقني بطيشها وجسارتها، فاترك القطيع وألاحقها.

أنا بدوري كنت أراقب رمزية، يبدو أنها قررت أن تلعب معي لعبة القط والفأر. أراها تديم النظر في سالم الصغير، علقت مرة على تسميته:

- **الأسماء محبة.**

- **يعني؟**

- **يعني إذا أحببت أحداً سرقت اسمه.**

تغابيت أكثر:

- **رمزية ماذا تقصدين ؟**

- **أبداً ... مجرد كلام.**

* * *

السنوسي وداعاً

سؤال الحاج مراجع ليس حيادياً، فيه رائحة الموت، يسألك إن كنت قد رأيت السنوسي اليوم.

نعم كان السنوسي يقف مع« الأبلات» حينما انصرفتَ من المدرسة في الساعة الواحدة. حتى أنه دعاك للغداء عنده فاعتذرت بحجة أن هناك من ينتظرك. قال لك مازحاً:

- **نبّو نشوف غدوة[1] لمّا يتكاثروا العويل[2].**

يريد أن يعرض بالتزامك الصارم بالبيت، وهو الذي لا يكاد يمكث ساعة في البيت، ولم يمضِ على زواجه أشهر .

ضحكت الأبلة إنجي وقالت:

- **مش لما يجي العيّل أول؟.**

هكذا عصفت بك الأبلة إنجي دون أن تدري.

---

(١) غدوة: غداً.

(٢) العويل: الأولاد.

يفاجئك الحاج مراجع بالخبر:

- **السنوسي سلامتك.**

ماذا تقول يا حاج مراجع؟!. تستوضحه بجزع. يتابع:

- **السنوسي خلاص.**

يا حاج مراجع قل غير ذلك الكلام. الرجل كان مثل صباح الخير، ماذا جرى؟! .

لكن الحاج مراجع يرى أن الموت ربما غشي المرء بلا مقدمات كما غشي السنوسي اليوم؛ تغدى، ونام، نهض على ألم في رأسه، طلب من زوجته شيئاً ساخناً، حينما عادت بكأس النعناع وجدته قد انتهى.

مر الحاج مصادفة حينما سمع الصراخ والعويل.

* * *

« دخلتُ، لم يبد على السنوسي ما يدعو إلى الخوف، الرجل مستلق على الفراش، عيناه مغمضتان، رأسه يتوسد يده اليمنى، تراه فلا ترتاب، الرجل نائم كما ينام الناس، هززتُه:

- ***السنوسي! هيا خرّعت الولية[1].***

(١) خرّعت الولية: أفزعت المرأة.

لكنني كنت أنادي جبلاً. لم أصدق، ظننته يمزح كعادته، أنت لا تعرف جده من مزاحه، ينقلك بلحظة واحدة من الحزن إلى الفرح. من الخيال إلى الواقع. يتركك في هذا البرزخ ويمضي. ربما فعل بي ذلك هذه المرة. غير أن عويل الولية أثار فزعي. حملته إلى السيارة.

أقنعني الطبيب الباكستاني في مشفى الحرية أن الرجل جاد كل الجد هذه المرة، لقد مضى واتكل على الله.»

* * *

كان الحاج مراجع يحدثني بحزن عميق. حين تنقل لك امرأة خبراً كهذا يصلك الخبر عبر دموعها، فتستجرك إلى البكاء. أما حين ينقله رجل فهو يدعوك إلى التجلد.

* * *

إذاً فقد مات السنوسي. منذ شهرين كنا نحتفل بزفافه، جميعنا كنا نصلي خلف والده الحاج موسى صلاة العصر، تناولنا الطعام، بعد ذلك ألبسناه ثيابه، طقماً أسود وربطة عنق حمراء، ربطتها بيدي، وشددتها حول رقبته، وما كنت أدري أنني أشد حين ذاك حبل مشنقة، أدرتها يميناً وشمالاً حتى اقتنعت أنها سوف تلوي عنقه، وتذهب بتلك الابتسامة الدائمة. وانتحيت به جانباً؛ أوصيه تلك الوصايا التي اعتدنا أن نوصي بها كل عريس آن دخوله. أدهشني أنه كان يستمع لي كمن يستمع إلى حكاية خرافية. وحينما انتهيت قال لي:

– **باهي! توّا نشوفو**[1].

لم أصدق أنه قد انهى مهمته بتلك السرعة، زففناه حتى بـــاب الحوش، وانكفأنا. . لم تكن قد مرت دقيقتان حينما أذهلني صوت الرصاص. جفلت؛ من القاتل؟ ومن المقتـــول؟. وهـــل يتحـــول العرس إلى مأتم بهذه البساطة؟!. أنظر حولي، جميعهم طبيعيون، لا حركة تنم عن خوف أو فزع. أسمع زغردة، ماذا جـــرى ؟!. هل أنا بكامل وعيي؟. ها هو السنوسي يخرج، وها هم يقبلـــون عليه؛ قُبل وتبريكات، و« **بالعويل انشالله** » .

– **انقذني يا احميدة !** »

* * *

قال لك احميدة هم هكذا في طبـــرق، مـــا زالـــوا يفـــضون بأصابعهم، وحينما رآك مندهشاً استرسل : في منـــاطق كثيـــرة تركوا هذه العادة، لكنهم في البطنان مختلفـــون، لهـــم طقـــوس غريبة، على كل حال هذا حديث يطول.

يثير احميدة فضولك، غير أن الحديث يتجه وجهة أخرى.

إذاً فقد مات السنوسي.

* * *

---

(١) باهي، توّا نشوفو : حسناً، الآن سنرى.

أسئـلـة

ظل سؤالك بلا جواب،

كلما بحثت له عن إجابة استوت أمامك الأجوبة، وتلبدت غيوم كانونية، تعصف بذهنك، تشتتك، تحجب مدى الرؤية.

هل كان جابر ذئباً بثوب حمل، وهل يستطيع المرء ان يخفي ذئبيته إلى هذا الحد من الوهن والبلادة؟!. أم أن التعبير عن الذات ربما يتخذ اشكالاً متباينة.؟!.

بدا لك الرجل بهيئته المرتبكة شيئاً ما لا يصلح للانتقام، لا يقوى على ردة فعل، ، ولا يأبه لإثبات وجوده، فإذا هو بين ليلة وأختها ينبجس من ثوبه الحَملي، يتجرد سيفاً، ينغرس في خاصرة سلمى. فيعلو صوت الذكورة، التي ينبغي أن تكون كلمتها هي العليا، وكلمة الأنوثة السفلى إلى يوم الدين.

لم يعبر عن هذه الحالة بلسان، بل صاغها فعلاً في لحظة صحو، رأى فيها كيانه الذكوري يهتز، يكاد ينهزم أمام تألق الجسد الذي ينبض بالحياة. من أية أعماق انتشل نفسه؟!. ومن

أية أبعاد استحضر تلك الإرادة التي ناست كل تلك السنين، ثم ما لبثت أن اتقدت فجأة لتشعل النار في هشيم حياته، وتمضي آخذة في طريقها فوح عبير لم يحسن تنشقه في يوم.

* * *

كانا لا يزالان في ضيافتنا أنا ورمزية. أخلينا لهما المربوعة وما يتبعها من منافع. كنت قد عقدت العزم على أن أستبقيه في طبرق.

لماذا؟!. لا أدري. هل هبطت عليّ الخوة من عوالم الغيب؟ أم لعلها سلمى التي حضرت من عالم الغيب نفسه ؟ أم لعله سالم الصغير الذي أخذ يلفني في غمامة من وجد؟ أم أن هذه الأسباب جميعها هي التي دعتني أن أكلم عابد مسعود كي يضمه إلى جيشه من العاملين؛ ذلك الذي أخذ يتنامى بوجود سلمان فياض وأخيه حسين.

أسعده ذلك السعي الحثيث للاستقرار في طبرق، هكذا ظهر لي من خلال ترحيبه بالمشروع، فربما استطاع في طبرق أن يجد ما لم يجده في زوارة.

من جانبي كنت أحرص على تغليف شهيتي لتفاحة من بستان سلمى؛ شممت ريحها، وتذوقت طعمها ذات رهق. كانت مكابدة مرة أمام مهابة رمزية بهيئتها الجديدة، وتألق سلمى الذي ردني إلى جملة من السنين خلت، وجعلني أصفق بجناحي نسر، أنهض من جديد بهمة غزال، أصلي في محرابها الذي اقمته في صدري منذ أن عادت تحمل إلي عطر السنين الدارسة، ونوارة عشق طالما اشتهيت أن أراها تعطر صباحاتي بفوحها.

كان جابر يبدو لي محايداً أمام التصاقي بسالم الصغير، وتعلقي به حد العبادة. غير أن ألف عفريت امتطى ظهره فجأة، وألف شيطان استيقظ في حجره ثم أخذ يزن في أذنه:

« هل كل ذلك الحب مجاني؟!. وهذا الشبه حد التطابق هل جاء مصادفة؟. »

لقد انزلق أمامي في لحظة ضعف؛ كانت سلمى عصية، لم تسلس قيادها له، لكنها مكنته من نفسها في الليلة الأولى لعودتها ثم تمنعت:

« أحسست حينها أن ثمة من سبقني إلى هذا الدرب، وراد هذه المجاهل قبل أن أرودها الآن. تماماً مثلما تدخل إلى كرمك بعد غياب، فترى لمسات الغرباء في حبات العنب المتناثرة، وأوراق الدوالي الممشوعة، وآثار الأقدام التي تحفر في الذاكرة حقيقة اقتحام الكرم.

لم أجرؤ بداية على البوح بذلك، لكن القلق كاد يأكلني. أخيراً واجهتها:

- سلمى! قولي لي: ***هالكرم ماحلي بعين حدى بغيابي؟!.*** *يومها استكبرت ذلك السؤال، ورفعت أنفها عالياً:*

- إذا كنت عارف إنك مش قادر تحمي كرمك، ليش تكالبت عليه كل ها الشي ؟.

ومن ساعتها أخذت تتمنع، وتزدريني، حتى قالت لي في لحظة نزق بعد ولادة سالم:

- لو اتكلت عليك ما جبت لك هذا الولد.

وحين رأت الفار يرعش في عبي استدركت:

- أنا الي كنت فوق هاذيك الليلة، بتذكر ؟. »

* * *

لقد استقام أمرهما في المربوعة يوماً... يومين... ثلاثة أيام. ثم بدأ اللغط. كنت قادراً أن أستمع بأذني إلى وتيرة الهرج يعلو شيئاً فشيئاً.

قالت لي رمزية: ربما يشعران بالحرج عندنا، اسعَ لهما بحوش منفصل، وساعدهما ما شئت.

هل كان طلب رمزية محايداً؟ أم أنها أخذتها الغيرة، رمزية وأعرفها، حين تريد شيئاً لا تطلبه مباشرة، زرعت رمزية بطلبها هذا بذرة الشك، أيقظتني من غفلتي وسبحاتي في تلك المتاهة التي وجدت نفسي فيها.

« ماذا أقول لك يارمزية؟ هل تغفرين لي؟ يوم انعقد ما بيني وبينها لم تكوني أنت في الحسبان، ولا ظهرت على ساحة تفكيري، ببساطة لأنني لم أكن أعرفك. . ولو عنّت لي سلمى في عهدك فربما أبيت واستأبيت، أما وقد حدث ذلك قبل عهدي بك، وقبل أن تغسليني بعبق المحلب والقرنفل وجوزة الطيب، فليس لك أن تحاسبيني».

حين بادرت إلى طرح الموضوع مع جابر فاجأني بالمشكلة. سرد لي وقائع الخلاف السابق؛ بذور الشك التي نبتت أشواكاً في صدره. لم يبق الآن إلا أن يشير بإصبعه، لكنه انطوى على نية كانت تباغته بين الحين والحين، حتى استقرت آخر الأمر في تلافيف دماغه، عششت في كل خلية من خلاياه.

لم أدرك مغزى كلامه حين قال لي رداً على عرضي هذا :

- **ربما أحسم الأمر خلال أيام.**

وحسم. أجل لقد حسم.

لم يكن جابر بهذا الحزم يوماً. ولم يحسم أمراً قبل الآن. هذه شهادة من عايشه في زوارة طوال اغترابه. وهكذا أكد لي كل من فاجأته فعلته، يوم اقتحمني تلك الليلة ملهوفاً، دق الباب بعنف، وحين

خرجت أستطلع الأمر كنت أمام ذلك الشبح الذي افتقد لون الحيـــاة؛ وجه أصفر، وقامة ازدادت ترهلاً وقائمتان ترتجفان:

- **خير؟!... شو في؟! .**

- **سلمى.**

أردت أن استوضح، لكنه أضاف:

- **ست سبع حبات مسكن... بيقتلوا الجمل.**

* * *

هرعت لا ألتفت، وهرعت رمزية خلفي. لم يكن بيننا غيـــر صالة بعرض خمسة أمتار، غير أن المسافة أمتدت، لتغدو أبعـــد من الخيال. لم نصل إلا بعد أن أفرغت جوفها، وما زالت تتقيأ، وثمة رائحة خاصة انتشرت في المكان، جعلتنـــي أبـــادر إلـــى الإسراع بنقلها إلى المشفى. عند ذلك وقف معانداً كل محاولاتي:

- **سترتاح بعد قليل، بعدما تستفرغ، بلعت سبع حبـــات مـــسكن. قلت لها هذه الأدوية ضارة، تسبب لك تسمماً. لكنها عنيدة، لا تقبـــل نصيحة، ولا تسمع كلمة**

كاد يقنعني، ويجعلني أكف عن مشروع الإغاثة الذي بدأتـــه، لولا أن المخلوقة أخذت تشهق، كأنما تستجدي نـــسمة الهـــواء، تطلب العون من رب القدرة، ما جعلني أســـرع إلـــى الـــسيارة أشغلها. وهو لا ينفك يعذلني، يقنعني أنها حالة مؤقتـــة، وأنهـــا

كثيراً ما واتتها، ثم زالت دون حاجة إلى مشفى. ولما لامس مني إصراراً كشر عن أنيابه:

- مرتي، وأنا حر.

* * *

« فعلاً هو حر، ولمَ هذه الحشرية التي استولت عليك ؟ كأنما كل نمال الأرض قد رعشت في جلدك، ونخرت عظامك، وأوقدت أعصابك، وأنزلتك من عليائك لتستقر بك هنا، أمام باب المربوعة الذي انفتح كفاجعة، وحشرجة المرأة تقطع حبال القلب، وتلغي كل أسباب التريث، والتعقل البليد. هل كنت تطمح أن يتوسل إليك؟ يستحلفك بأنبيائك... بآلهتك التي تعبد... بوثنيتك الأولى؛ أن تكف عن اندفاعك الأحمق، وتترك المخلوقة ترسل في اذنيك نغم الوداع القاتل؟!».

غير أن رمزية لم تعبأ لجدالنا، أسرعت إلى إصلاح شأن المرأة، وأشارت لي أن المسيرة قد اكتملت، وأنه بإمكاني الآن أن أكون الربان الذي يقود سفينة النجاة، وأن أمارس من خلالها شهامتي وإنسانيتي، وإشفاقي، وتلهفي، وقلقي، وانحباس أنفاسي، وسماع دقات قلبي دقة بعد دقة. فحملناها إلى السيارة وسط ممانعة جابر التي لم تجدِ شيئاً.

* * *

اراد جابر ان يكون شيئاً في تلك اللحظة، لكن الرجولة لا تهبط وحياً. بادر إلى إغلاق الباب، وأدار المفتاح، غير ان يده غلت إلى عنقه أمام اضطرابي واحتراق أعصابي.

قالت رمزية: لا حاجة إلى المشفى بعد الآن. نظرت إليها مستفهماً؛ ما دهاك يا رمزية؟! قبل قليل كنت تستحثينني، شياطينك كانوا اكثر إصراراً من شياطيني على إنجاد المخلوقة. كانت سلمى قد اختصرت الطريق بأسرع مما توقعنا، لم تكد تغادر الحوش حتى غادرت هذه الدنيا إلى عالم آخر لا يدري غير الله مدى اتساعه، مستوعباً أطياف الزائرين من كل صوب على مدار الساعة. وحينما نظرت فاجأني فم مفتوح كفاجعة، وعينان جامدتان تنظران إليّ ببلاهة. قطعة من نزيف قلب كانت، أذهلتني هذه *الحيادية التي آلت إليها، أم أن وجود رمزية خلق هذا الحالة* النازفة؟ اقتلعتني رمزية من سبحاتي:

- المخلوقة اتكلت على الله، وربما عمدوا في المشفى إلى تشريح الجثة، المستورة حرام.

لكني أصررت:

- ينبغي الوقوف على أسباب الوفاة، ثم إنها مسؤوليتنا ما دامت في بيتنا.

لم أؤمن بنتيجة التشخيص الأولي للدكتور عبد الناصر، هززت رأسي مستغرباً حينما أعلن:

- لا أثر للتسمم الدوائي، الوفاة نتيجة تسمم غذائي.

ماذا يمكن أن تكون قد تناولت؟! هكذا كنت أتساءل حينما استدعى الدكتور عبد الناصر شرطة المشفى. وطلب تحويلها إلى الطب الشرعي، وفتح تحقيق أصولي.

* * *

لم يكن في شهادتي ما يدين جابر. لقد نقلت الواقعة، كما جرت، لكنهم لم يكتفوا بذلك سألوا عن جابر، فاعترفت أني قمت بإحضار المرأة رغماً عنه. عند ذلك طلبوا معاينة المكان. وحينما وصلنا وجدنا جابر ما يزال منهمكاً بتنظيف ما أحدثته سلمى في فناء المربوعة. طلبوا منه أن يترك كل شيء، وباشروا إجراءات رصد الحالة، ثم اصطحبوه معهم لاستكمال التحقيق.

* * *

في حمأة الشك... اعترافات جابر

« كنت أهدر وقتي متأملاً ذلك الكيان الأسطوري، الذي أمطره الله بالبهاء الجليل، أستطلع مجاهل العينين اللتين تقودانني إلى متاهات وحشية، أتملّى مفاتن الجسد العامر بالبهجة، وكان يكتنفني ارق ناري مفاجئ، يكوي حبة القلب. هل هذا الثراء الخرافي ملك يميني حقا؟ ومن دون العالمين من خلق الله؟ وهل أنا قادر على احتواء كل هذا الحقل الممتد حتى آخر المدى بأزاهيره وأعذاقه وعناقيده؟.

حقل يبهر ناظري كلما حاولت أن أتملاها، أتأمل مشيتها... قامتها... سموقها. لماذا يداخلني هذا الشك النازف كلما حاولت أن أمد يدي لأقطف زراً من ورد، أو أتلمس نعومة مشمشة أو دراقة؛ كأنني لص يسير في حقل من حقول الآخرين خفية، أو كأنما أمد يدي إلى مال أوقف لأيتام، أو لأولياء الله الصالحين؟!.

أتهيب، أرتجف، ترتقص قائمتاي، تتحرك الشياطين في دمائي، تمتد يدي إلى عب الدالية، أفتش عن عنقود... عن خصلة... عن حبة فرطت ناشزة، فتنتفض مذعورة مثل بقرة

وحشية؛ كأنما يدي موصولة بتيار من التوتر العالي. ثم تبتعد المسافة فيما بيننا، بيد أني أزحف إليها برغبتي البهيميه لاهثاً.. ملتاعاً، متوفزاً، فتمعن في النفور مثل أرنب بري. وحين أبدي استيائي تبادر إلى قمعي، فأقعي صاغراً، وأنكفئ على نفسي؛ مستسلماً لأحلامي العجفاء؛ تحملني إلى أمداء شاسعة من وحشة مقفرة، لا طير فيها يطير، ولا وحش فيها يسير، فيما تتقلص أدواتي... تذوب شيئاً فشيئاً، وترتدّ منهزمة إلى الداخل .

هذه الحالة خلقت عندي شعوراً بالأسى العارم، جعلتني أرتد إلى الأعماق

* * *

ماذا ينقصني؟ رجل مثل كل الرجال، صحيح أنني خجول، أحمل خجلي وترددي على كاهلي وأشهره، وصحيح أنني قليل الجاذبية تنفر من دمامتي النساء، لكنني لست عديم النفع. وهي تعرف ذلك. فلمَ هذا العناد القابع في رأسها كريح شمالية.

حاولت منذ البداية أن أقلع جلد الحياء، وأن أحزم أمري، وواجهتها:

«اسمعي يا بنت الحلال ! صرت لي، لم يبق لك طريق من دوني، دربك دربي، وفضاؤك فضائي، فتعالي نتعاون على بلاء الدهر، وأنا خاتم في إصبعك؛ تديرينه كيف تشائين، وتنقلينه من أصبع إلى إصبع كما تشتهين» .

* * *

كانت تزداد في كل يوم صلفاً، حتى جاءت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير؛ يوم جاءت أمي تحمل إليها لهفتها؛ سريراً من الخشب، ينهض على جانبيه لوحان مطليان بالأخضر، تزينهما رسوم بدائية على شكل عرق؛ تناضدت أوراقه ميمنة وميسرة، وعلى الرأسين ترتفع دائرتان مؤطرتان بإطار بارز يصنع منهما جناحين يرتبطان من الأعلى بمقبض خشبي مزخرف، غرست فوق طرفيه تفاحتان من البورسلين .

قالت أم جابر: في هذا السرير نام جابر، وأخرجت عصارة كبدها حينما أظهرت رغبتها في أن ترى ولداً لجابر ينام على هذا السرير.

لكن سلمى التي كانت تتطلع إلى الخلاص مني بأي سبيل رأت في هذا السرير شؤماً... رابطاً أبدياً، ما ينفك يؤرقها، ويلح عليها كي تبدد كل الأحلام التي تنعقد في هذا الاتجاه. وبلا أدنى حد من حدود المجاملة أجابت:

- حتى يجي الصبي بنصلي على النبي.

كان ذلك بداية الزوبعة. زوبعة لفت في طريقها سلمى ... رفعتها عالياً، وألقتها في بيت أهلها من جديد، فإذا هي شبه ارملة تبني أحلامها خارج حدودي، وربما خارج حدود قميرة كلها.

كل الوساطات أخفقت... كل الوجاهات دخلت في دائرة التسويف والمماطلة، وأخيراً الجمود والعدمية. لقد أعلنت منذ عودتها إلى البيت: « لو دققتم لحمي ولحمه بالجرن، لانتزعت لحمي من لحمه».

شيء واحد أوقف والدها عن تصرف أحمق كـان يمكـن أن يتخذه في ساعة جنون؛ عندما ردت على الجنون بجنون آخـر؛ فأعلنت أنه لم يبق أمامها غير طريق واحد للخـلاص. عندئـذ أدرك والدها أنها جادة في جنونها هذا، وأنه لا يستطيع أن يوقف هذا الجنون عند حد.

ما الذي جعلها تطوي بساطها، ، وتربط قربتها عائدة إليّ؛ بلا ضغط ولا إكراه؟!.

* * *

أصبت بالذهول، حلمي الذي كنت أتطلع إليه معانقاً الثريـا، أراه الآن يلتصق بالثرى:

« يارب العزة! ما الذي جعلها تدني لـي قطافهـا؟ أم أنني تغيرت دون أن أدري، وأصبحت الرجل الذي تنشده سـلمى، وترسم له صورة مكبرة في دماغها الناشف؟. ما زلت أنا أنا. لم يتبدل فيّ عرق، ولم تنبت في رأسي شجرة، لم أبلط الزرقـاء، وما شربت ماء البحر، ولم يبق أمامي إلا النذور. وها هي الآن تنفرج عن قامة بطول حورة، بلا مزيد من نزف ماء الوجه»

بدأت أقنع نفسي أن الرحمن قد أنزل سكينته، وأرسل سـفير قدرته، فحملها على الانصياع لي. وكي يكمل الله إحسانه فقـد رزقها بولد، زرعه في أحشائها منذ الليلة الأولى التي عادت فيها إليّ، وربما قبل ذلك بقليل. ولد أسمته سالماً كي يبقـى سـالماً، هكذا اعتقدت بداية، حينما أقنعتني أنه كنزنا. لا نريد مزيداً عليه.

وحينما طلبت إليّ أن ألتحق بقافلة الباحثين عن أمجادهم في طول الجماهيرية الليبية وعرضها؛ كانت تدرك أنها لا بد أن تلتقي يوماً ذلك الذي دفعها إلى «خانة الياك» دفعاً. يكفي أن يظلهما علم أخضر، وتستوعبهما شواطئ تمتد على مسافة آلاف الكيلومترات. لذلك لم تمل عليّ شرط المكان، تركتني أتجه بها إلى زوارة. وظللتُ كل ذلك الوقت أعتقد أنها وضعت عقلها في رأسها، وكان سالم يشفع لها جموحها، وانصرافها عني متجهة إليه، وقد اخذ ينمو على شكل مختلف؛ رهيفاً... ندياً... أنيساً، لا يشبهني في شيء.

غير أن شيئاً يشبه الصحوة من حلم دافئ أيقظني في بيت سالم النصيرات. وبدأت أسترجع شريط الأحداث؛ حابساً أنفاسي، ألوك المشاهد مثلما يلوك المرء قطعة لباد نتنة:

« سفرها إلى بنغازي... مضيّها إلى طبرق... هل كان ذلك بغير إرادتها؟!. ثم إصرارها على أن يدخل الأستاذ سالم في الحل، وإصلاح ذات البين، وأخيراً هذه اللهفة التي أمطرها بها سالم النصيرات، وأغدقها على سالم الصغير ».

* * *

هذا الشبه بين السالمين أضناني، شفني، حرك في داخلي شيئاً من الفضول، جعلني أراقب كل يوم نقاط التشابه التي تعددت، كل يوم أكتشف تشابهاً جديداً، حتى كان يوم خرج فيه الأستاذ سالم ينتعل خفه المنزلي بلا جوارب، لأول مرة أرى رجليه بلا

جوارب، وأرى إلى تلك الفضلة في إبهامه الأيسر على هيئة إصبع صغيرة. هي نفسها التي ما زالت تقبع في إبهام سالم الصغير الأيسر. وطالما حاولت إقناع سلمى أن أزيلها له بعمل جراحي فرفضت.

في هذه اللحظة بالذات تولدت في رأسي فكرة التخلص من سلمى، نبتت في عزيمتي مثل شجرة، أخذت تنمو بشكل خرافي. ولأول مرة أشعر أني قد تمردت على ترددي وحيائي وضعفي».

تليت إفادته عليه، وأخذ توقيعه بحضورنا.

* * *

في نهاية التحقيق طلب منه المحقق مشاهدة الأداة الجرمية، فقادهم إلى المربوعة، وحين دخل المطبخ تبعوه، لكنه كان أسرع منهم؛ حينما أفرغ محتويات الزجاجة في جوفه، وقذفها في وجوههم، وانداح على الأرض بلا نفع.

* * *

تحقيق من نوع آخر

بعد إجراءات الدفن عدت إلى البيت منهوكاً، أحمل قلباً أشعله الحزن، نهر من الحزن يردفه نهر آخر؛ مَن وراء موت سلمى بتلك الطريقة الموجعة؟!. بل من وراء موت جابر بالطريقة نفسها؟!. من يتحمل الذنب غيري؟ وكم تستطيع أن تستوعب من الحزن أيها القلب؟!.

تلقتني رمزية:

- **سالم!**

ارتجفت، ردتني رمزية إلى القميرة قبل أن تتفوه بحرف، عيناها قالتا ما كانت تنوي أن تقوله، هبطت عليّ المخلوقة كنسر، أخذتني بين مخالبها وطارت بي إلى الأعلى، ثم ألقت بي على الأرض بعد أن سألتني الأسئلة المعهودة: ماذا ترى من الأرض؟.

- **نعم ؟!**

خرجت هكذا بلا إرادة، ولا إتقان.

- **من هي سلمى؟.**

* * *

لم يبق ثمة ما تكتمه. ذهبت المخلوقة وتركت لك سالم؛ سالم جابرسعيد ظاهراً وسالم سالم النصيرات باطناً. ماذا يجدي الإنكار؟! وماذا تجدي المراوغة يا سالم النصيرات؟. لم يبق إذاً إلا أن تعترف:

« اسمعي يا رمزية! سأكون كاذباً، بل سأكون دجالاً لو نفضت يدي، لو قلت لك أنها نزوة تلبستني في لحظة ذهول.

المخلوقة هي التي طرقت الباب، وأنا الذي فتحت. أو لنقل إن المصادفة قد جمعتنا على مفترق من المدقات. فانفتح القلب للقلب، واشتبكت اليد باليد، وعانق العنق العنق. لا أدري من الذي طرق الباب أولاً، لكن الأبواب انفتحت، جميع الأبواب، وجميع النوافذ، وانضفر حبل من الود، أخذ ينفتل ويشدنا... يشدنا، لا أدري كيف. وحين حدث ما حدث كنا في عالم آخر خارج نطاق الوعي الكلي. أنا لا أبرئ نفسي يا رمزية، حتى الآن لم أشعر أنني قد اقترفت إثماً، كنت مصراً على إتمام ما ينبغي، لكنها غابت، شمس وانطفأت. هل كنت سأكتفي بإشعاعها فيما لو ظلت مشرقة؟. ربما. هل أحببتها؟. كثيراً. هل تمنيت أن تشرق من جديد؟. بكل تأكيد .

لكنها غابت، وأشرقتِ أنتِ فملأتِ كوني ضياء بدلاً منها. لم يبق لها مساحة في القلب، فقد احتللت كامل المساحة بسهولها وجبالها ووديانها. هل تغارين من حبي الذي كان؟ وأنا أتحدث عن كائن ميت، ماتت سلمى يا رمزية، وتركت لك سالم النصيرات بكل ما فيه من وهج. أتذكرين حينَ حدثتني عن عليّ الذي مات؟ أيضاً كنت تتحدثين عن كائن ميت، وكان ينبغي ألا أغار».

* * *

هل استطعت أن أقنع رمزية بخطابي، لم تمكني رمزية من ذلك أبداً غير أن شيئاً ما لم يتغير تجاه سالم الصغير.

* * *

شمس آخر الحلم

واستمر حصار مدينة برقة تسعة أشهر دون نتيجة، وقام جنود الفرس بعمليتي تسلل لم يكتب لهما النجاح. عند ذلك شرع القائد الفارسي يحفر حفرة كبيرة، ثم سقفها وسواها بالأرض، ودعا أهل برقة إلى مؤتمر صلح، ووقف المؤتمرون فوق الحفرة، واتفق الطرفان على ثلاثة بنود:

الأول أن يعوض أهالي برقة ملك الفرس عن بعض خسائره التي لحقت به في الحملة .

الثاني: لا يلحق الفرس من جانبهم أي أذى بمدينة برقة .

والثالث: تبقى هذه المعاهدة سارية المفعول ما دامت الأرض التي يقف عليها المتعاهدون ثابتة.

ووافق أهل برقة على المعاهدة، وفتحوا أبواب المدينة. لكن القائد الفارسي عاد فهدم الحفرة بسرعة، وبادر إلى دخول برقة

موقناً أنه لم يخلّ بشيء من عهوده. وصب سخطه على برقة ودمرها عن آخرها، وساق أهلها عبيداً إلى الملك داريوس.

هل سيغمس التاريخ قلمه مجدداً في مداد من شقاء الليبيين وتعاستهم، وتبددهم في هذا الحصار اللعين؟!.

أيام تطوى، وصفحات تكتب، وعيون ترصد الموانئ الجوية الليبية التي أكلها الصدأ، وأخذ يزحف نحوها غبار النسيان؛ يغير ملامحها، يحيلها إلى قتام. ولم يبق أمام الليبيين التعساء إلا ذلك الصوت، يناجون به الله؛ آخر رجائهم؛ وقد عز النصير والمعين: «**اللهم احصرهم عددا... واقتلهم بددا... ولا تغادر منهم أحدا**». فهل يستجيب الله لنداء المغلوبين على أمرهم، المستعصمين بحبال الأمة الراكدة، الحبلى بالأوهام والانتصارات؟.

أسألهم السؤال المعجز في الجلسة المفتوحة للجامعة العربية التي شكلناها على طريقتنا في جماهيرية الزحف الأخضر. وكان الرهان على أن القائد الفارسي ربما يدخل طرابلس صلحاً بعد أن دخلها غيره حرباً؛ دون أن يحتاج إلى تلك الخدعة التي لجأ إليها سلفه، وسوف يفرض شروطه الجائرة. غير أننا كنا ندرك سلفاً كيف سيخرج العرب من هذه اللعبة منتصرين.

وقبل أن يتخذ مجلسنا قراراته الحاسمة استدعوني:

- **مطلوب إلى البيت ضروري.**

قلبي يقفز إلى الأعلى... عشرات الخواطر تترامح في رأسي... مئات الهواجس تحفر بأظلافها كجداء نشطة. والطريق ما بين البيت والمدرسة في الجبيلة الحمراء مرصوفة بالمواجع والنكد والقهر، عشرات المطبات الطبيعية، حفر، مستنقعات اصطناعية، وأشياء أخرى لا تحصى، عبرتها بسرعة من يخشى أن يفوته القطار، وحين وصلت كانت المحطة مترعة بالنساء، نساء تضافرن من هنا وهناك، يلببن صوت رمزية الذي أخذ يتعالى عنوة، بغير إرادة منها، كتمته وكتمته، ولكن منذا الذي يستطيع أن يمنع النبع من الانبجاس الحر، منذا الذي يغلق فم امرأة جاءها المخاض في غفلة منها، لم يكن حولها نخلة تهزها فتساقط رطباً جنياً. ولم يجعل ربها لها من تحتها سريا. ولم يرسل لها من لدنه ملكاً يهدئ من روعها، ويبشرها بغلام اسمه فهد. لقد كانت وحيدة مع سالم الصغير الذي وجد في فيئها ظلاً؛ بعدما تبددت الأسرة التي كان أحد أفرادها؛ أمٌّ إلى عالم الغيب، ورجل ظل يتوهم أنه أب، وإذ فاجأته الحقيقة ألقت به في مهاوي القتلة المحترفين. فأنى لصبي مثل سالم الصغير أن يتحمل مسؤولية إغاثة كهذه.

كان عليها أن تزحف بأوجاعها ووهنها إلى مصيونة. ومصيونة تعرف من أين تبدأ حملة الإغاثة، مدفوعة إلى ذلك بعاطفة جامحة.

كيف تجمع ذلك الكم من النساء بمثل هذه السرعة، وهذه الكثافة وهذا الرفق؟! أحسست أني مدين لهؤلاء الليبيين الطيبين بالكثير من الفضل، وأيقنت أن ألمي جراء الحصار لم يكن منفصلاً عن آلامهم.

لم تتركني مصيونة أذهب بعيداً في تفكيري وتدبيري، انتزعتني كما لو أنني معلق بخطاف، حين وجدتها مع إنجي وفريق آخر من النساء يقدن رمزية إلى السيارة بعد أن هيأنها، ورتبن لها حاجاتها... وإلى مشفى الحرية.

* * *

من أين ستستعير الصبر، ومن ذا الذي يبيعه الآن أمام غرفة الولادة؟ ما هي أحلامك الآن؟ أيها القريب البعيد، المسافر المقيم، الواقف الجالس، المستعصي على الثبات. الآن الآن رحلت كل الرغبات التي كانت تسكن دماغك المحشو بالآمال، عدا رغبة واحدة؛ أن ترى رمزية وقد خرجت سالمة من تلك المفازة

المهلكة... أن تكتحل عيناك بقامتها؛ وقد ردت على تحيتك باحسن منها.

ـ وفهد ؟! الذي جعلته حلمك الأبدي ؟

- لم يبق في القلب متسع ... لقد ملأه سالم الصغير.

- ورمزية التي تتمنى أن تراها سالمة؟ ألا يحق لها أن تسعد هي الأخرى، ومن الذي سيملأ قلبها بالحب؟

- سالم أيضاً؛ لقد غدا لها إبناً منذ أن احتضنته بين ذراعيها أول مرة.

ولكن ماذا عسى أن تفعل لو وصل إليها ما انتهى إليه التحقيق، وهل كنت قادراً على تغيّبها في مستقبل الأيام .؟!. لقد غيبتها أوجاعها، فألهتها عن متابعة أي خبر، ولكن إلى متى.

ما يحيرك ويدهشك أنها لم تلتفت إلى هذه العلامة التي تجمع بينكما، ، وربما رأت ذلك من قبيل المصادفة،. لا وقت الآن لهذه الهواجس، فقلبك يكاد يقف ".

وتفيق فجأة، تنضو عنك ثوب قناعتك، ترميه للرياح اللاهثة حين تبزغ تلك الحمامة البيضاء :

- من سالم النصيرات؟... سالم النصيرات.

وتهرع إليها يسقط قلبك بين قدميك، يتعطل لسانك ... حواسك كلها، عدا العينين المفتوحتين وقد سبحتا بفيض من الزلال، تتجه بهما إلى تلك الحمامة البيضاء، تستقرئها، تستنطقها، تتشبث عيناك بشفتيها اللتين انفرجتا عن ابتسامة من نوع ملائكي :

- **مبروك... ش تبي تسمي العيل؟**[1] .

* * *

خلعت عليك الخبر مثلما تخلع عليك بذلة من قصب، أغرقتك بنثيث البهجة، رسمت لك طريقاً آخر، موشى بالياسمين، غير الطريق الذي كنت تتقراه بعينيك قبل قليل.

ماذا جرى؟! لا تدري. نار هبت في كيانك، اتقدت في شرايينك، بين ضلوعك، جعلتك تزحف إلى غرفة الولادة بلا وعي. وحين أمسكتْ بيدك لتوقف هذا الجنون نفضت يدها، توسلت إليها بمن تعبد... بالملائكة التي في السماء من جبريل إلى عزرائيل. بالرسل والأنبياء الذين عبروا منذ آدم إلى آخر الرسل والنبيين. لكن الأصول أصول، أم أنك نسيت أن في الداخل نساء أخريات غير رمزية؛ لا يجوز لك أن تخترق حرماتهن، وتسطو على أوجاعهن.

* * *

---

(١) ش تبي تسمي العيل: ماذا تريد أن تسمي الطفل؟

أردت أن تحدد اليوم والساعة والثانية التي ولد فيها فهد، أخرجت مفكرتك، وكتبت " في الساعة الرابعة عشرة وأربعين دقيقة من يوم الخميس الواقع في ٢٦ أيار عام ١٩٩٤"

هل كنت تعد نفسك لطقس آخر ؟ لمفاجأة تمتحن فيها صبرك وتجلدك؟. ستكتشف ذلك عندما تستلم البرقية في اليوم التالي:

« عزاؤنا لكم بوفاة والدكم المرحوم يوسف النصيرات. تاريخ الوفاة : الساعة الرابعة عشرة وأربعون دقيقة من يوم الخميس ٢٦ أيار ١٩٩٤. وإنا لله، وإنا إليه راجعون »

ومن ساعتك توجهت ثانية إلى مشفى الحرية لتصحح اسم المولود، ليغدو يوسف سالم النصيرات.

تمت

السويداء. ظهر الخميس ٢٦ أيار ٢٠٠٨

حاشية لم تذكر

التاريخ موصول بعضه ببعضه الآخر، يمضي بك مرة إلى خيال يشبه الواقع. ويفضي بك أخرى إلى واقع أغرب من الخيال. وفي كل الحالات أنت رهين ذلك التاريخ الموصول، تستقرئه، تستدعيه، لكأن حياتك سفر مكتوب منذ أن علم الله الإنسان بالقلم، وعلمه ما لم يعلم.

حاشية أخرى

كل ما ورد من تاريخ قديم مستمد من المدونة التاريخية « تاريخنا » إعداد الصادق النيهوم.

* * *

فهرس

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

هأنتذا في طبرق! يجتاحك هاجس الندم، وتأكل عينيك المسافات، كل شيء في طبرق يزول إلى نتيجة واحدة، لكأنك لم تغادر دمشق، أو لكأنك في القاهرة أو عمان، فالمدينة العربية لا تغادر زمانها، ولا تبدل ثوبها؛ الشوارع مرشوقة بالصور، والحيطان مزدانة بالشعارات، صور من مقاسات متعددة، صغيرة وكبيرة وكبيرة جداً، تذكرنا بأجدادنا العماليق، ناءت بحملها الشاخصات والجدران، فصارت تئن تحتها أنيناً موجعاً. وتأبى كل صورة إلا أن تنتمي إليك بالأخوة: الأخ قائد الثورة. أخوة من نوع نادر، تجدها تحت كل صورة، وتحت كل عبارة، وتحت كل شعار، بالخط الفارسي والديواني والنسخي والثلثي والكوفي وخط الرقعة وخط الاستواء. هذه المدرسة العربية تسييس الجدران مدرسة ضاربة في البعد في ذهنية القوم، منذ أن قال لهم قوموا فقاموا ساجدين لمن رفع الشعارات على عمد، وبسط اليد للبيعة قوة واقتداراً.



مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ١٣٠ ل.س أو ما يعادلها